

جامعة القاهرة

كلية الآداب

يصدرها
قسم التاريخ

المؤرخ المصري

دراسات وبحوث تاريخية محكمة

العدد السادس عشر
يناير ١٩٩٦

قواعـــد النشـــر

- ترحب المؤرخ المصرى بنشـــر الأبحـاث والدراســات الأصليـة ذات المستوى الأكاديمى الجاد بعد التحكيم ، فضلاً عن مراجعات وعـرض الكتب الجديدة .

- تقبل المؤرخ المصـرى للنشر الأبحـاث التاريخيـة والحضاريـة المكتوبـة باللغتين العربية والإنجليزية على ألا يزيد عدد صفحـات البحث أو المقـال عن ٣٠ صفحة مطبوعة على الآلة الكاتبة على ورق حجم كوارتر بما فـى ذلك الهوامش والجداول وقائمة المراجع .

- المؤرخ المصرى لا تنشر بحوثاً سـبق أن نشـرت أو معروضـة للنشـر فـى مكان آخر ، وتقوم رئاسة التحرير بإخطـار المؤلفين بإجـازة بحوثهم للنشـر بعد عرضها على هيئة التحكيم .

- تحتفظ المؤرخ المصرى لنفسـها بحق القبـول أو رفض الأبحـاث أيا كـان قرار هيئة التحكيم .

- النشـر فـى المؤرخ المصـرى متـاح لأعضـاء هيئـة التدريـس بالجامعـات المصرية والعربية والأجنبية وسائر المهتمين بالدراسات التاريخية .

- الآراء الـواردة بالمـؤرخ المصـرى تعبر عن وجهة نظـر أصحابها .



المؤرخ المصرى

العدد السادس عشر — يناير ١٩٩٦

المراســلات :

ترسل البحوث والمقالات باسم السيد الأستاذ الدكتور/ **سيد أحمد الناصرى** رئيس التحرير على العنوان التالى :

كلية الآداب – جامعة القاهرة (قسم التاريخ)

بريد الأورمان – محافظة الجيزة

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية العـدد

تنعى هيئة تحرير المؤرخ المصـرى علماً من أعـلام التـاريخ والثقافـة والصحافة وأستاذاً متميزاً فى قسم التاريخ وهو الأستاذ الدكتور **حسين مؤنـس** أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية الذى وافته المنية فـى السـابع عشـر مـن شهر مارس عام ١٩٩٦ بعد صراع طويل مع المرض ورغم وطـأه المـرض ظل لآخر لحظة على مقالاته الشيقة فى الصحافة .

ولد الفقيد الراحل فـى ٢٨ أغسطس عـام ١٩١١ ، حيث حصـل علـى ليسـانس الآداب تخصص التـاريخ عـام ١٩٣٤ . ثم أرسل فى بعثة علميـة لفرنسا حيث حصل على دبلوم فى تخصص العصور الوسطى الإسـلامية من جامعة باريس عام ١٩٣٨ ، ثم انتقل بعد ذلك إلى سويسرا بسبب قيام الحـرب العالمية الثانية حيث واصل دراساته فى جامعتى بازل وزيورخ ، وحصل فـى عام ١٩٤٣ على درجة الدكتوراه فى تاريخ الأندلس . وقـام بـالتدريس فـى جامعة زيورخ ما بين عـام ١٩٤٣ - ١٩٤٥ . وعـاد إلـى مصـر بعـد انتهـاء الحـرب العالميـة الثانيـة فعين مدرسـاً فـى قسم التـاريخ بكليـة الآداب جامعـة القـاهرة حيث واصل أبحاثه حتى وصل إلـى درجـة الأستاذية فـى التـاريخ الإسلامى عـام ١٩٥٤ . وفـى عـام ١٩٥٥ عين مديـراً عامـاً للثقافـة بـوزارة التعليم إلى جانب عمله فى الجامعة حيث أنشأ مشروع الألف كتـاب والمجلس الأعلى لرعاية الآداب والشعبة القومية لليونسكو وفى عام ١٩٥٧ انتدب مديراً لمعهد الدراسات الإسلامية فى مدريد وظل يدير هذا المركز بجدارة حتى عـام ١٩٦٩ . وفـى عـام ١٩٦٩ انتدب للعمل فـى جامعـة الكويت كرئيس لقسـم

التاريخ وظل هناك حتى عام ١٩٧٧ ، ثم عاد ليعين رئيس لمجلة الهلال وأستاذاً غير متفرغ في قسم التاريخ ، حتى وافته المنية عن عمر يناهز الخامسة والثمانين . بعد أن ساهم في حقل التاريخ الإسلامي بما يقرب من عشرين كتاباً أولها المشرق الإسلامي في العصر الحديث الذى صدر عام ١٩٣٨ ، وآخرها كتاب أطلس تاريخ الإسلام الذى صدر عام ١٩٨٧ وتاريخ قريش في التسعينيات أي أن راحلنا ظل يؤلف لمدة نصف قرن . كما كان له مساهمات كبيرة في مجال الأدب والصحافة والقصة القصيرة والرواية . أشهرها إدارة " عموم الزير " التى صدرت عام ١٩٧٤ . كما كتب مسلسلات للتلفزيون مثل " قصة الأندلس ". كان هذا العالم الجليل يجيد أربعة لغات هى: الإنجليزية والفرنسية والألمانية والأسبانية ، كما كان ملماً باللغة اللاتينية. وهذا أتاح له العمل كأستاذ زائر في إنجلترا والولايات المتحدة وألمانيا . كما مثل مصر في عدة مؤتمرات دولية ولقد تميز أستاذنا الراحل بالأسلوب الأدبى الساحر وذلك من خلال خبرته الطويلة في العمل الصحفى والروائى بالإضافة إلى دقة منهجه في التاريخ وعالمية نظرته الشمولية .

رحم الله أستاذنا الجليل وطيب ثراه وهيئة التحرير تشاطر أسرته العزاء.

رئيس التحرير

البحوث والدراسات

التجارة المصرية مع نجد

خلال الربع الأخير من القرن ١٨ فى ضوء الوثائق المحلية(*)

د. عبد العليم على أبو هيكل
كلية الآداب - جامعة القاهرة

يسود اعتقاد بين الكثير مفاده أن ميثاق الدرعية الموقع بين الشيخ محمد ابن عبد الوهاب ومحمد بن سعود عام١١٥٧/١٧٤٤م يمثل بطرفيه الدينى والسياسى القاعدة التى انطلقت منها الحركة السلفية لتدعيم موقفها داخل نجد والانطلاق بعد ذلك لنشر مبادئها وسيادتها فى أنحاء متعددة من شبه الجزيرة العربية وحتى خارجها .

إلا أن الوثائق المحلية النجدية التى أرفقت بتقارير القنصل الانجليزى فى جدة (سوهراب Sohhrab) كشفت النقاب عن أهمية العامل الاقتصادى خاصة (التجارى) منه فى تنشيط الحركة السلفية واتساع مدى انتشارها فكرياً وسياسياً إلى مجالات أكثر رحابة بعد أن ظلت مايزيد على الأربعين عاماً محصورة فى حركتها داخل نجد نفسها(١) حتى تم إخضاع القصيم بشكل نهائى وبالتالى كان ترسيخ ووضوح أهمية الدور التجارى خاصة مع مصر ،

(*) ألقى هذا البحث فى ندوة مصر والجزيرة العربية فى إبريل ١٩٩٣ بكلية الآداب - جامعة القاهرة .

(١) انظر فى ذلك الكثير من المصادر النجدية وغيرها ، وعلى سبيل المثال لا الحصر، حسين بن غنام فى كتابه - روضة الأفكار والأفهام لمرتاد لحال الإمام وتعداد غزوات ذوى الإسلام ، تحقيق ، ناصر الدين الأسد ، القاهرة ١٩٦١ وعثمان بن بشر : عنوان المجد فى تاريخ نجد ، ط٤ الرياض١ ١٤٠٢هـ/١٩٨٢ .

ليضاف إلى ميثاق الدرعية كركيزة ثالثة له ، وذلك من خلال ما تم الاتفاق عليه بين تجار نجد وسعود بن عبد العزيز على مرحلتين فى عامى ١٢٠٢هـ/١٧٨٨م و١٢٠٥هـ/١٧٩٠م وفيهما تعهد الطرف الأول (النجار) ضمان إمداد الحركة السلفية بالمؤن خاصة من تجارتهم مع مصر ، مقابل قيام الطرف الثانى تأمين طريق التجارة معها لضمان سيولة الحركة التجارية، وكانت النتيجة السريعة وقتها خاصة من قبل شيوخ وتجار المدن الرئيسية هى الاعتراف بـ (سعود بن عبد العزيز بن محمد) ولياً للعهد(١) .

ومن ناحية أخرى ، إذا كانت العلاقة بين مصر والحجاز قد امتدت بجذورها عبر أعماق التاريخ بشكل متعدد الأنماط وحازات تلك العلاقة على اهتمام الكثير من الدارسين لأسباب متعددة يأتى السبب الدينى فى مقدمتها(٢) فإن علاقة مصر بنجد قبيل الزحف على الدرعية من قبل قوات محد على خلال العقد الثانى من القرن التاسع عشر قد طغت عليها سحابة من الغموض يعود بعضها أما لمعطيات نجد الجغرافية أو تدنى قيمتها الاقصادية ، ومن ثم عدم الاهتمام بالتطوارت داخلها ، لكونها كما يعتقد ، تجرى فى إطار قبلى

---

(١) يقول ابن بشر عن حوادث عام ١٢٠٢هـ (وفيها أمر الشيخ محمد بن عبد الوهاب جميع أهل نجد أن يبايعوا سعود بن عبد العزيز وأن يكون ولى العهد بعد ابيه ، وذلك بأذن عبد العزيز فبايعوه جميعهم) عثمان بن بشر عنوان المجد فى تاريخ نجد ، جـ١، ط٤ ، الرياض ١٤٠٢هـ /١٩٨٢م ، ص١٦٢ .

وقد جاءت المبايعة كما هو واضح فى تسلسل الحوادث بشكل مفاجئ ، ووسط حوادث الصدام المتتالى .

(٢) انظر على سبيل المثال : (أ) د.سليمان عطية سليمان : سياسة المماليك التجارية فى البحر الأحمر القاهرة ١٩٥٩ و (ب) على بن حسين السليمان : العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك ، القاهرة ، ١٩٧٣ .

رتيب ، بالرغم من الإشارات المقتضبة التى أوردها البعض عن علاقة نجد بمصر كما جاء عند صاحب كتاب (لمع الشهاب فى سيرة محمد بن عبد الوهاب) عن نشاط أهل نجد وعلاقتهم (الخارجية) ومن بينها مصر فذكر (وقد يسافر أهل نجد إلى مصر، لكنهم لم يشتروا منها إلا السلاح والمرجان) ويستطرد (كما أن كثيراً من تجارهم اليوم - يقصد أهل نجد - جلوس ونزول فى حلب وفى دمشق الشام ، ومنهم من هو فى مصر ولكل واحد من المدة عشرين سنة بل أكثر)(١) .

أما عثمان بن بشر فقد كتب فى (عنوان المجد فى تاريخ نجد)عن أهله (وسارت عمالهم إلى جميع الإعراب فىالشام والعراق واليمن وأقصى الحجاز إلىماوراء ينبع إلى دون مصر وما دون البصرةوالبحرين وأقصىعمان)(٢).

بالرغم من هذا أهمل الدور الذى لعبه (العامل الاقتصادى) فى نجاح وتثبيت الحركة السلفية فى نجد نفسها ، وأنصب الاهتمام على مالعبته تلك الحركة من مؤثرات دينية وسياسية وعسكرية فيما حولها لفترة طويلة دون حسم من عام١١٥٧هـ حتى ١٢٠٢هـ(١٧٤٤ إلى ١٧٨٧) حين جاء التحول الحاسم وأقرت الأوضاع داخل نجد نفسها بالاعتراف بسعود بن عبد العزيز كولى للعهد من قبل أهل نجد كما ذكرنا سابقاً(٣) وكان لب هذا التحول

(١) مؤلف مجهول : لمع الشهاب فى سيرة محمد بن عبد الوهاب ، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز (٢) الرياض ، بدون تاريخ ، ص١٩١.

(٢) عثمان بن بشر : الممصدر السابق ، ص٢٨ .

(٣) هناك كم هائل من الدراسات حول هذا الموضوع نكتفى بالإشارة إلى أمثلة منها - أ. الدكتور عبد الحميد البطريق : ذكرى البطل الفتاح إبراهيم باشا القسم الأول (إبراهيم باشا فى بلاد العرب) القاهرة ١٩٤٨ . (ب) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : الدولة السعودية الأولى ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، بالإضافة إلى المصادر المعاصرة .

كما سنرى هو استمرار تدفق الشريات التجارى خاصة مع مصر ، كما كان طبيعياً أن تشجع الحركة السلفية تطلعات القوى البشرية النجدية فى تحقيق مصالحها خاصة (الاقتصادى منه) ، انسجاماً مع واقع الأقليم القبلى ذات السمات الخاصة ، وفى مواجهة أشكال وأنظمة قبلية أيضاً ربما كانت أكثر قوة كالعجمان وبنو خالد فى الشرق والشرارات والرولا وآل الرشيد فى الشمال والقبائل العمانية والقواسم فى الجنوب ، أو مع الأنظمة السياسية غرباً كالإشراف والدولة العثمانية ، ومما يؤكد ذلك أن معارك الحركة السلفية منذ منتصف ق١٨ وحتى مجئ قوات محمد على إلى نجد فى بداية العقد الثانى من ق١٩ كانت فى أغلبها مصادمات متتالية هى تلك القوى لقبلية والسياسية[١] ، ومع انسحاب تلك القوات القادمة من مصر ، فسرعان ماعادت تلك الأشكال النمطية من المصادمات القبلية إلى سيرتها الأولى ، سواء فيما بين القبائل أو قطبى الحركة السلفية نفسها (آل سعود وآ ل الشيخ) استغرقتها معظم سنى الدولة السعودية الثانية[٢] ، ومن بين ثنايا تلك الفوضى التقت طموحات بعض تجار نجد مع التطلعات البريطانية فى ذلك الوقت والقائمة على خلق مراكز تجارية لها عبر الطرق المؤدية إلى آسيا ومعها بعض القوى الأوربية الأخرى[٣] فشهدت بلدان الشرق ومنها شبه الجزيرة العربية منذ بداية القرن التاسع عشر تدفقاً متتالياً لكثير من الرحالة[٤] أو

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ، ص ص ٨٠ /١٠٥ .

(٢) عن التطورات والصدام الذى شهدته الدولة السعودية الثانية انظر : عبد الفتاح حسن أبو علية : الدولة السعودية الثانية ، (١٨٤٠هـ/١٨٩١) الرياض ط١ ١٩٧٤ .

(٣) عن تلك المحاولات والجهود ، انظر : بانيكر (ك .م) : آسيا والسيطرة الغربية ترجمة عبد العزيز جاويد ، مراجعة أحمد خاكى ص ص ١٩ /١٠٢

(٤) يأتى على رأس هؤلاء الرحالة :

1. Neibuor 2. Burcharadat 3. George Forster Sadler
4. James Buckingham 5. Lewis pelly 6. Palgrave

تعيين قناصل للدول الأوربية على امتداد الخط البحرى الموصل إلى الهند لرصد وتنشيط الحركة التجارية ووجهت هذه الأنشطة من قبل بريطانيا بإشراف من شركة الهند الشرقية (East India company) حتى عام ١٨٥٨م حيث أسندت بعد ذلك إلى وزارة الخارجية البريطانية .

انصبت تقارير هؤلاء القناصل على تقديم صورة عن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية وجريات الأحداث (السياسية) فى مواقع عملهم ، وكان من أبرز هؤلاء (جيمس سوهراب James Sohrab) الذى عين قنصلاً لبريطانيا فى جدة خلال الفترة من أكتوبر ١٨٧٨ حتى منتصف عام١٨٨١ بعث خلالها بالكثير من التقارير إلى الخارجية البريطانية أو إلى سفارة بلاده فى الأستانة وضم معلومات مستفيضة عن القيمة الاقتصادية التى يمثلها الحجاز وشبه الجزيرة العربية بصفة عامة بالنسبة لبريطانيا مع شرح واف لطبيعة الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية أيضاً ومدى الأهمية التى تعلقها الدولة العثمانية على إقليم الحجاز لقيمته الدينية الإسلامية ، بالإضافة إلى الأحداث التى كانت تشهدها نجد وقتئذ فى أواخر القرن ١٩(١) كنتاج طبيعى لما شهده هذا الأخير من أحداث وتطورات منذ منتصف القرن الثامن عشر(٢).

يبدو أن نشاط هؤلاء القناصل قد آثار اهتمام التجار فى شبه الجزيرة العربية، وكان من بينهم تجار نجد الذين أرادوا ركضاً وراء مصالحهم و(تعويضاً عن القلاقل التى تشهدها تلك الأقاليم – حالياً – أى فى الربع

(١) فى تلك الفترة بالذات منذ عام ١٨٨٠ كان البيت السعودى قد تناثر فى صراع بين عبد الله بن فيصل وقوة أبناء أخيه (سعود) وقوة آل الرشيد) أمير حائل .

(2) F. O. 195 / 1287 / 12, Report from Sohrab to Austin Layyard, 8/1/1879

الأخير من ق١٩ ، استثمار النشاط الانجليزى فى جدة وإمكانية الاعتماد عليهم فى تأمين نقل البضائع سواء من الهند والصين أو من شرق أفريقيا ومن مصر والسودان ، عبر شبه الجزيرة العربية نظراً لما اكتسبوه من خبرة فى هذا المجال)(١) .

كما أبدى التجار اعتماداً على قوة انتشارهم القبلى وخبرتهم التجارية إمكانية تحمل مسئولية تأمين سبل القوافل التجارية لبريطانيا عبر شبه الجزيرة وأكدوا رغبتهم تلك بما قدمه إليه كبيرهم (عبد الله البابطين)(٢) فى شهر إبريل من عام ١٨٧٨م من وثائق وأوراق تجارية تؤكد تمرسهم وخبرتهم التجارية مع التى تتعامل معها بريطانيا فى الهند أو فى الشرق أفريقيا وفى مصر منذ قرن مضى(٣) .

لوحظ على تلك الأوراق المقدمة من تجار نجد مايلى :

أولاً : انصب مضمونها إجمالاً على حركة البضائع المصرية داخل نجد نفسها وخاصة فى منطقة القصيم والدرعية ايضاً ، فيما يستورده التجار ويصدرونه دون ذكر النشاط المقابل لهذا فى مصر من حيث حركة البضائع

---

(1) F . O . I 95 / 20 i 6 / 3I . From Sohrab to Salisbury, 22/ I / I 879

(٢) لم تحدد الوثيقة ماهية أو نسب هذا التاجر وأن ذكرت المصادر أن (البابطين) هم أحد أفرع قبيلة (عائذ) من ربيعة أتخذت من (الروضة) فى (سدير) بشمال نجد موطناً لها ثم انتشرت فى بقية أنحاء نجد .

انظر : عبد الله بن محمد بن خميس : معجم اليمامة ، جـ ١ ، ط١ ، الرياض ١٣٩٨هـ ص ص ٤٨٥ / ٤٨٩

(3) F . O . I 95 / I 276 / I 6, Report from Soharab to Salisbury, 23 / 5 / I 878

النجدية داخلها أو كيفية تسويقها اللهم ألا ذكر لبعض الأسماء التى حملت على عاتقها مسئولية الإشراف على ما يرد إلى نجد من بضائع مصرية .

ثانياً : إن مدلول التجارة المصرية فى نجد لم يقف عند حدود دورها فى توجه الحركة السلفية والنتائج التى انعكست عليها ، بل كشف ايضاً (الدور التعليمى) الذى كان يقوم به البعض من المصريين المقيمين بمنطقة نجد وطبيعة الدور الذى أمل فيه رجال الدعوة السلفية أن يقوم به هؤلاء من نشر مبادئ الشيخ محمد بن عبد الوهاب داخل مصر .

ثالثاً : تكشف تلك الوثائق عن حجم الدور التجارى الذى باشره تجار نجد فى كافة الاتجاهات فلم ينحصر باتجاه واحد بل تشعب باتجاهات متعددة حتى وصل إلى مصر مما يحطم مفهوم العزلة التى يعتقد بها الكثير .

كان من الواضح أن الحركة السلفية مع بداية الربع الأخير من القرن الثامن عشر قد وقعت تحت ما يمكن أن نطلق عليه (الحصار الاقتصادى) غير متفق عليه من قبل القوى القبلية أو الأنظمة المنافسة التى خشيت من امتداد مبادئ أوسيادة الحركة السلفية إليها والتى تتحكم فى شرايين التجارة أيضاً مع نجد .

فعند مدخل الخليج كان الصرع مشتعلاً بين قبائل الساحل الشرقى (بنى كعب وبندر رقيق) من ناحية ، والعتوب من ناحية أخرى لكسب مواقع جديدة لهم فى البحرين(١) وسرعان ما أنضم (القواسم) أيضاً إلى ذلك الصراع فعندما تصدوا للتغلغل البريطانى باتجاه الخليج ، إنعكست هذه الأحداث سلباً

---

(١) د . فائق حمدى طهبوب : تاريخ البحرين السياسى (١٧٨٣ / ١٨٧٠) ، الكويت ١٩٨٣ ص ص ٤٦ / ٤٩ .

على حركة التجارة باتجاه الداخل(١) وضاعف من سيئاته ماكان من موقف (نبى خالد) فى الإحساء تجاة الدعوة السلفية واستمرار الصدام فيما بينهما منذ عام ١١٧٢هـ/١٧٥٨م(٢) ، وبالرغم من الضعف الذى انتاب (آل خالد) عقب وفاة زعيمهم (عريعر بن دجين) واشتعال الصدام بين أبنائه إلا أن موقف تلك القبيلة استمر بمثابة عقبة فى سبيل حسم موقف الحركة السلفية باتجاه الإحساء حتى عام ١٢٠٠هـ/١٧٨٦م لأسباب متعددة يأتى فى مقدمتها موقع وقيمة الإحساء تجارياً وبحرياً(٣) .

لم يختلف الخط العدائى تجاه السعود ونجد بشكل عام مع الحجاز ، لأسباب دينية وسياسية أيضاً مما جعل الإشراف من جانبهم يعدون العدة للزحف باتجاه وسط شبه الجزيرة والصدام مع آل سعود بدأ من عام ١٢٠٥هـ/١٧٩١م(٤) ألقى هذا الحصار بظلالة على أوضاع القصيم - المورد الاقتصادى لنجد وعلى الدرعية على حد سواء ، فبعث كبار تلك المناطق إلى

(١) لمزيد من التفاصيل عن تلك الأوضاع انظر على سبيل المثال :

(أ) Lorimer (I. C.) The Gazetter of The Persian Gulf, Vol . I, part I, Calcutta, I 9 I 5

بالرغم من ترجمة هذا الكتاب بواسطة - ديوان حاكم قطر) عام ١٩٦٧م إلا أنه من الأفضل والأوثق علمياً الاعتماد على الأصل .

(ب) د. سيد نوفل : الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربى ، جـ٢) إمارات ساحل عمان) القاهرة ١٩٦٧ .

(جـ) عبد القوى فهمى محمد : القواسم ، نشاطهم البحرى ، العين ، ١٩٨١ ، ص ص ٨٦ / ٧٨ .

(٢) حسين بن غنام : المصدر لسابق ، ص ص ١٥٠ / ١٥٤ .

(٣) عبد الرحيم عبد الرحمن : لمرجع السابق ، ص ص ٨٠ / ٨١ .

(٤) ابن بشر : لمصدر السابق ، ص ص ١٧١ /١٧٤ .

الإمام عبد العزيز بن محمد سعود برسالة عرضوا فيها ما يتعرضون له من ضيق فى معيشتهم ، وللخروج من هذا الموقف الحرج فإنهم مجبرون على التعامل مع قبائل الشرق والغرب على حد سواء بصرف النظر عن طبيعة موقفهم من الدعوة السلفية (مانبى - ما نبغى - قطع أرزاقنا وخيرنا لنا وليذورنا - أى أولادنا - وحنا ايش علومنا بعربان أولاد خالد وشيوخ الحجاز، حنا بنى مصلحتنا ودين الإسلام وخيرتنا ، وهادى حياتنا وحتى مع الشام وبر مصر ما عادت نحصل منها رزقنا وخيرنا وما عاد لنا شئ)(١) بمعنى أن عليهم حفاظاً على مصالحهم وتجارتهم وتحطيمها لهذا الحصار التعامل مع القوى المعادية للدرعية .

نعتقد أن ما آثاره تجارة نجد من أهمية الحفاظ على استمرار التبادل التجارى بينهم وبين المناطق المجورة قد آثار اهتمام آل سعود أمر حيوى لتدعيم واستقرار نظامهم ، فى ذات الوقت الذى أكدت فيه تلك الرسالة طبيعة تلك النظرة المتوازية التى كانت تنظر إليها القبائل تجاه الحركة السلفية وهى (الحفاظ على المصالح الذاتية واعتناق الدعوة السلفية)(٢) وبالتالى ومن خلال هذا التوازن نستطيع تفسير الدافع لوصول (سعود بن عبد العزيز) إلى عنيزة فى منتصف عام١٢٠٢هـ/١٧٨٨م للبحث فى الأسباب التى دفعت أهلها لاستقبال جماعة من آل الرشيد ، فقد كان اجتماعه برؤساء المدينة لعرض

(١) رسالة موقعة من كبار جار نجد (آل مزروع من منفوحة و آل العميرى من ثادق والمحمل ومحمد ، بن رشيد الحربى من الرس إلى الإمام عبد العزيز بن محمد ، محررة فى ١٥ شوال ١٢٠١هـ/ ١٧٨٧) ملحق(١)

(٢) انظر : تفاصيل الغزوات المتالية على القصيم بسبب (نقض العهد) من قبل قبائل شمال نجد وجنوب الدرعية ، عند ابن بشر ، المصدر السابق ص ص ١٣٧ / ١٥٦ .

مشاكلهم عليه ، وأنهم ما استقبلوا آل الرشيد إلا للوصول معهم إلى أتفاق يضمن استمرار وأمن القوافل عبر ديارهم والغاية والراحلة بين نجد والشام ومصر بعدما (تقطعت أرزاقنا مع بدوان الشرق والغرب وما عاد المؤن تصل من هون أو هون)(١) وبناء على تلك الشكوى فقد التمس سعود لهم العذر وطلب من مطلق البسام اعتبار هذا المكتوب فيما بينهم (أتفاق مبدئى) لخلق نوع من تبادل المنافع بين التجار وآل سعود ، يتولى بموجبه (أهل وتجار نجد) تقديم أخماس من تجارتهم مع مصر والشام إلى الدرعية خاصة من (البر) و(القماش) المصرى مقابل أن يتكفل هو (سعود) و(آل الشيخ) بتأمين هذا الطريق الشمالى مع (بدو الشمال) والتفرغ لنشر التوحيد بين (الكفار والمشركين) فى الشرق والغرب على حد سواء(٢) ومع هذا الاتفاق قدم مطلق البسام بياناً إلى (سعود حدد فيه إجمالى ما وصله من مصر عام١٢٠١هـ/١٧٨٧م على النحو التالى :

٤٥٠ أردب قمح مقابل ثلاثة آلاف ومائة ليرة ذهبية ، مقابل ما أرسل إلى (محمد بن إبراهيم بن حسين) من رجال الشرقية فى بلبيس عن ذات العام وهو (٢٢٠) أردب من التمر مقابل أربعمائة ليرة ذهبية(٣) .

---

(١) بيان صادر من شيوخ عنيزة إلى سعود بن عبد العزيز فىشعبان ١٢٠٢هـ/١٧٨٨م.

(٢) اتفاق وعهد بين مطلق البسام عن جموع أهل عنيزة وسعود بن عبد العزيز فى شعبان ١٢٠٢هـ/١٧٨٨م ملحق (٢) ويؤكد هذا الاتجاه ماذكره ابن بشر عن أحداث عام ١٢٠٢ هـ فقال (وفيها سار سعود بالعساكر المنصورة وقصد ناحية القصيم ونزل بلد عنيزة لأنه ذكر له أناسا من هلها يريدون نقض العهد من آل الرشيد واتباعهم فأمر عليهم يخرجون من البلد ... واستعمل أميراً عبد الله بن يحى) ابن بشر ص١٦١ .

(٣) بيان من مطلق لبسام إلى سعود بن عبد العزيز محرر فى ١٤ شعبان ١٢٠٢هـ

على حين كان حجم نشاط تجار نجد مع مصر عام١٢٠٠هـ/١٧٨٦م كما أورده هؤلاء على النحو التالى(١) :

أولاً : الوارد من مصر:

القمح بالأردب	الأرز بالأردب	الأقمشة بالبالة	الأوانى النحاسية بالقطعة
٩٥٠	٤٥٠	١٩٠	٨٣٠

ثانياً : ماصدره تجار نجد :

التمور بالطن	الأبل بالعدد	الخيول بالعدد
٣٥٠	١٠٢٠	١٨٠

ولم تحدد الوثيقة ثمناً لتلك البضائع فى عام١٢٠٠هـ سواء الوارد منها أو الصادر ، ونعتقد فى هذا أن (آل سعود) قد اكتفوا بالحصول على (أخماس) هذه البضائع (عينا) وليس (نقداً) ، كما فسر التجار تدنى حركة التجارة مع مصر فى تلك الأعوام السابقة على ١٢٠٢هـ ، بل توقف تصدير الأبل والخيول إلى ما يعرضون له من هجمات من (ديرة الشرق أى من بنى خالد ، وثوينى بن عبد الله أو من آل الرشيد فى الشمال وأعوانهم)(٢) .

تبلورت أمام تلك الأطراف (التجار وقادة الحركة السلفية) أهمية الحفاظ على شريان تجارى حيوى لأمداد مركز الدعوة بمتطلبات الصراع مع القوى المناوئة فلم يكن بالإمكان أن تسمح الأخيرة للحركة السلفية باستمرار

---

(١) بيان مقدم من (شعلان المطيرى عن بريدة وحمد البسام من عنيزة وعبد الله ابن رشيد الحربى من الرس) مؤرخ ١٤ شعبان عام ١٢٠٢ والبيانان مقدمان فى وثيقة واحدة انظر : الملحق رقم ٣ .

(٢) بيان من شعلان المطيرى ، سالف الذكر فى ١٤ شعبان عام ١٢٠٢هـ.

ما يدعم موقفها (العسكرى والاقتصادى) سواء من الشرق أو الغرب وبالتالى أضحى التوجه والحفاظ على الشريان الشمالى (إلا من نسبيا) فى ذلك الوقت أمراً لامفر منه ، فكان توقيع هذا (الاتفاق المبدئى) لتبادل المنافع بين الطرفين عام١٢٠١هـ والذى يعتبر من وجهة نظرنا مساوياً فى أهمية لـ (ميثاق الدرعية) الذى وقع بين (محمد بن سعود ومحمد بن عبد الوهاب) عا١١٥٧هـ/١٧٤٥م باعتبار تزواجا بين الأهداف السياسية والدينية (١) ، ومن ثم فقد جاء توقيع اتفاق ١٢٠٢هـ/١٧٨٧م ليضيف إلى تلك الأهداف والقواعد قاعدة ثالثة هى (الاقتصادى) .

حقيقة لم تكن التجارة مع مصر هى السبب الأوحد فى دوافع هذا الاتفاق فالقصيم بالنسبة لوسط شبه الجزيرة العربية ذات أهمية قصوى زراعياً وتجارياً بحكم موقعها وعوامل جغرفيتها (٢) إلا أن أحكام حلقة الحصار واستمرار الصدام والفوضى القبلية عقب ظهور الدعوة السلفية بعثر تلك القيمة الاقتصادية وحطم رافد الإمداد الاقتصادى للمركز السياسى وهو (الدرعية) خاصة مع تقلب ولاءات قبائل القصيم نفسها تجاه الدعوة بين الحين والآخر ومن ثم كان أمر الحفاظ على هذا المنفذ والرافد الاقتصادى للحركة

---

(١) أفضت الكثير من المصادر والمراجع فى الحديث عن (ميثاق الدرعية) ودوره كما جاء عند ابن بشر وابن غنام ، وفؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ، الرياض ١٩٣٣ ، ص ص ٣٣٥ / ٣٣٦ وأمين سعيد : تاريخ الدولة السعودية ، ط١ ، ص ص ٣٥/٤٠ وغير ذلك كثير .

(٢) عن أهمية القصيم الجغرافية والاقتصادية انظر : مثلا حسين حمزة بندقجى : جغرافية المملكة العربية السعودية ، القاهرة ، ط٢ ١٣٩٧هـ/١٩٧٧ ، ص ص ١٣٨/ ١٤٢ وخير الدين الزركلى: الوجيز فى سيرة الملك عبد العزيز ، بيروت، ١٩٧١ ص ١٣٧.
Musil (A) , Northern Nejd, New Uork, 1 928, pp . 252 / 253

أمراً من الأهمية بمكان ، فكان التوجه نحو الشمال ضرورياً بعد أن أضحت الجبهات الأخرى بؤرة دائمة للصراع غير مستقرة .

ومعاً يؤكد تلك الأهمية مايلى :

أولاً : أنه فى ذات العام الهجرى ١٢٠٢هـ/١٧٨٧م قام أهل نجد بمبايعة سعود بن عبد العزيز ولياً للعهد لوالده الإمام عبد العزيز فى ذات الوقت الذى قام فيه (سعود) بمهاجمة عشائر (عنزة) القاطنة شمال غربى القصيم عند جبلى (قنا وقنى)(١) فى عالية نجد(٢) .

ثانياً : بدأت قوات الحركة السلفية تتجه فى ضغطها وبقوة ناحية الشمال الشرقى حيث قوات (ثوينى بن عبد الله) وباتجاه (بنو خالد)(٣) .

ثالثاً : فى ذات العام عقب توقيع هذا الاتفاق المبدئى لوحظ الازدياد النسبى فى حركة القوافل التجارية أى زيادة حجم البضائع المصرية القادمة إلى نجد كما ورد فى بيان عقيلى – أى تجار – بريدة وعنيزة نيابة عن تجار نجد ، إلى سعود بن عبد العزيز فكانت على النحو التالى (٤) :

---

(١) يقع جبلى(قنا وقنى) ببين جبلين أكبر منهما (رخا وأدبى) بالقرب من خط٥٨/٤٠ه طولاً و١٠/ ٢٦ه عرضاً .

انظر : تفاصيل الموقع باستفاضة عند حمد الجاسر : فى شمال غرب الجزيرة ط٢ الرياض ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص٥٣٥ .

(٢) ابن بشر : المصدر السابق ، ص١٦٢ .

(٣) نفس المصدر ، ص ص ١٦٧ / ١٧٣ .

(٤) بيان مقدم من (شعلان المطيرى) عن بريدة و (حمد البسام) عن عنيزة و(عقيل بن حمد) عن عقيلى الدرعية إلى سعود بن عبد العزيز فى ربيع الأول ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م.

العام	القمح بالأردب	الأرز بالأردب	الأقمشة بالبالة
١٢٠٢هـ	٥٢٠	٤٨٠	١٢٠

على أن بداية هجوم قوات الإشرف على نجد من ناحية القصيم منذ أواخر عام ١٢٠٤هـ/١٧٩٠م وانضمام أفرع كثيرة من مطير وحرب للقوات المهاجمة ، أعاق إلى حد كبير مرة أخرى وصول كثير من البضائع المصرية إلى نجد حيث أن الكميات التى وصلت إلى الدرعية كأخماس عما يرد من مصر عام ١٢٠٤هـ/١٧٨٩م لم يتناسب مع ما وصله فى العام السابق ١٢٠٣هـ/١٧٨٧م وكانت المقارنة على النحو التالى :(١)

العام	من القمح بالأردب	الأرز بالأردب	الأقمشة بالبالة
١٢٠٣هـ/١٧٨٧م	٨٥	٧٢	٢٥
١٢٠٤هـ/١٧٨٩م	٣٤	٢٣	١٥

وأكد سعود أيضاً أن هذا النقص المستمر يثير الشك فى حقيقة موقف التجار من (دعوة التوحيد) كما أنه يعجز الطرف الأخير أيضاً عن الرد بكفاءة على ضغوط (المشركين) و (إلا فأن كلمة الشيطان سوف تجهد رجال التوحيد ويضيع الجميع)(٢) .

علل التجار فى ردهم على سعود بن عبد العزيز بأن النقص الذى أصاب (الأخماس) التى ترسل إلى الدرعية مرجعة أسباب خارجة عن إرادة هؤلاء وما يتعرضون له من ضغوط تتلخص من أمرين أساسيين :

---

(١) رسالة من سعود بن عبد العزيز إلى جموع تجار عنيزة وبريدة محررة فى ٢٣ ذى الحجة ١٢٠٤هـ (انظر الملحق رقم ٤) .

(٢) نفس المصدر .

أولهما : ما تعرضت له نجد عامة والقصيم بصورة خاصة من (نزلات) طبيعية (أصابت الحرث والنسل وما عاد البذور يأكلون)[١] .

ثانيهما : ما تعرضت له القوافل القادمة من الشام ومصر من هجمات قبلية خاصة من (مطير) وبتشجيع من (الإشراف) أو (المنتفق)[٢] وقدم (آل مزروع من الدرعية وآل العميرى من ثادق) بياناً بالمنهوبات من البضائع المصرية والنجدية التى استولت عليها (مطير) و (الشرارات) عام ١٢٠٤هـ/١٧٨٩م وكانت على النحو التالى :[٣] .

البضائع	الكمية
القمح	٩٥ أردبا
الأرز	٨٤ أردبا
الأقمشة	٢٤ بالة
الأبل	١١٢ بالعدد
الخيل	٣٤ بالعدد
الأوانى النحاسية	٦٥ قطعة

(١) رسالة من تركى بن فرجان من تجار الدرعية وحمد البسام عن تجار عنيزة إلى سعود بن عبد العزيز فى ٣ محرم ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م وكانت قد تعرضت فى هذا العام لحالة طبيعية سيئة فتساقط (البرد) مما أصاب المحصولات الزراعية ، ابن بشر ، ص١٧٢ .

(٢) بيان مقدم من (عبد الله بن مزروع ومحمد العميرى) إلى (سعود بن عبد العزيز فى ذى القعدة ١٢٠٤هـ .

(٣) نفس البيان السابق المقدم إلى سعود فى ذى القعدة ١٢٠٤هـ .

أرسل (سعود بن عبدالعزيز) إلى زعماء(عنيزة وبريدة) يطلب منهم الحضور إلى الدرعية (لنحكم فى الموضوع ونشاور فى علومنا وفى عهدنا الماضى١٢٠٢هـ) وعرض فى نفس الوقت إرسال(عماله له) لمراقبة لتجار وضمان قسمة عادلة للأخماس من البضائع الواردة من الشمال ومن (أهلنا فى ناحية بلبيس والشرقية) ثم النظر فى أمر الوتدين من مطير وغيرها(١) .

التقى كبار وشيوخ تجار القصيم والدرعية بسعود بن عبد العزيز فى أواخر رجب عام ١٢٠٥ وتم فى هذا الاجتماع وضع خطوط أساسية لتنظيم (الإمداد الاقتصادى) للحركة السلفية من خلال لبضائع الواردة من الشمال و (مصر) بصفة خاصة فجاءت تلك التنظيمات وهذا الاتفاق على النحو التالى:

أولاً : أن الإمام عبد العزيز وولى عهده سعود يضعان نصب أعينهما أهمية الحفاظ على محصولات القصيم واستمرار التبادل التجارى مع مصر والشام باعتبار أن هذا المنفذ الشمالى هو التنفس الوحيد الأمن أمام (رجال التوحيد) بعد توقف الحركة التجارية بتجاه الشرق ناحية الخليج وما يرد منها من البضائع الهند وفارس مع استمرار الوقائع مع (آل خالد) ، وأن أمر دخول هذه القبيلة إلى(زهرة المسلمين) يحتاج إلىوقت طويل ، ثم أن الشريف غالب فى الحجاز قد قطع أيضاً (تلارزاق) التى ترد إلى دار الإسلام وفى هذا الاتجاه طالب الإمام عبد العزيز تجار نجد بصفة خاصة إغراء تجار مصر بالتعامل معهم و (لايستمعوا إلى أنباء الفسق الذى يبثها رجال الشريف مع إخواننا فى مصر) لسد منافذ التجارة هناك وتفضيل الحجاز عليهم(٢) .

---

(١) رسالة من سعود بن عبد العزيز إلى عموم تجار نجد وعنيزة فى صفر ١٢٠٥هـ .

(٢) تعهد بين الإمام عبد العزيز بن محمد وعموم تجار القصيم والدرعية فى ٢٥ صفر ١٢٠٥هـ ١٧٩٠م (انظر الملحق – ٥) .

ثانياً : أكد تجار نجد فى مدن عنيزة وبريدة والدرعية على ضرورة إمدد الإمام عبد العزيز بقوائم سنوية عما يصلهم من بضائع من مصر والشام كل علىحده (وكل علومنا من صغار العقيلى) (ولو كان فىالأمر أحمال على بذورنا) حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً ، أما من ناحية إغراء تجار مصر والشام فقد تعهد التجار أيضاً بأن الأسعار التىسوف يقدمونها إلىهؤلاء التجار سوف تكون أعلى مما يقدمه تجار الحجاز على أن يقوم الإمام عبد العزيز من جانبه بتعويضهم عن تلك الزيادة بأن يجعل لهم (جعل) مما يحصل عليه من الغنائم والإسلاب من بنى خالد أو من الإشراف على حد سواء(١) .

ثالثاً : اتفق الطرفان على أن يعين الإمام (أميراً) على القصيم يختص بمراقبة ما يرد من بضائع مصرية وشامية (حتى يكون فى عون عقيلى القصيم ، يحرسهم ويتسلم أرزاقهم وخيراتهم) وليكون عوناً وعيناً للإمام فيما يتعرض له التجار أو قوافلهم من اعتداء القبائل فى الطريق إلى تلك البلدان ، على أن يكون للإمام (الرأى) فى تحديد الأسماء والأوقات التى يصل فيها الأمير إلى (بريدة) و (عنيزة) وفى هذا حدد اسم (حسين بن مشارى) للقيام بتلك المهمة(٢) .

وذكر تجار نجد أيضاً أن (كبار تجار البر المصرى) و (تجار إقليم الشرقية) بصفة خاصة قد أرسلوا إليهم فى بلدانهم (أمناء) للإقامة بصفة دائمة - كوكلاء - للإشراف على تسلم وتسليم البضائع الصادرة و الواردة أيضاً ، كما أن تجار الشام وشيوخها قد (أعلموهم) بأنهم سوف يوفدون رجالاً لهم إلى الدرعية وبقية أنحاء نجد لنفس الغرض .

---

(١) نفس المصدر .

(٢) التعهد السابق مع الإمام عبد العزيز .

حددت الرسالة التى أرفقها (عقيلى القصيم) أسماء الوكلاء من المصريين فجاء ذكر (إسماعيل بن مصطفى البلبيسى المصرى) وهو فى ديرتنا فى (الرس) مع عيالة كما حدد اسم (حسين بن إبراهيم المصرى) ومعه (جماعته) فى (عنيزة) للغرض ذاته(١) .

استطردت الرسالة فى ذكر العائلات المصرية المقيمة فى منطقة القصيم حيث حددت بشكل عام عدديا وجود سبع عائلات مصرية منتشرة فى (الرس) و(عنيزة) و (بريدة) ولم ترد تفصيلات أكثر من ذلك ، كما أوضحت الرسالة أن تلك العائلات تمارس لتجارة فى كافة أنحاء نجد ومنهم من له تجارة فى الخليج مثل (عثمان الدكرورى المصرى)الذى واصل مسيرة ونشاطه التجارى إلى الهند وأضافت (أن كثيراً من عشائر سبيع والسهول يعرفون أن المصريين يحلون فى أسواق الدرعية على مدار العام وأم محمد بن داود وأخيه يحتفظون لديهم بكثير من أمانات للتجار من بلده)(٢) .

تنفيذا لهذا الاتفاق أخذ الإمام عبد العزيز زمام مبادرةلتنفيذ تأمين طريق التجارة الشمالى بالرغم من اقتراب الخطر المطبق على الدرعية من الاتجاهين الشرقى والغربى علىحد سواء من خلال التنسيق بين (عبدالمحسن الحميدى الخالدى) و (الشريف غالب) (٣) حيث دفع سعود ببعض القوات

(١) رسالة مرفقة بالتعهد المذكور موقعة باسم (عقيلى القصيم) محررة فى ذات التاريخ.

(٢) مكتوب من آل بسام وآل مزروع إلى سعود بن عبد العزيز فى صفر ١٢٠٥هـ .

(٣) يقول صاحب كتاب لمع الشهاب(ثم أن الشريف غالب قد سمع أن بعض (بنى خالد) لم يدخل فىطاعة عبدالعزيز وكان كذلك هو أن عبد المحسن آل سرداح الحميدى الخالدى لم يبرح معانداً لعبدالعزيز ... ولما علم الشريف غالب بهذا الحال كتب لعبد المحسن يرغبه فى حرب آل سعود وقد بذل له شيئاً من المال نقداً .. وقال استعن بهذا على حرب عبد العزيز واغزوة ..فأجابه عبد المحسن لما قال انظر: لممع شهاب ، ص٩٥.

باتجاه طريق القوافل الشمالى لضرب مثيرى الشغب من (مطير) وفى هذا يقول ابن بشر (ثم دخلت السنة الخامسة بعد المائتين والآلف وفيها سار سعود بجنوده المنصورة وقصد عالية نجد وأغار على فرقان مطير ، رئيسهم الحمدانى وأسلاف غيرهم وهم فى أرض الجريسية ، فسبق النذير فانهزموا والقدر لايرد عن المنهزم والواقف فلحقهم سعود وصحبهم الجريسية فركبت العربان الخيل وكر عليهم المسلمون فحصل قتال شديد فولوا منهزمين وقتل منهم نحو خمسين رجلاً وغنم المسلمون ما معهم من الأموال والأمتعة والأثاث والزاد والأبل والغنم)(١) .

لقد تأكدت أهمية تأمين هذا الطريق الشمالى الذى كات ترتاده قوافل مصر والشام بالرغم من افتقار المصادر التى تحدد بقة مسارة ، إلا أننا اعتمدنا فى تحديده على قرينة ما كان يدفع من (أتاوة) لبعض شيوخ العشائر التى كان يمر بها هذا الطريق ، فبعد وصول القوافل المصرية إلى السويس مخترقة سيناء فإنها تصل العقبة ومنها إلى غربى الجوف لتلتقى بقوافل الشام ليتخذ التجار طريقهم إلى (الشقيق) وإلى جبل (قنى) ثم إلى حائل فبريدسة وعنيزة والرس وتباينت الوثائق فى تحديد المدة التى كانت تستغرقها القوافل ، فعلى حين حددتها إحداها بما يقرب من شهر فى القدوم ومثله فى العودة(٢) فقد حددتها الأخرى بخمسين يوماً(٣) ونعتقد أن الظروف المناخية ومشاكل التعرض للقوافل من قبل القبائل لعبت دوراً أساسياً فىتحديد هذا المدىالزمنى.

---

(١) ابن بشر : المصدر السابق جـ١ ، ص ص ١٧٢ / ١٧٣ .

(٢) الرسالة الموقعة من آل مزروع من منفوحة وآل العميرى فى ١٥ شوال ١٢٠١هـ .

(٣) الرسالة المرفقة بالتعهد بين الإمام عبد العزيز وعموم تجار القصيم والدرعية فى ٢٨ صفر ١٢٠٥ .

مع تلك المسافة الطويلة التى كانت تقطعها القافلة التجارية بالإضافة إلى وعورة الطرق الصحراوية وهجمات العشائر فقد أرغم التجار على دفع أتاوات للشيوخ تحت زعم إنهم (وكلاء) لتلك القوافل المارة بمواطنهم ، نظراً لاستمرارية وتوالى تلك الرحلات ومقابل تأمين القافلة بحراستها حتى تمر من موطنها ، وقد أورد تجار نجد خلال لقائهم بسعود بن عبد العزيز فى صفر ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م قائمة بأسماء هؤلاء الوكلاء (ليضع الإمام ما يعانى منه التجار من أهوال وما يدفعونه من أموال(١) .

الاسم	مايدفع للعشائر	الأعوام
زامل بن جازى	٨٥٠ ليرة عثمانية للشرارت ٦٣٠ ليرة عثمانية لمطير ٧٥٠ ليرة عثمانية لشمر	١٢٠١هـ
محمد بن إبراهيم الحربى(من حائل)	٤٥٠ ليرة عثمانية لمطير ٦٥٠ ليرة عثمانية لهتيم	١٢٠٤هـ

لهذا تأكدت أهمية الحفاظ على أمن الطريق إلى مصر والشام ومن ثم لوحظ دفع بعض الحملات من قبل آل سعود بين الحين والآخر باتجاه هذا الطريق بالرغم من استمرار القتال فى ذات الأقات مع القوى المناوئة للحركة فى الشرق والغرب على حد سواء .

فبناء على استغاثة من حميد بن رشيد الحربى وآل مزروع وآل البابطين فى شقرء من جراء هجمات بدو مطير وعنزة على القوافل القادمة من مصر وتذكير بما تم الاتفاق عليه فى صفر ١٢٠٥هـ وما أصيبت به

(١) المصدر نفسه

القوافل من ضرر بالغ فى شعبان عام ١٢٠٧هـ/١٧٩٣م(١) وبالرغم من أن المصادر المعاصرة لم تحدد سبباً لدفع قوات من الدرعية إلى الشمال فى العام التالى ١٢٠٨هـ/١٧٩٤م إلا أننا نعتقد تبعاً لما أوردته تلك الوثائق النجدية أن العامل التجارى هو الأكثر بروزاً فى أسباب دفع مثل تلك الحملات . يقول ابن بشر (وفيها أى عام ١٢٠٨هـ سار محمد بن عقيل بأهل الوشم وسدير وسار معه كثير من عربان قحطان ومطير وبنى حسن وكثير من الدواسر والسهول وغيرهم فسار بهم محمد إلى عالية نجد فأغار على عربان بنى هاجر ورئيسهم يومئذ ناصر بن شرى وهم نازلون فى الحزم الراقى بي الزنانيب والثعل)(٢) وفى ذات العام كما يستطرد ابن بشر (وفيها أيضاً ، أمر عبد العزيز على أهل الوشم والقصيم وجبل شمر ينفزون غزاة مع أمرائهم ...وأمرهم يسيرون إلى دومة الجندل فى جوف آل عمرو فى الشمال(٣) ...ونازلوا أهلها وأخذوا منهم ثلاث بلدان)(٤) .

---

(١) رسالة من آل مزوع وآل البابطين وتجار الرس إلى سعود ابن عبد العزيز فى شوال ١٢٠٧هـ/١٧٩٣م .

(٢) لم يرد ذكر لما هية الزنانيب فى المعاجم التى رجعنا إليها مثل الأصفهانى ومعجمه بلاد العرب ، أو معجم اليمامة بجزئية من تأليف عبد الله بن خميس أو فى مشاهدات حمد الجاسر فى كتابه (فى شمال غرب الجزيرة وما ورد فقط عند فؤاد حمزة قريباً من الكلمة الثانية (الثعل) حيث كلمة (الثعالين) إحدى عشائر الدغالبة أحد بطون (برقة) وهى الفرع الرئيسى الثانى لقبيلة (عتيبة) تمتد منازلها أى منازل بين منطقتى (الوشم والقصيم) انظر : فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ، ط٢ ، الرياض ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م ص ص ١٨٧/ ١٨٨.

(٣) دومة الجندل والجوف اسم مكان واحد كان الأول هو المعروف قديماً وسرعان ما انتشر الاسم الثانى حتى وقتنا الحاضر وتقع هذه المنطقة إلى الشمال الغربى من نجد ،
=

وموقع الجوف ذات أهمية واضحة لموقعة حيث تمر القوافل الشمالية من خلاله باتجاه نجد ، كما أن الواحة التى كانت محطة من محطات القوافل بين العقبة وبغداد(١) ومن ثم كانت تلك البقعة ذات موقع (استراتيجى) للقوافل التجارية لكافة أنحاء شبة الجزيرة العربية سواء باتجاه مصر أو جنوب العراق .

تكررت الحملات بعد ذلك وفى ذات الاتجاه عام ١٢١٢هـ/١٧٩٧م وفى ذلك يقول ابن بشر أيضاً (وفيها أى عام ١٢١٢هـ غزا حجيلان بن حمد أمير ناحية القصيم بجيش من أهل القصيم وغيرهم وقصدوا أرض الشام وأغاروا على عربان الشرارت فانهزموا ...وأخذوا جميع محلتهم وأمتاعهم وأزوادهم وأخذوا من الأبل خمسة آلاف بعير وأغنانا كثيرة وعزلت الأخماس فأخذها عمال عبد العزيز وقسم حجيلان الباقى)(٢) .

وضح من خلال تلك الحملات مدى حرص آل سعود على تطبيق ما جاء فى اتفاق ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م تطبيقاً حازمً ليكون هذا التأمين دعماً لموقفهم الاقتصادى لخدمة أهدافهم فى شبه الجزيرة وصراعهم مع بنو خالد

= عرفت بهذا الاسم لأن (آل عمرو) قطنوا بها وحكومها فى الفترة من القرن السادس الهجرى حتى القرن ١٣ عندما حل محلهم (الدولة) والتى وقعت الأحداث معها تبعاً لما أورده ابن بشر من أحداث فى ذلك العام .

انظر حمد الجاسر : فى شمال غرب الجزيرة ، ط٢ ، الرياض ١٤٠١هـ/١٩٨١م ص٤٤ و ص ص ٥٠٤/ ٥٠٩

(٤) ابن بشر : المصدر السابق ، ص ص ٢٠٨/٢٠٩

(١) الجاسر : المصدر السابق ص٥٠٩

(٢) ابن بشر : المصدر السابق ، ص٢٤٠ .

وحكام البصرة من جهة الشرق والإشراف من جهة الغرب ، كما حافظ التجار من جانبهم أيضاً على ما تعهدوا به فقد ورد بيان قدمه حجيلان بن حمد وآل بسام إلى سعود بن عبد العزيز عن حجم تجارتهم مع مصر فى الفترة من ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م إلى عام ١٢١٢هـ/١٧٩٧م على النحو التالى(١)

العام	القمح بالأردب	الشعير بالأردب	الأقمشة بالبالة	الأوانى النحاسية بالقطعة	الأرز بالأردب
١٢٠٧هـ/١٧٩٢م	١٦٢٠	٥٤٠	٤٠٠	٢٠٠	٢٥٠
١٢٠٨هـ/١٧٩٣	١٤٥٠	٦٣٠	٦٢	٣١٠	٢٣٠
١٢٠٩هـ/١٧٩٤م	١٤٨٠	٦٤٥	٦٠	٢٩٠	٣٤٠
١٢١٠هـ/١٧٩٦م	١٥١٠	٦٨٠	٥٠	٢٥٠	٣٩٠
١٢١١هـ/١٧٩٦م	١٣٦٠	٧١٠	٤٥	١٢٠	٤٥٠
١٢١٢هـ/١٧٩٧م	١٤٥٠	٧٦٠	٦٥	٢٥٠	٤٣٠

يتضح من أرقام هذا البيان أن هناك تصاعداً فى أرقام الواردات من البضائع المصرية إلى نجد بين أعوام ١٢٠٧هـ/١٧٩٢م وعام ١٢١٢هـ/ ١٧٩٧م عدا عام ١٢٢١١هـ/١٧٩٦م نعتقد أن الانخفاض فيه راجع إلى هجوم قبائل الشرارات على القوافل كما هو مذكور سابقاً .

(١) بيان مقدم من حجيلان بن حمد وآل بسام إلى الإمام عبد العزيز فى ١٧ ذو القعدة ١٢١٢هـ/١٧٩٧م (انظلا الملحق رقم٦)

وفى المقابل قدم التجار أنفسهم قائمة بالبضائع النجدية التى صدرت إلى مصر وكانت على النحو التالى :(١)

العام	الصوف بالرطل	الأبل بالعدد	الخيول بالعدد	التمر بالطن
١٢٠٧هـ/١٧٩٢م	٦٢٥٠	٢٦٠٠	٢٥٠	١٥٠
١٢٠٨هـ/١٧٩٣م	٧٥٠٠	٢٥٠٠	١٨٠	٢٦٠
١٢٠٩هـ/١٧٩٤م	٧٠٠٠	٢١٩٠	٢٢٠	٣٢٠
١٢١٠هـ/١٧٩٥م	٨٠٠٠	٢٢٠٠	١٩٠	٢٢٠
١٢١١هـ/١٧٩٦م	٧٠٠٠	١٩٥٠	٢٦٠	١٩٥
١٢١٢هـ/١٧٩٧م	٨٥٠٠	٢١٠٠	٢٩٥	٢٦٠

لم تحدد المصادرأسعارهذه المحصولات الواردة من مصر أو المصدرة إليها كما لم تذكر بشكل محدد ما قدم إلى آل سعود بالفعل من أخماس تبعاً لما تم الاتفاق عليه ونعتقد أن عدم وجود اعتراض على تلك الأرقام من قبل الأطراف المعنية تأكيد على صحة ما ورد من أرقام والمثير للانتباه أن المصادر المحلية أو الأجنبية لم تفسر السبب الرئيسى فى، تقديم هذه البيانات بشكل إجمالى عن الحركة التجارية بين مصر ونجد ونعتقد أن التفسير الأقرب إلى الواقع هو أن ما كان يستحوز على اهتمام التجار حينئذ أما رغبة فى عدم مكاشفة آل سعود عن حقيقة مواردهم المالية أو إحسارالرغبة عند التأكيد بشتى السبل على تمرسهم بالتجارة فى شتى الأحناء أضف إلى ذلك كما يبدوا

(١) البيان السابق نفسه والمقدم من (حجيلان بن حمد) فى ذى القعدة ١٢١٢هـ .

أنهم أى التجار قد اعتقدوا أن اهتمام الدرعية فى ذلك الوقت قد انحسر عند الرغبة فى الحصول علىالأمدادات العينية بما يخدم أهدافهم (العسكرية)وقتها.

ونعتقد أيضاً أن هناك عدداً من الوثائق (المفصلة) عن مفردات الحركة التجارية (للصادر والوارد) كان موجوداً لدى التجار ربما اندثر أو تعرض للتلف لأسباب تتعلق بغياب أهمية تلك الأوراق وطبيعة التفكير لدى التجار خاصة أن من قدم الوثائق إلى (سوهراب) ما كن يعنيهم إلا تقديم الدليل على خبرتهم التجارية مع مصر فى ذلك الوقت .

إلا أن تلك الوثائق المرفقة بتقارير القنصل البريطانى ، قد أوردت الكيفية التى كان يتم بها التعامل المالى فذكرت ما أطلق عليه (حساب التصفية للبضائع) وهو نظام أقرب إلى (المقايضة) ويعتمد على أن يقوم التاجر بدفع (فارق الأثمان) عن البضاعة الأعلى سعراً التى يحصل عليها إذا كانت البضاعة التى قدمها للتاجر الآخر أقل ثمناً(١) .

وقد أوردت الأوراق فى بيان مرفق نموذج لهذا النظام المالى فى التعامل على النحو التالى(٢) :

العام	ما حصل عليه تجار نجد	ما حصل عليه تجار مصر
١٢٠٨هـ/١٧٩٣م		٤٦٥٠ ليرة ذهبية
١٢٠٩هـ/١٧٩٤م	٢٦٥٠ ليرة ذهبية	
١٢١٠هـ/١٧٩٥م		٥٧٣٠ ليرة ذهبية

(١) بيان (حجيلان بن حمد) السابق ذكره فى ذى القعدة ١٢١٢هـ .

(٢) بيان مرفق لبيان ١٧ ذو القعدة ١٢١٢هـ سابق الذكر .

مع هذا كله فقد كانت الحجة الأقوى التى ساقها تجار القصيم تتعلق بأثر بارز من الآثار التى ترتبت على التجارة المصرية مع نجد وهو (الدور الثقافى لهؤلاء الوكلاء من المصريين) داخل البلدان التى عاشوا فيها .

فقد انصبت حجة التجار فى هذا الاتجاه إلى أن المصريين فى (بريدة وعنيزة) ليسوا وكلاء فحسب بل أنهم أيضاً (مطوعة) لتعليم أبناء القبائل عندما حول (حسين بن إبراهيم) منزله فى عنيزة إلى حلقة لتلقين (البذور) علوم النحو والقراءة والحساب وبلغ عدد الأطفال الذين (يلتفون حوله فى حلقته) ما بين سبعة إلى خمسة عشر و (إنه يعطيهم علوم التوحيد حق الشيخ) نظير ثلاث ليرات أسبوعية(١) .

أما (إسماعيل بن مصطفى) فقد كان يفد إلى منزله ما بين عشرة إلى ثلاثة عشر طفلاً لذات الغرض مقابل نفس المبلغ سابق الذكر(٢) .

كما زعم التجار أيضاً وأيدهم فى ذلك (إبراهيم آل مزروع) من الدرعية ، أن إقامة هؤلاء (المطوعة) من المدرسين فى (بريدة وعنيزة) أكثر منفعة (لدعوة التوحيد) لسهولة أتصالهم بأخوانهم الذين يفدون إلى بلدان نجد باعتبارها نهاية رحلة القوافل من مصر إلى تلك المدن وبهؤلاء يمكن (دعوة إخوان مصر فى سيناء والشرقية وعربانها إلى التوحيد)(٣)

مال (سوهراب) فى تقاريره التى بعث بها إلى لندن وسفارة بلاده فى الآستانة إلى الاعتقاد بأن ما اكتسبه المصريون من معرفة وثيقة بدروب نجد

---

(١) رسالة شعلان المطيرى فى ١٥ جمادى الأولى ١٢١٣هـ .

(٢) نفس المصدر

(٣) نفس المصدر .

خلال أسفارهم التجارية ثم خبرتهم بإمكانيات نجد الاقتصادية كانت عناصر أساسية أمدت قوات محمد على بمعلومات مستفيضة عن الكيفية التى استطاع بها تطويق وضرب آل سعود وتحطيم الدرعية فى أوائل القرن التاسع عشر بأسلوبين أساسيين ، الأول عسكرى والثانى اقتصادى .

فأما الأسلوب العسكرى فيذكر القنصل إنه بالإضافة إلى ما هو معلوم عن إمكانية الحصول على كافة المعلومات المطلوبة من البدو عن الصحراء ودوربها مقابل جزء ولو يسير من المنح النقدية والعينية خاصة لتلك القبائل التى لم يكن خضوعها لآل سعود إلا انسياقا وراء مصالحها الذاتية كمطير مثلاً أو من بعض الأفراد ، إلا أن بعضاً من المصريين المقيمين فى بريدة وغيرها من البلدان النجدية ، وكما يظن القنصل قد أمدوا قوات ابراهيم باشا بمعلومات متعددة وشاملة (رغبة أو رهبة) شاركهم فيها أيضاً بعض تجار نجد أنفسهم عن أيسر السبل والطرق لتطويق الدرعية ومواجهة آل سعود(١).

أما السبيل الاقتصادى فقد أدرك إبراهيم باشا كما يعتقد (سوهراب) أيضاً أن (الاستيلاء أو حرمان قوات الدرعية من بؤرة الإمداد الزراعى والتجارى ممثلة فى منطقة القصيم سوف يكون الطريق الأكثر يسرا لخنق القوات السلفية ومن ثم يسر القضاء عليها عسكرياً) ومن تلك الخطة رأى القنصل تفسيراً للاتجاه من قبل قوات إبراهيم باشا لتطويق نجد من الاتجاه الشمالى من ناحية القصيم والتى شهدت أعنف المعارك كمقدمة للوصل إلى الدرعية والاستيلاء عليها(٢) .

(1) F O . I 95 / I236, from Shrab to Salisbury, I2/2 I88I

(2) F . O . I 95/ I267, from Shrab to Salisbury, 3/ 5/ I 881

ألقت الوثائق المحلية النجدية والمتعلقة بالتجارة المصرية معها والمرفقة بتقارير (سوهراب) الضوء على كثير من الجوانب الحيوية المتصلة بالتطورات التى مرت بنجد فى أواخر القرن الثامن عشر .

فإذا كان ميثاق (الدرعية) المعروف والذى وقع بين محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود يمثل تزاوجاً بين الأهداف الدينية والسياسية كانت الحاجة إلى التدعيم الاقتصادى واستمراره أمرا ملحاً خاصة مع حالة (الحصار) الذى أحيطت به الحركة السلفية شرقاً وغرباً ومن ثم كان الحرص من قبل آل سعود علىاستمراره تدفق وحيوية الشريان الشمالى باتجاه الشام ومصر لضمان وتأمين وصول ما يحتاجونه من سلع غذائية ومتطلبات المواجهة المتتالية مع القوات المناوئة ثم وضع السبل الكفيلة بالحفاظ على هذا الشريان سواء بدفع الأتاوات للقبائل المتوطنة خلاله أو تعيين وكلاء للتجار فىالمدن الرئيسية أو توقيع (تعهدات) بين الأطراف العينة بما يسمح بتنظيم الحصول على (الأخماس) مما يرد من بضائع وذلك بالقدر الذى كانت تسمح به(الأنشطة الفردية) التى كانت تمارس من خلالها التجارة مع مصر.

ومع الدور الثقافى والتعليمى الذى قام به (وكلاء التجار من المصريين) فى مدن نجد الرئيسية من خلا (المكاتب) التعليمية التى أقاموها فى منازلهم فإن رجال الدعوة السلفية أيضاً أرادوا استثمار تلك الحاجة الاقتصادية لهم ، وفى الاتجاه نفسه ليقوم التجار منهم ، أو من المصريين على حد سواء ليكون رسلاً لنشر المبادئ السلفية فى مصر والتعريف بها خاصة فى الأنحاء الشرقية من الأخيرة باعتبارها كما جاء بتلك الوثائق منتهى خط السير من نجد .

ومن ناحية أخرى فقد أدت تلك العلاقة التجارية المصرية مع نجد فى تلك الفترة الغامضة إلى خلق اعتقاد لدى بعض القناصل أمثال (سوهراب) مفادة أن قوات محمد على لم تتجه إلى الدرعية عن طريق الشمال عبثاً بل كان هذا التوجة عن إدراك وتخطيط مدروس لما يمثله (القصيم) وطريقه الشمالى المؤدى إلى مصر من أهمية (استراتيجية) لباقى إقليم نجد بالنسبة للعاصمة السلفية آنذاك (الدرعية) ومن ثم فإن مفهوم (العزلة) الذى يعتقد أن إقليم نجد قد عاش فيه أغلب فترات تاريخه فى حاجة إلى إعادة نظر خاصة مع ما كشفته تلك الوثائق من (اختراق) مصرى لوسط شبه الجزيرة العربية قبيل وصول قوات محمد على إليها بوقت ليس بالقصير .

نظراً لصعوبة قراءة الصورة الوثائقية لطبيعة (الخط) الذى كتبت به والمدى الزمنى البعيد الذى مضى عليها فسوف نوردها هنا (كتابة طبق الأصل) لصور من بعضها .

ملحق (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى صاحب الدرعية عبد العزيز بن محمد بن سعود

من عقيلى نجد

وصل علومنا كروب أخواناً شيوخ آل سعود حال وصول أخوانا عربان بنو خالد والرشايدة لدينا فى ديرتنا فى بريدة والرس وحنا مانبى قطع أرزاقنا وخير لنا وبذورنا وحنا ايش علومنا بعربان أولاد خالد وشيوخ الحجاز حنا نبى مصلحتنا ودين الإسلام وهادى حياتنا وحتى مع بر الشام ومصر ما عادت نحصل منها رزقنا وخيرنا وما عاد لنا منها شئ وها الأيام أكثر من ثلاثين لحين وصولها .

والسلام منا ومن أهل ديرتنا ومن عربان

عقيلى مجد آل مزروع والعميرى منفوحة ثادق والمحمل

حمد بن رشيد الحربى الرس ١٥ شوال ١٢٠١

ملحق (٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

عهد أمام اله ورسوله بين آل سعود

وجموع عنيزة وعشاير القصيم

تعهد أمام المسلمين عبد العزيز بن محمد أمام الله ، عافاه الله من كل سوء أننا عقيلى نجد وعشاير وبدو القصيم ما نقصر تقديم حق الله وحق الشرع أخماس بضايعنا وخيرنا مع بر مصر من كافة شئ البر والبندق والقمشان وكل ها الخير يقوم الإمام وخوياه بحراستنا وجوافلنا فى حلنا وترحالنا وتجارتنا مع مصر فى ها الدروب وقبائل الشمال ومالنا أغراض كما الإمام فى ها التعهد إلا التوحيد وجهاد الكفار والمشركين من الشرق والغرب وحنا ما نقصر فى شئ ولوكان فيه تقصير نحكم شرع الله بيننا مع شيوخنا وكافة كبار نجد والقصيم والله شاهد بيننا .

مطلق البسام سعود بن عبد العزيز

شعبان ١٢٠٢

والحمد لله رب العالمين .

ملحق (٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد السلام والبركات من الله من طق البسام إلى أخوانا الأكبر سعود بن عبد العزيز خفظه الله

أهل ديرتنا وعقيلى القصيم محزونون وما عاد الخير فى أيدينا ولا علومنا وتقطعت أرزاقنا مع بدوان الشرق والغرب وما عاد المون تصل من هون أو هون وحنا ما نخالف عهدنا ها لمرة ولا مرات ولا عهودنا مع دين الإسلام والتوحيد وما عاد يصلنا من بر مصر كما الماضى ١٢٠١هـ إلا القمح وهو ٤٥٠ أردب من أخونا محمد بن إبراهيم بن حسين المصرى من شرق بر مصر ومن عين بلبيس ودفعنا له من قوات أولادنا ٣١٠٠ ليرة ذهبية فأرسلنا له ٢٢٠ أردب تمر وما حصلنا الأسرة ٤٠٠ ليرة ذهبية وهادى أقوالنا.

مطلق البسام

أما أخوانا عقيلى بريدة والرس وعنيزة كان خيرهم فى الماضى كثير وعربان ديرتنا ومراعينا زين والأخوان حصل فى ١٢٠٠ هـ من بر مصر ٥٩٠ أردب قمح و٤٥٠ أردب أرز و١٩٠ بالة قماش و٨٣٠ قطع نحاس وكان خير نجد لبر مصر ٣٥٠ طن تمر و١٠٢٠ من البل و١٨٠ من الخيل العتاق وها العام ما عاد البل والخيل يصلون بر مصر لفعول عربان ديرة الشرق من أولاد خالد والشيطان ثوينى بن عبد الله والرشايدة فى الشمال وأعوانهم الرولا .

العقيلى	عقيلى عنيزة	عقيلى الرس
شعلان المطيرى	حمد البسام	عبد الله بن رشيد الحربى

١٤ شعبان ١٢٠٢هـ

ملحق (٤)

بسم الله الرحمن الرحيم

من سعود بن عبد العزيز بن محمد ولى عهد الإمام عبد العزيز حفظهم الله إلى عقيلى عنيزة وبريدة

السلام على من أتبع الهدى

حنا نريد تذكير جموع العقيلى فى ناحية وديرة القصيم والأنحاء والدرعية على عهد الله فى السنون ١٢٠٢هـ والأخماس حجتنا ما ندرى النقص وبن ونرغب العلوم حق التوحيد وحنا ورجال لا إلة إلا اله ما قصرنا فى عقيلى ولاحق العربان وجهاد المسلمين مع المشركين بالليل والنهار نخاف كثير خير وبندق عدونا مع خوفنا من عقيلى اللقصيم لأنه ما عاد تصلنا البندق والبر والقماش وكلمة الشيطان سوف تجهدنا ورجال التوحيد ويضيع الجميع وصدق حديثنا ومكتوبنا هذى فى الخير بين ١٢٠٣ وخيرها

السنة	السنة	١٢٠٣
قمح	٣٤	٨٥
رز	٢٣	٧٢
قماشة	١٥	٢٥

ما نرغب إلا ما آفقنا عيه قبل وحنا فى انتظار حديثكم بفارغ الصبر فى الدرعية ٢٣ الفائت من ذى الحجة ١٢٠٤هـ .

ملحق (٥)

عهد بين الإمام عبدالعزيز بن محمد وعنه ولى عهده سعود حفظهم الله وكافة عقيلى نجد من القصيم والدرعية وتأكيد ما سبق أن تعهدنا عليه عام ١٢٠٢هـ وهذا عهد نشهد الله عليه من أجل دعوة لا إلة إلا الله محمد رسول الله وعهنا هو أننا معشر آل سعود وعنهم الإمام عبد العزيز وولى العهد سعود حفظهم الله أن نؤكد على عقيلى نجد كافة والمسابلة والتجارة مع بر مصر وديرة الشام على طريق الشمال أن نحافظ عليه ونأمنه من شرور الشياطين والمشركين والقبائل والعشائر لكون عرب الشرق فى بحر الخليج والهند وفارس ما عاد يصل منها شئ بسبب أولاد خالد وحروبنا معهم وحنا ما قصرنا فى حروبنا معهم وما لدينا علوم إلا عند الله فى هدايتهم والشريف غالب أياديه مع أياديهم وقطع الأرزاق إلى ديرة الإسلام والدرعية ويقوم عقيلى نجد لله والرسول بقدوم عقيلى مصر لنجد وما يسمعوا وشايات وفسوق رجال الشريف وعلومهم مع مصر أخواننا ورغبة الشريف سد الثغور لنا أمام عربان نجد وفتحها أمام عشائر الحجاز وعهد الله العقيلى القصيم ونجد ما يقصرون عن أرقام السابلة والتجارة مع بر مصر والشام بعينه وكل علومنا من صغار العقيلى ولوكان فى الأمر إجمال على بذورنا حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً وحتى لو قروشنا أغلى ومرتفعة عن قروش عقيلى الحجاز وأن يقوم الإمام بمدنا ومساعدتنا بجعل من أسلاب أولاد خالد أو شيوخ الحجاز والإشراف .

ويقبل عقيلى نجد أمير الإمام عبد العزيز على ديرة القصيم حتى يكون هناك علوم البضائع والخير من بر مصر والشام وحتى يكون فى عون عقيلى القصيم يحرسهم ويتسلم أرزاقهم وخيراتهم وعون وعين الإمام عبد العزيز ويكون ها الأمير ولدنا حسين بن مشارى يعرف ذهب الشاتر والبطون فى الطريق ونترك للإمام الحين لوصول بن مشارى إلى ديارتنا فى بريدة وعنيزة وإن كبار تجار البر المصرى وتجار إقليم الشرقية يعيش وكلاهم ورجالهم بين عشائرنا وتجار الشام وصلت علومنا أن رجالهم يصلون بعون الله إلى الدرعية وحنا نقدم للإمام وكلاء بر مصر مع العهد بينا وكلاء عقيلى مصر ما نخالف منهم شئ .

كافة وعموم تجار القصيم	عن الإمام عبد العزيز حفظه الله
٢٥ صفر ١٢٠٥	سعود

ملحق (٦)

جملة معاملة عقيلي نجد مع بر مصر والله شاهد بيننا

	من البر قمح مصرى	من الشعير	القماش بالة	قطع نحاس	أرز مصرى أردب
١٢٠٧هـ	١٢٦٠	٥٤٠	٤٠	٢٠٠	٢٥٠
١٢٠٨	١٤٥٠	٦٣٠	٦٢	٣١٠	٢٣٠
١٢٠٩	١٤٨٠	٦٤٥	٦٠	٢٩٠	٣٤٠
١٢١٠	١٥١٠	٦٨٠	٥٠	٢٥٠	٩٣٠
١٢١١	١٣٦٠	٧١٠	٤٥	١٢٠	٤٥٠
١٢١٢	١٤٥٠	٧٦٠	٦٥	٢٥٠	٤٣٠

ومن ديارتنا لبر مصر بعد ما حصلنا على الفروق وما زاد عن ٢٦٥٠ ليرة ذهباً وحصل عقيلي مصر قبل سة ١٢٠٨هـ ٤٦٥٠ ليرة وبد ١٢١٠ على ٥٧٣٠ ليرة ذهب وهذ الحقوق بينا مازاد له حق وما نقص ندفعه له خير له فى حقنا لبر مصر .

	صوف رطل	بل	خيل	تمر زين طن
١٢٠٧هـ	٦٢٥٠	٢٦٠٠	٢٥٠	١٥٠
١٢٠٨	٧٥٠٠	٢٥٠٠	١٨٠	٢٦٠
١٢٠٩	٧٠٠٠	٢١٩٠	٢٢٠	٣٢٠
١٢١٠	٨٠٠٠	٢٢٠٠	١٩٠	٢٢٠
١٢١١	٧٠٠٠	١٩٥٠	٢٦٠	١٩٥
١٢١٢	٨٥٠٠	٢١٠٠	٢٩٥	٢٦٠

والبندق حقنا أمانة عند شيوخنا فى الدرعية أو أحصيناه ولا عداناه وشيوخنا لديهم عوم البندق. والله شاهد علينا .

حجيلان بن حمد ١٧ ذو القعدة ١٢١٢

الحرائر خاصة فى الحروب التى تسبى فيها النساء والتى طالما عانى منها الأندلس(١) وكانت الأصول العرقية للمرأة الأندلسية بصنفيها - الحرائر والإماء - متعددة، لكن الدم الأيبيرى كان يغلب على الجيل الأول منهن بينما قل فيهن الدم العربى حينذاك فلم يجر فى عروقهن إلا منذ الجيل التالى على الفتح الإسلامى لأن الفاتحين المسلمين قد دخلوا شبه جزيرة أيبريا محاربين لم يصحبوا معهم نساءهم(٢) فيما عدا حالات فردية معدودة كانت بمثابة استثناء على القاعدة(٣) وقد لاتتعدى ماقيل عن اصطحاب طارق بن زياد لزوجه أم حكيم إنزاله إياها فى الجزيرة الخضراء فنسبت إليها وقيل لها جزيرة أم حكيم(٤)، ومما يفهم من ابن قتيبة من أن موسى بن نصير قد أجاز معه إلى

(١) يذكر الخشنى (قضاة قرطبة ص٩٧) إنه كان بقرطبة رجل أعجمى ممن استنزل من الحصون المخالفة كانت له أمة كانت فى الأصل حرة مسلمة فاستجارت بالقاضى أسلم ابن عبد العزيز فأراد تخليصها من يده فتدخل الحاجب بدر بن أحمد وأرسل إلى القاضى أسلم قائلاً " إن هؤلاء العجم إنما استنزلناهم بالعهد ولايحل الحقد بهم وأنت أعلم بما يجب من الوفاء بالعهود فدع بين فلان العجمى وبين الأمة التى فى يديه " فهدد القاضى باعتزال القضاء إذا لم ينفذ ما يجب من الحق على العجمى فى هذه الحرة المسلمة ويذكر القاضى عياض (ترتيب المدارك جـ٢ ص٦٣٩) أن أبا عمر الأشبيلى أفتى لامرأة حرة بقرطبة لها ابنه مملوكة صبية باعها مولاها لرجل يخرجها عن قرطبة فشكت أمها ذلك فأفتى أبو عمر بمنعه من إخراجها وبيعها على مشتريها وخالفه فى ذلك القاضى ابن زرب وغيره من الفقهاء.

(٢) حسين مؤنس : فجر الأندلس ص٣٦٥.

Cambridge History, of Islam, vol 2 p: 408

(٣) أحمد مختار العبادى : الإسلام فى أرض الأندلس ص٩٦.

(٤) ابن عبد المنعم الحميرى : صفة جزيرة الأندلس ص٧٣.

الأندلس نساءه وبناته وأنه كشف عنهن فسطاطه فى إحدى جولاته تحميساً للمسلمين(١) أى أن القائدين ، دون غيرهما ، هما اللذان عبرا إلى الأندلس بنسائهما وفيما عدا ذلك دخل سائر الفاتحون المسلمون الأندلس دون أن يصحبوا نساءهم فاتخذوا نساءاً لهم من الأيبيريات .

وإذا كانت الدماء الأيبيرية قد غلبت على المرأة الأندلسية أول الأمر فإنها سرعان ما اختلطت بغيرها من الدماء نتيجة توسع الفاتحين المسلمين وتنويعهم فى اتخاذ نسائهم من أجناس شتى فرنجيات وصقلبيات وغيرهن مما أدى إلى تقلص نسبة الأسبنة فى المرأة الأندلسية على عكس ما يذهب إليه خوليان ريبيرا فى تغليب الدم الأسبانى على الدم العربى فى الشخصية الأندلسية ، إذ يقول " إذا أردنا أن نحدد العنصر السلالى بطريقة رياضية وأخذنا فى اعتبارنا جانب الأم وأضفنا إليها مايعادلها من جانب الأب نجد أن نصف عبد الرحمن الداخل كان بربرياً(أ) والنصف الآخر عربياً هذا إذا افترضنا نقاء سلالته السابقة تماما وبلغة الأرقام يصبح ٥٠٪ منه عربياً و٥٠٪ منه بربريا وابنه هشام الأول ابن جارية غير عربية(ب) فيه ٥٠٪ من سلالة أمه و٢٥٪ من بربرية أم أبيه و٢٥٪ فحسب كل مابقى له من العروبة وإذا أمضينا مع أحفاده على هذا النحو فسنجد أن الحكم الأول(جـ) ليس فيه من العروبة إلا١٢،٥٪ وعبد الرحمن الثانى ٦،٢٥٪(د)

(١) الأمامة والسياسة ، جـ٢ ص٨٠ .

(أ) كانت أمه أم ولد بربرية نفزية تدعى راح .

(ب) كانت أمه أم ولد تدعى حوراء أو حلل .

(جـ) كانت أمه أم ولد تدعى زخرف .

(د) كانت أمه أم ولد تدعى حلاوة .

ومحمد بن عبد الرحمن ٣,١٢٪(هـ) والأخوان المنذر وعبد الله ١,٥٦٪(و) ومحمد بن عبد الله٠,٧٨ ٪(ز) وعبدالرحمن الناصر٠,٣٩٪(ح) والحكم المستنصر٠,١٩٪(ط) فإذا وصلنا إلى هشام المؤيد(ى) تهبط النسبةإلى ٠,٠٩٪ أى أن نسبه يحفل بالأسماء العربية أما إذا درسنا الأمر رياضياً فليس فيه من السلالة العربية مايصل إلى ملليجرام واحد"(١).

يتحفظ الطاهر مكى على نظرية ريبيرا السابقة فيرى أنه بالرغم مما فيها من متعة ذهنية فإنها تبسط الأمور بأكثر مما يجب وأنه لاينبغى أن تحكم الأرقام الرياضية مثل هذه الظاهرة الاجتماعية(٢) ، ونضيف من جانبنا تحفظين آخرين أولهما : لماذا يفترض أن يكون التناقص النسبى قاصراً على الدم العربى دون الدم الأسبانى؟ وثانيهما هو أن المرأة الأندلسية لم تظل خصائصها العرقية قاصرة على الدم الأيبيرى وإنما اختلطت أصولها العرقية منذ الجيل التالى على الفتح الإسلامى؛ ففضلاً عن الدم العربى الذى جرى فى عروق الأندلسيات عن طريق آبائهن العرب فقد تعددت أصول الأمهات

(هـ) كانت أمه أم ولد تدعى بهير أو تهتز .

(و) أم المنذر أم ولد تدعى إيل وأم عبد الله أم ولد تدعى عشّار .

(ز) كانت أمه ونقه بنت فرتون غرسية ملك نبرة .

(ح) كانت أمه أم ولد تدعى مزنة ..

(ط) كانت أمه أم ولد تدعى مهرجان .

(ى) كانت أمه صبح البشكنسية .

(١) J . Ribera y Tarrag ;Disertaciones y opuscules vol . 1 "El concionero de Ben Guzman .

نقلا عن الطاهر مكى : دراسات عن ابن حزم ص ص ٢٥٠ – ٢٥١ .

(٢) الطاهر مكى : المرجع السابق ص٢٥١ .

فكانت منهن الفرنجيات والصقلبيات وغير ذلك مما يقلل نسبياً من معدلات " أسبنة الدماء الأندلسية على عكس ما يذهب إليه خوليان ريبيرا ومن ناحية أخرى إذا أجرينا طريقة ريبيرا الرياضية على الأصل السلالى للمرأة الأندلسية لوجدنا أن الفاتحين المسلمين اتخذوا نساءهم فى الأندلس أول الأمر من الإيبيريات فأنجبوا منهن ذكورا وإناثا ثم أصبحت هاتيك الإناث اللاتى تجرى فى عروقهن دماء نصفها عربية أمهات لجيل لاحق من الأمهات وبتوالى الأجيال - ووفقاً لطريقة ريبيرا الرياضية - تناقصت الدماء الأسبانية فى المرأة الأندلسية جيلاً وراء جيل بل يتزايد هذا التناقص كلما وفدت طوالع عربية جديدة يتخذ رجالها نساءهم من الأندلسيات خاصة الطوالع الكبيرة مثل طالعة بلج بن بشر القشيرى التى بلغت نحو عشرة آلاف فارس ، ولدينا أشارة إلى زواج رجل من تلك الطالعة ويدعى عبد الجبار بن نذير من ابنه تدمير صاحب أوريولة(١) ومعنى ذلك أن الدماء العربية كانت تتزايد تدريجياً فى عروق الأندلسيات بينما تتقلص فى عروقهن الدماء الأسبانية مما يهدم نظرية ريبيرا من أساسها ويدعونا إلى القول بأن الشخصية الأندلسية كانت مزيجا من أصول عرقية متعددة يصعب قياس امتزاجها رياضيا ، وقد انصهرت تلك الأصول العرقية بفعل عوامل عديدة بيئية وبشرية لتتبلور عنها شخصية أندلسية متميزة ومتفردة ، وكانت المرأة الأندلسية جزءا لايتجزء من تلك الشخصية تتسم بنفس سماتها وخصائصها وتجرى عليها نفس الأحوال والظروف التى أدت إلى بروزها وتميزها .

(١) العذرى : نصوص عن الأندلس ص١٥ .

المرأة الأندلسية والحياة السياسية :

لم تكن الحياة السياسية فى الأندلس إبان عصره الأموى من صنع الرجال وحدهم وإنما شاركت المرأة الأندلسية فى ذلك بنصيب وافر ، وربما كانت ارهاصة ذلك ماروى عن نساء قلعة تدمير اللائى وقفن على سور قلعتهن متزيات بزى الرجال فخدعوا الفاتحين المسلمين وجعلوهم يسارعون إلى مصالحة تدمير صاحب القلعة ذلك الصلح الذى تعد وثيقته نموذجاً لمواثيق الصلح فى الأندلس ومرجعاً يرجع إليه فى فهم معاملة الفاتحين المسلمين لأهالى البلاد المفتوحة صلحا(١) .

وظهر دور المرأة الأندلسية فى الحياة السياسية فى عصر الولاة بالأندلس فى كثير من الأحداث يأتى فى مقدمتها ماقامت به أم عاصم (أيلة) من إغراء لزوجها عبد العزيز بن موسى بن نصير ليلبس فى خلوته بها تاجاً صنعته له من جواهرها فرأت إحدى قريناتها – وكانت زوجاً للقائد زياد بن النابغة التميمى – ذلك التاج على رأس عبد العزيز بن موسى فأرادت أن تصنع لزوجها مثله وأبلغته الأمر الذى فشا بين الجند المسلمين فاستنكروه مما أدى إلى حدوث أول انقلاب سياسى فى الأندلس أودى بحياة الوالى عبد العزيز بن موسى وخلفه فى الحكم أيوب بن حبيب اللخمى(٢).

ويظهر دور المرأة الأندلسية فى الحياة السياسية فى الفترة الانتقالية من عصر الولاة إلى عصر الإمارة حينما تدخلت بنات يوسف الفهرى لدى عبد الرحمن بن معاوية الداخل واستعطافهن إياه بعد انتصاره على أبيهن فى

---

(١)المقرى : نفح الطيب ، جـ١ ص٢٥٢ .

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق جـ٢ ص٢٣ .

موقعة المصارة فاستجاب لهن عبد الرحمن الداخل وأحسن معاملتهن وأوكل إلى القاضى يحى بن زيد أن يحفظهن(١) ، وقبل من إحداهن جارية أهدته إياها ، وقيل إن هذه الجارية كانت حللَ أم ولده هشام الذى تولى بعده إمارة الأندلس وتلقب بالرضا(٢).

وفى عصر الإمارة الأموية فى الأندلس يظهر دور المرأة الأندلسية جلياً فى الحياة السياسية من خلال وقائع عديدة منها - علىسبيل الممثال - أن الحكم الربضىبن هشام خرج مجاهداً فىإحدى جولاته تلبية لنداء امرأة مسلمة بناحية وادى الحجارة وسمعها عباس بن ناصح الجزيرى وهى تنادى "وأغوثاه ياحكم " فأوغل الحكم فى أرض العدو النصرانى فقتل وأسر كثيراً حتى وصل إلىالناحيةالتىبها المرأةفأمر لأهلها بمالمنالغنائم يصلحونبه أحوالهم ويفدون به سباياهم وخص المرأة المستغيثة وآثرها وقال لها ولهم"هل أغاثكم الحكم؟"(٣).

(١) الخشنى : المصدر السابق ، ص١٤ .

(٢) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص٥٠ .

- يتفق المقرى مع ابن القوطية فى أن أم هشام الرضا تدعى حلل لكن الضبى (بغية الملتمس ص١٣) وابن عبد الواحد المراكشى (المعجب ص١٩) والنويرى (نهاية الأرب جـ٢٣ ص٣٥٢) يدعونها حوراء بينما يدعوها ابن عذارى (البيان المغرب جـ٢ ص٦١) جمال لكن صاحب أخبار مجموعة (ص٩٧) يذكر أن عبد الرحمن الداخل أهديت له جاريتان واشترى ثالثة فحملت الثالثة بابنته عائشة بينما كره الأولتين لوقوعهما فى يد عبد الرحمن بن يوسف الفهرى فأهدى احداهما واسمها كلثم لمولاه عبد الحميد بن غانم وأعطى الأخرى لرجل آخر ولم يراجعها .

(٣) ابن عذارى : المصدر السابق جـ٢ ص٧٣ والمقرى : المصدر السابق جـ١ ص ص ٣٢٨ - ٣٢٩ تشبه هذه الوقائع ما روى عن غزو المعتصم بالله العباسى لعمورية استجابة لاستغاثة مماثلة من امرأة مسلمة .

ومن ناحية أخرى يظهر دور المرأة الأندلسية فى الحياة السياسية فى عصر الإمارة فيما كان لنساء القصر من نفوذ لدى الأمراء ورجال الدولة ،فقد كان لنساء القصر فى إمارة الحكم الربضى - رغم سطوته - نفوذهن وقيل إن له خمس جوارى كن قد غلبن عليه وملكن أمره وحلن بينه وبين سائرنسائه وكن يتدللن عليه ويتأبين فيسترضيهن(١) ، ومع أن المصادر لم تعين أسماء هاتيك الجوارى الخمس فليس من المستبعد أن تكون إحداهن "حلاوة " أم ولده عبد الرحمن ولى عهده(٢) . ومنهن أيضاً حظيته " عجب " إحدى شهيرات سيدات البلاط الأموى فى قرطبة وتنسب إليها " منية " عجب إحدى ضواحى قرطبة المعروفة فى الجهة القبلية منها وكان بها " مسجد عجب " الذى ذكر ابن سهل إن وجوه أهله رأوا نقل باب ميضأته إلى خارج باب المسجد كيلا يدخل المسجد من لايجب دخوله كالصبيان وغيرهم(٣) .

ولم يقتصر نفوذ عجب على أيام سيدها الحكم الربضى بل امتد إلى أيام ابنه عبد الرحمن الأوسط إذ " كانت مدلة عليه لمكانها من أبيه " حتى أنها حاولت استخدام نفوذها لإطلاق سراح المدعو ابن أخيها من الحبس بعد أن تلفظ بألفاظ كفر وإلحاد شهد بهاعليه واستوجبت محاكمته ، لكن عبد الرحمن الأوسط أعرض عن تدخلها بلطف محيلاً الأمر إلى جهة اختصاصه وهم الفقهاءالمشاورون فأفتىعبدالملكبن حبيب وأصبغ بن خليلبصلبه لإلحاده(٤) .

(١) أخبار مجموعة ص١١٧ . وابن عذارى : المصدر السابق جـ٢ ص٧٩ .

(٢) الحميدى : جذوة المقتبس ص١٠ . والضبى : بغية الملتمس ص١٤ .

(٣) وثائق فى شئون العمران فى الأندلس ص ص ٦٧ - ٦٨ .

(٤) الخشنى : المصدر السابق ص ٥٩ . وعياض : المصدر السابق جـ٢ ص٣٩ .

وتزايد نفوذ نساء القصر كلما زادت دالتهن على الأمراء مثلما حدث فى عصر عبد الرحمن الأوسط الذى كان شديد الميل إلى النساء واستكثر من اقتناء الجوارى الحسان(١) وكان أكثرهن نفوذاً لديه حظيته الأثيرة طروب أم ولده عبد الله إذ كان لها " تحكم على مولاها الأمير عبد الرحمن وإدلال كثير "(٢) ، وكانت إذا صدت عنه يسترضيها بآلاف الدنانير ونفيس الحلى والجواهر(٣) . وقد حاولت طروب استغلال مكانتها لدى سيدها فى جعل ولاية عهد لأبنها عبد الله" ولم يكن ابنها بالحصيف فتتبعت هواها فيه وجعلت تصطنع أهل القصر من النسوان والخدم والخصيان ومن ينتابه من الوزراء وأهل الخدمة ورجال المملكة لإبنها عبد الله ... حتى أسعدها على رأيها كثير منهم على علمهم بتخلف عبد الله وعدمه لخصال الرياسة وكان أقوى أعوانها على ما أحبته من ذلك نصر الخصى"(٤).

تحالفت طروب مع نصر الخصى لتحقيق هدفهما المشترك فى صرف الإمارة إلى ابنها عبد الله دون أخيه الأكبر محمد بن عبد الرحمن ، وإذا كانت طروب قد دفعتها إلى ذلك عاطفة الأمومة فإن نصر الخصى كان يهدف إلى الهيمنة على مقاليد الحكم من خلال عبد الله بن طروب الذى كانت قدراته دون مستوى الحكم ، واحتار الأمير عبد الرحمن الأوسط بين ضغوط حظيته طروب وحليفها الأثير لديه نصر الخصى من جهة وتفضيله لابنه الأكبر محمد من جهة أخرى فشاور وزراءه فى الأمر فأشاروا بعبد الله بن طروب

(١) محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام فى الأندلس جـ١ ص٢٧٨ .

(٢) ابن حيان : المقتبس ، نشر محمود مكى ص١١٠ .

(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ٢ ص٩٣ .

(٤) ابن حيان : المصدر السابق ، ص١١٠ . وابن القوطية : المصدر السابق ، ص٩١ .

إرضاءاً لأمه إلا الحاجب عيسى بن شهيد الذى لم يخضع لضغوط طروب وآثر الصالح العام فرشح لولاية العهد محمد بن عبد الرحمن لثناء أولى العقل عليه، ولذا أخذ عبد الرحمن الأوسط يماطل حظيته طروب وأثيره نصر الخصى فيما إليه إلى أن تخطفت المنية نصراً الخصى ففتر أمر عبد الله(١) .

كانت وفاة نصر الخصى بتجرع السم الذى تآمر على سيده ليسقيه إياه ليعجل بصرف الإمارة إلى عبد الله بن طروب حليفته لكن الحرانى الطبيب الذى طلب منه إعداد ذلك السم كشف المؤامرة لضرة طروب ، حظية عبد الرحمن الأوسط الأخرى المدعوة " فجر " فأبلغت فجر سيدها بخبر المؤامرة فأمر نصر الخصى بتجرع السم(٢) ، لتفشل بذلك مؤامرة خطيرة كان يمكنها - لو نجحت - أن تغير صفحات كثيرة من التاريخ الأندلسى .

ويبدو أن طروب قد تنصلت من تآمر نصر الخصى على سيده ، إذ سكتت المصادر عن ذكرأى عقاب لها بل ظل اسمها يذكر دون تجريح بقية أيام عبد الرحمن الأوسط فذكر أنه جلس يوماً متوعكا فى العلية من القصر فرأى غنماً بلا راع فسأل أتباعه عنه فقالوا له: "يامولانا هاك راعيها قاعد إلى جانبها مستريح فى خيام طروب"(٣) دون أن ينالوا اسمها بأى تجريح .

وكان لنساء القصر نفوذهن أيضاً فى أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن الذى قام بتكريم ذكرى الشفاء حظية ابيه عبد الرحمن والتى كفلته بعد وفاة أمه بهير فأعفى أهل منية فج البشرى من جوف طليطلة من المغارم إكراماً

---

(١) ابن حيان : المصدر السابق ،ص١٠٧ .

(٢) نفس المصدر ، ص٨ . والمقرى : المصدر السابق جـ١ ، ص٢٢٤ .

(٣) ابن حيان المصدر السابق ، ص١٩ .

للشفاء التى دفنت فى هذا الموضع(١). وكانت من حظايا الأمير محمد " فينان " أم ولده الأصبغ الذى توفى عن تسع وعشرين عاماً فاشتدت عليه فجيعة أبيه الأمير محمد وأدخل نعشه إلى القصر فضمخته أمه فينان بالغالية محدثة بذلك أحد رسوم القصر الأموى بقرطبة والتى استمر العمل بها لاحقاً(٢).

كان الشغف بالجوارى يثير أحياناً مشاعر الغيرة بين الأخوة فى البيت الأموى وكان الأخوة يتغلبون على تلك المشاعر أحياناً(٣) وأحياناً أخرى تؤدى إلى التخاصم بينهم مما كان له أثره على وحدة البيت الأموى الحاكم فى قرطبة مثلما غار عثمان بن محمد من أخيه إبراهيم بن محمد ظناً منه أن جارتيه " بزيعة " المعروفة بالإمام – لأنها كانت وحيدة زمانها فى تجويد الغناء تميل إلى أخيه إبراهيم فضربها عثمان لذلك بالسوط ولما علم إبراهيم بغيرة أخيه عثمان وضربه لبزيعة قرر ألا يدخل له داراً بعدها(٤).

وكان للأمير عبد الله بن محمد – مع ما وصف به من زهد – كلف بالنساء فكانت له فى أيام أبيه محمد حظية موصوفة بالجمال تدعى جيجان(٥) وبعد أن تقلد الإمارة كان له من أمهات الأولاد عدد غير قليل هن : ونقة بنت

---

(١) نفس المصدر ص١٠٥ ، هامش (١) ، ص١٠٦ .

(٢) نفس المصدر ، ص ص ٢١٣ – ٢١٤ .

(٣) نفس المصدر ، ص٢١٦ .

– تنازل هشام بن عبد الرحمن لأخيه الأمير محمد عن جارية كان الأخير يتعشقها قبل أن يتولى الإمارة فكان تنازل هشام عن الجارية لأخيه الأمير سبباً فى اكتساب ثقته .

(٤) ابن القوطية : المصدر السابق ، ص١٢٦ .

(٥) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق إسماعيل العربى ، ص١٤٨ ، وابن الأبار : الحلة السيراء ، جـ١ ، ص١٥٧ .

فرتون غرسية المسماه در وتمام وغزلان وشأن وقريش وفتيان وملك ومستطرف وخديع وملحة وماجن وشارق(١) ومن الطبيعى أن يكون لهن نفوذهن فى القصر الأموى .

وكان لنساء القصر نفوذهن فى عصر الخلافة الأندلسية ، فقد كان للزهراء حظية عبد الرحمن الناصر نفوذ كبير حتى أنها جعلته يبنى باسمها ربضاً ملوكياً كاملاً هو " الزهراء " الذى بنى تحت جبل العروس على نحو ثلاثة أميال شمالى قرطبة(٢) أما صبح البشكنسية Aurora حظية الحكم المستنصر وأم ولده هشام المؤيد فقد بلغت من النفوذ شأوا بعيداً إذ شغف الحكم المستنصر بها شغفاً شديداً خاصة وقد أنجبت له ولديه عبد الرحمن ثم هشام بعد أن عز عليه الإنجاب من غيرها(٣) وغلبت صبح على مولاها حتى صارت كلمتها هى العليا فى تعيين الوزراء ورجال الحكم ولذلك اجتهد الوزراء وأرباب الوظائف فى استرضائها وقدموا إليها الهدايا النفسية ، وعن طريقها التحق محمد بن أبى عامر بالخدمة السلطانية وترقى فيها حتى اعتلى سدة الحكم فى الدولة الأموية فى قرطبة(٤).

كان محمد بن أبى عامر قد التحق بخدمة صبح وولدها عبد الرحمن فلما توفى عبد الرحمن التحق بخدمة ولدها هشام واجتهد ابن أبى عامر فى

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص١٥١ .

(٢) المقرى : المصدر السابق جـ٢ ، ص٦٦ .

(٣) محمد عبد الله عنان : المرجع السابق ٢/١ ص٥٢٠ وأحمد مختار العبادى : المرجع السابق ص٩٧ .

(٤) ابن عذارى : المصدر السابق جـ٢ ص٢٥١ .
وابن سعيد : المغرب فى حلى جـ١ ص١٩٤ .

إرضاء صبح واتحافها بالهدايا النفسية وكـان " يأتيهـا " بأشـياء لـم يعهد مثلهـا حتى صاغ لها قصراً من فضة .. ووقع من قلب المرأة موقعاً لاشئ فوقه فتزيدت فى بره وتكفلت بشأنه دهراً حتى تحدث الناس بشغفها به وقـال الحكم يوماً لبعض ثقاته : ما الذى استلطف به هذا الفتى حرمنا حتى ملك قلوبهن مع اجتماع زخرف الدنيا عندهن حتى صرن لايقبلن إلا هداياه"(١) .ولما توفـى الحكم المستنصر وتولى الخلافة ولده هشام المؤيد توثقت علاقة ابن أبى عامر بصبح أم الخليفة التى ظلت على دعمها له وأمدتـه بـالأموال حتـى لاك النـاس سيرتهما(٢) وقيل إنه استحلها بنكاح سر(٣).

ويبدو أن صبح أرادت أن تضع حداً لتلـك الشـائعات فشـجعت ابـن أبـى عامر على الزواج من أسماء بنت غالب الناصرى وأشرفت بنفسها على إتمـام هذا الزواج وأقامت عرسه فى قصر الخلافـة وأغدقت علـى العـروس الهدايـا والتحف(٤) وإذا كان هذا الزواج قد دعم موقف ابـن أبـى عـامر فـى مواجهـة الحـاجب جعفـر المصحفـى حتـى أطـاح بـه وتقلد بـدلاً منـه الحجابـة لهشـام المؤيد(٥) فإنه قد أضعف العلاقة بين الحـاجب ابـن أبـى عـامر الـذى تلقب بالمنصور وبين صبح أم الخليفة التى غارت من أسماء بنت غالب بعد أن صـارت أحظـى نسـاء المنصـور لديـه(٦) وتنبهت صبـح لطمـوح المنصـور

(١) ابن عذارى : المصدر السابق جـ٢ ص٢٥٢ .

(٢) نفس المصدر جـ٢ ص٢٨٠ . والمقرى : المصدر السابق حـ٢ ، ص١٣٤ .

(٣) ابن حزم : رسالة نقط العروس ص٦٨ .

(٤) محمد عبد الله عنان : المرجع السابق ١/٢ ص٥٢٩ .

(٥) ابن الأبار : المصدر السابق ، جـ١ ص٢٦٩ .

وابن عبد الواحد المراكشى : المعجب ، ص٣٠ .

(٦) ابن عذارى : المصدر السابق جـ٢ ص٢٦٧ .

المتزايد وحجبه ولدها هشام المؤيد حجباً فعلياً وإبعاده تماماً عن ممارسة الحكم فانقلبت صبح على المنصور بن أبى عامر وتآمرت للاطاحة بـه ، لكن المنصور كان حذراً مما تدبره صبح البشكنسية فابتنى لنفسه حاضرة خاصة أسماها الزاهرة ونقل إليها من قصر الخلافة كل الأموال المختزنة فيه ليستعين بها على أموره من ناحية وليحرم صبح البشكنسية من إمكانية استخدامها لتلك الأموال فى التآمر ضده من ناحية أخرى ، وفضلاً عن هذا فقد وكل بقصر الخلافة قومة من قبله(١) .ويروى ابن بسام جانباً من صراع صبح البشكنسية والمنصور بن أبى عامر لحيازة أموال الخلافة وليحرم كل منهما الآخر من تلك الأموال فيذكر أن صبحاً " أخرجت عند تمكن الوحشة بينها وبين ابن أبى عامر مائة كوز على أعناق الخدم الصقالبة مختومة قد صيرت أشطارها مالاً عيناً ذهباً وفضة وموهت على ذلك كله بالمرى .. وكان فى تلك الكيزان ثمانون ألف دينار فأحضر ابن أبى عامر جماعة وأعلمهم أن الخليفة مشغول عن حفظها بانهماكة بالعبادة وأن فى تضييعها على المسلمين وعلى الدولة أعظم الآفة فرأت الجماعة أن كون الأموال بيد المنصور أسلم وهو على حفظها أقوم وأقدر" ويذكر ابن بسام أن علة أصابت المنصور حالت بينه وبين تنفيذ ذلك فقام . تنفيذه ابنه عبد الملك "..فنقل فى ثلاثة أيام حتى استنفذ جميع ما ظهر عليه من بيت المال وتعذر ما كان بجوف القصر من بيت مال الخاصة ودافع عنه أهل الدار لقيام السيدة أم هشام دونه" ويضيف ابن بسام أن صبحاً أخذت ترمى ابن أبى عامر وولده بكل عظيمة " وعبد الملك يومئذ ساكت يتجرع غصصه لايرد كلمة فبلغ عبد الملك رغبته وانكفأ إلى أبيه بالزاهرة بعد أن ثقف القصر فسكن جأش ابن أبى عامر بإحراز تلك الأموال

(١) ابن سعيد : المصدر السابق ، جـ١ ص١٦٩.
والنويرى : المصدر السابق ، جـ٢٣ ص٤٠٤ .

وكانت جملة ما حملوا - زعموا - من الورق خمسة آلاف ألف دينار دراهم قاسمية ومن الذهب سبعمائة ألف جعفرية"(١) وهكذا أحكم المنصور بن أبى عامر الحصار حول صبح البشكنسية وحد من قدراتها بل عمل أيضاً على دفعها إلى الظل ليطويها النسيان ويختفى اسمها تماماً عن الساحة السياسية(٢).

وإذا كانت امرأة - هى صبح البشكنسية - قد أسهمت فى وصول المنصور ابن أبى عامر إلى سدة الحكم وقيام ما يسمى بالدولة العامرية فإن امرأة أخرى هى الذلفاء أم الحاجب المظفر عبد الملك بن المنصور بن أبى عامر قد أسهمت فى إسقاط تلك الدولة العامرية .

كانت الذلفاء إحدى حظيات المنصور بن أبى عامر ووالدة ابنه المظفر عبد الملك وقد ظهر اسمها على الساحة السياسية فى حجابة ولدها المظفر وبرز نفوذها القوى فى موقفها من الوزير عيسى بن سعيد اليحصبى المعروف بابن القطاع الذى كان وزيراً للمنصور بن أبى عامر ثم لابنه المظفر عبد الملك وقد تزايد نفوذ ابن القطاع فى حجابة المظفر " واشتمل على الملك وهو وولده وصنائعه" وصاهر الحاجب المظفر إذ زوج ابنه المكنى أبا عامر أخت عبد الملك الصغرى من بنات المنصورسنة ٣٩٦هـ فوصل نفوذه إلى الذروة لكنه مالبث أن أغضب السيدة الذلفاء أم المظفر حينما أساء إلى صنيعتها " خيال " أم ولد المظفر إذ كان سبباً فى زواج المظفر من مولاته " بنت الجنان " التى تأدبت فى بيته وأخذت الغناء عن محسنات قيانه

(١) الذخيرة جـ ١/٤ ، ص٧١ .

(٢) ذكر ابن حزم (طوق الحمامة ص٣٨) أن جارية أدخلت على المنصور بن أبى عامر ليبتاعها فغنت شعراً فيه غزل بصبح أم المؤيد فأمر المنصور بقتل هذه الجارية .

وقدمها إلى المظفر فأخذ بجمالها ومحاسنها فتزوجها فغارت " خيال " وغضبت لغضبها الذلفاء على ابن القطاع وأخذت فى التعريض به وتحريض ابنها المظفر عليه حتى قتله بتهمة الخيانة والتآمر مع هشام بن عبد الجبار الأموى ضد الحاجب المظفر(١) وهكذا أثبتت الذلفاء أنها سيدة القصر القوية ولما توفى ولدها الحاجب المظفر فجأة حين قفوله من صائفة سنة ٣٩٨هـ وسرت بين الناس إشاعة بأنه قتل مسموما اتهمت الذلفاء أخاه عبد الرحمن المعروف بشنجول بأنه قتل ولدها ليتقلد الحجابة بدلاً منه(٢) وعلى الرغم من أن عبد الرحمن قد أعلى منزلتها وأحسن عشرتها وأقرها مع ولد أخيه عبد الملك وحرمه فى مقرها لم ينقصها شئ من حالها فإنها حملت فى نفسها حقداً دفيناً على شنجول وتآمرت للاطاحة به واتصلت لذلك ببنى مروان بواسطة بشرى الصقلبى الذى كان يتشيع لبنى مروان فدسته الذلفاء إلى معارفة منهم تدعوهم للاطاحة بشنجول وتعد من ينشط منهم للقيام بذلك أن تعينه بمالها وحيلتها واستجاب لتحريضها محمد بن هشام بن عبد الجبار الذى نجح فى الاطاحة بشنجول وقتله وانتزع الخلافة من هشام المؤيد لكن النار التى أضرمتها الذلفاء نالها منها بعض شررها إذ نهب العامة قصر المظفر المعروف بالحاجبية وأزعجوا عنه الذلفاء وأخذوا من أمتعتها مالا حصر له دون حماية حقيقية من جانب محمد بن هشام الذى تلقب بالمهدى لكنه تدخل مؤخراً لحماية الذلفاء وأذن لها فى نزول دارها بجوف قرطبة فانتقلت إليها بما بقى لها(٣) .

---

(١) ابن بسام : المصدر السابق ١/١ ص ص ١٢٤ - ١٢٥ . وابن عذارى : المصدر السابق جـ٣ ص ص ٢٩ - ٣٢ .

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق جـ٣ ص٣٧ .

(٣) نفس المصدر ، جـ٣ ص٥٢ ، ٦٢ ، ٦٣ .

هكذا كان لنساء القصر دورهن فى الحياة السياسية فى الأندلس على عهد أموِيى قرطبة ، لكن دور المرأة فى هذا الصدد لم يقتصر على ذلك وإنما أمتد إلى نواحى أخرى مثل المصاهرات السياسية التى كان لها أثر فعال فى صنع كثير من الأحداث وتسييرها ففى عصر الولاة يمكننا اعتبار زواج عبد العزيز بن موسى بن نصير وغيره من القادة من إيلة أرملة لذريق وقريناتها الأسبانيات نوعاً من المصاهرة السياسية أريد به تحقيق المصالحة السياسية بين الفاتحين المسلمين وأهالى البلاد المفتوحة وتوثيقاً للصلات بينهم وفى عصر الولاة أيضاً كان زواج مونوسة القائد البربرى المسلم من ابنة أودو Eudes دوق أقطانيا مصاهرة سياسية لها أهدافها إذ كان أودو على خلاف مع الفرنجة ومدبر دولتهم حينذاك قارلة (شارل مارتل) مما دفعه إلى مصاهرة مونوسة حاكم شمال الأندلس ليتقوى به ضد الفرنجة(1) ولعل مونوسة قد أراد من ناحيته أن يدعم نزعته الاستقلالية عن ولاة قرطبة بتأمين حدوده مع دوق أقطانيا .

أما فى عصر الإمارة فقد عقدت مصاهرات سياسية عديدة منها ما كان داخليا بين القوى الإسلامية فى الأندلس ومنها ما كان بين المسلمين وملوك نصارى الأسبان ومن الملاحظ أن تلك المصاهرات السياسية قد كثرت أواخر عصر الإمارة إبان الفتنة الأندلسية التى بدأت منذ أواخر عصر الأمير محمد ابن عبد الرحمن وما أسفرت عنه من قلاقل واضطراب وقد كان الهدف من تلك المصاهرات السياسية تدعيم مواقف القوى المتنازعة فى الأندلس وقتذاك لذلك كان معظم تلك المصاهرات فى الثغور والنواحى التى نشط فيها الثوار

(1) حسين مؤنس : فجر الأندلس ص٢٥٣ ، ص٣١٥ .
- قيل إن ابنه أودو كانت تسمى لامبيجيا .

المنتزين على طاعة السلطة المركزية مثل الثغر الأعلى ، إذ عقد بنوقسى حكام هذا الثغر كثيراً من تلك المصاهرات السياسية(١) التى لم تكن فى اتجاه واحد وإنما اتجاهات إذ صاهروا بعض القوى الإسلامية أحياناً وبعض القوى الإسلامية أحياناً أخرى ، فعلى سبيل المثال أراد موسى بن موسى القسوى المتمرد على طاعة الأمير محمد بن عبد الرحمن أن يدعم موقفه فصاهرإلى غرسيه بن ونقة صاحب بنبلونة بالزواج من ابنته أورية(٢) ومن ناحية أخرى صاهر أزراق بن منتيل صاحب مدينة الفرج فزوجه ابنته طمعاً فى الاشتمال عليه وابعاده عن طاعة الأمير محمد لكن أزراقاً - بعد أن بنى بابنة موسى القسوى - توجه إلى قرطبة مؤكداً للأمير محمد طاعته (٣) فحنق موسى على صهره أزراق حنقاً شديداً وأدرك أن المصاهرة لم تؤت ثمارها فبادر إلى مهاجمة وادى الحجارة مدينة صهره فى غفلة من أهلها ، وفخرت ابنه موسى على زوجها أزراق بما فعله أبوها فى رعيته فغضب أزراق وخرج ملاحقاً لأبيها وضيق عليه حتى رهقه وزرقة زرقة جرح بها قدمه جرحاً خارت منه قواه ومات بتطيلة سنة ٢٤٨هـ(٤) .

وسار أبناء موسى القسوى على نهج أبيهم فى عقد المصاهرات السياسية لأغراض شتى منها الانتقام أحياناً مثلما فعل إسماعيل بن موسى

---

(١) أحمد مختار العبادى : المرجع السابق ص٩٧ .

(٢) محمد عبد الله عنان : المرجع السابق جـ١ ص٣٦٢ .

- لكن ابن حزم (الجمهرة ص٤١٥) يذكر أن أورية بنت موسى هى التى زفت إلى غرسيه بن ونقة .

(٣) ابن حيان : المقبس، نشر مكى ص٣١٥ .وابن القوطية : المصدر السابق ص١١١.

(٤) ابن حيان : المصدر السابق ص٣١٧ . والعذرى : المصدر السابق ص٣٠ .

القسوى إذ صاهر إلى عبد الله بن خلف بن راشد عامل بربطانية وتزوج ابنته " سيدة " ليأمن جانبه وتحيناً لفرصة الإيقاع به انتقاماً لتسليم عبد الله بن خلف إياه إلى الأمير محمد حينما خلع الطاعة سنة ٢٥٩هـ ، فلما ولدت " سيدة " ولداً أسماه محمد وأقام له عقيقة بحصن منت شون ودعا إليها صهره - جد ولده عبد الله بن خلف-وجميع ولده فلما قدموا عليه قبض عليهم وحبسهم ثم قتلهم جميعاً حين علم أن الأمير محمد خرج إليه بالصائفة لتخليصهم من يده(١) أما مطرف بن موسى القسوى فقد عقد مصاهرة سياسية مع شانجة صاحب بنبلونة وتزوج ابنته فليشكيطة واستجلبها إلى وشقة فأخذت تحرضه ضد أهل المدينة وتؤلبه عليهم ليتشدد في معاملته لهم(٢) .

وكانت المصاهرات السياسية تعقد أحياناً بين المتمردين على الحكومة المركزية ليتقوى بعضهم ببعض في مواجهة حكومة قرطبة ، من ذلك على سبيل المثال مصاهرة ابن الشالية أبي عيسى بن عبد الله إلى رأس الفتنة عمر ابن حفصون فزوج ابنته لجعفر بن عمر بن حفصون ونقلها إليه ببشتر ووصل يده بيده فاعتز جانبه(٣).

ولم يتخلف البيت الأموى نفسه في عصر الأمير محمد عن مثل هذه المصاهرات السياسية إذ تزوج عبد الله بن محمد من ونقة (إينيجا onneca) ابنه فرتون غرسيه F Garces ملك نبرة Navara التي أطلق عليها اسم "در"(٤) ويبدو أن الهدف من تلك المصاهرة كان إجهاض تحالف مملكة نبرة

---

(١) العذارى : المصدر السابق ص٣٢ .

(٢) نفس المصدر ، ٦٢ .

(٣) ابن الآبار : المصدر السابق جـ١ ص٢٣٠ .

(٤) أحمد مختار العادى : المرجع السابق ص٩٧ .

مع بنى قسى ولكن المصاهرات السياسية بين القسويين ومملكة نبرة كانت أكثر عدداً وأبعد أثراً.

وهناك إشارات إلى بعض المصاهرات السياسية التى كانت تعقد أحياناً مخالفة للتشريع الإسلامى تزوج فيها بعض ملوك نصارى الأسبان من أندلسيات مسلمات(١) لكن يبدو أن هؤلاء الأندلسيات لم يكن مسلمات بل كن مسيحيات أو مرتدات عن الإسلام ، وقد أشار ابن حزم إلى أن بعض بنى قسى ارتدوا عن الإسلام(٢) وكان موسى القسوى لايتورع عن شئ فى سبيل تحقيق مصلحته السياسية فزف ابنته أورية - وفقاً لابن حزم - إلى غرسيه ملك البشاكسة فولدت له موسى بن غرسيه وزوج أيضاً بنات أخيه لب بن موسى من أولاد ونقة بن شانجة ملك البشاكسة(٣).

واستمرت المصاهرات السياسية فىعصر الخلافة ، ولقد كان للمنصور ابن أبى عامر نصيب الأسد منها سواء فى مرحلة سعية إلى السلطة أو فى مرحلة اعتلائه ذروة السلطة فى الأندلس ففى المرحلة الأولى كانت مصاهرته السياسية - التى سبق ذكرها - مع غالب الناصرى تحالفاً معه للاطاحة

---

(١) يرى الدكتور العبادى (المرجع السابق ص٩٧) وجود مثل هذا النوع من الزواج مثل زواج ملك نبرة ونقة بن ونقة من أرملة موسى بن فرتون بن قسى وزواج جميلة أخت محمود بن عبد الجبار من أحد حكام جليقية وزواج زايدة المسلمة أرملة المأمون ابن المعتمد بن عباد من ألفونسو السادس ملك قشتالة ومع أن هذه الزيجات كانت لها ظروف خاصة وأنها حالات فردية محدودة فإن التشريع الإسلامى يحرم زواج المسلمة من غير المسلم

(٢) جمهرة أنساب العرب ص٤٦٨ .

(٣) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

بالحاجب جعفر المصحفى([1]) وفى المرحلة الثانية سعى كثير من ملوك نصارى الأسبانى إلى مصاهرة المنصور بن أبى عامر دفعاً لعدائه وطلباً لمرضاته مثل شانجة ملك نبرة الذى زوج ابنته للمنصور فأسلمت وتسمت بعبدة وأنجبت للمنصور ابنه عبد الرحمن الذى اسمته شنجول على سبيل التدليل تصغيراً لاسم جده شانجة([2]) وبرمودة الثانى Vermuda II ملك ليون الذى زوج ابنته تريزا Teresa من المنصور مقتفياً بذلك أثر شانجة غرسية فى مسالمة المنصور عن طريق المصاهرة([3]) .

وهكذا شاركت المرأة الأندلسية فى الحياة السياسية مشاركة فعاله من خلال نفوذ نساء القصر وعن طريق المصاهرات السياسية وغير ذلك مما جعل الحياة السياسية فى الأندلس لاتصنع بأيدى الرجال وحدهم وإنما أسهمت فى صنعها المرأة الأندلسية .

المرأة الأندلسية والحياة الاجتماعية :

سبق أن ذكرنا أن الأصول العرقية للمرأة الأندلسية بنوعيها : الحرائر والإماء ، كانت متنوعة فلم يقتصر الفاتحون المسلمون فى اتخاذهم لنسائهم على الأيبيريات وإنما اتخذوهن من أعراق شتى ، ينكحون الحرائر ويتسرون بالإماء .

---

(١) ابن بسام الذخيرة ٤/١ ص٦٥ . وابن عذارى : المصدر السابق جـ٢ ، ص ص ٢٦٥ - ٢٦٧ .

(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص٦٦ .وليفى بروفينسال : الحضارة العربية فى أسبانيا ص٢٠١ .

(٣) عنان : المرجع السابق ٢/١ ص٥٨٣ .

أقبل الفاتحون المسلمون على الزواج من الحرائر لأول الفتح وهو مايسميه البعض الزواج المختلط والذى يعد زواج عبد العزيز بن موسى بن نصير من أيلة (أم عاصم) أول نموذج له(١) وكان من أمثلته أيضاً زواج عبد الجبار بن نذير من ابنه تدمير كما سبق أن ذكرنا ، كما كان من أمثلته زواج سارة القوطية من عيسى بن مزاحم جد أبى بكر بن القوطية ثم من عمير بن سعيد اللخمى جد بنى حجاج(٢) وفى عصر الإمارة كان من أمثلة الزواج المختلط زواج الوزير تمام بن عامر من أم الوليد بنت خلف ابن رومان النصرانية التى أنجب منها بنتاً كانت هى أم الوزير الكاتب عيسى بن فطيس(٣) وفى عصر الخلافة توجد أمثلة عديدة للزواج المختلط منها ماكان فى نفس الوقت مصاهرات سياسية .

لم يقتصر الزواج المختلط على رجالات الأندلس وأعيانهم وإنما أقبل عليه الأندلسيون عامة على اختلاف طبقاتهم وكان نكاح الحرائر يتم وفقاً لأحكام الشريعة الإسلامية على مذهب الإمام مالك الذى حل فى الأندلس محل مذهب الأوزاعى منذ إمارة هشام الرضا بن عبد الرحمن الداخل ولم يكن الزواج من الجوارى يتم إلا بعد عتقهن مثال ذلك أن سعيد بن منذر ابن سعيد البلوطى صاحب الصلاة فى جامع قرطبة أيام الحكم المستنصر كانت له جارية يحبها حباً مفرطاً فعرض عليها أن يعتقها ليتزوجها فاشترطت عليه تلطيف لحيته – وكان عظيم اللحية – ففعل ثم دعا بجماعة

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق جـ٢ ، ص٢٣ ، ولطفى عبد البديع : الإسلام فى أسبنيا ص٢١ .

(٢) ابن القوطية : المصدر السابق ص٣٠ . ولطفى عبد البديع : المرجع السابق ص٢١ .

(٣) ابن حيان : المصدر السابق ص١٨٢ .

شهود وأشهدهم على عتقها ثم خطبها إلى نفسه فلم ترض به وكان فى جملة من حضر المجلس أخوه حكم بن منذر فخطبها إلى نفسه فوافقت فتزوجها(١).

كانت السن التى تتأهل الفتاة عندها للزواج هى سن البلوغ مابين ١٢ - ١٣ عام(٢) لكن وثائق الزواج التى أوردها ابن العطار أفادت بأن عقد نكاح البنت الصغيرة كان يمكن عقده قبل سن البلوغ(٣) لكن بناء الزوج بزوجته لايلزم أن يكون من تاريخ عقد النكاح وإنما قد يتأخر عن ذلك وأغلب الظن أن البناء بالزوجة لايكون إلا بعد البلوغ وقد ذكر الخشنى عن زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون أنه عقد على حميدة بنت معاوية بن صالح الحضرمى فرغب فى " أن ينظر زوجته فى بيت أبيها قبل بنائه بها على ما يفعله بعض الناس فتحيل النساء عليه فى ذلك وأتين به عند العشاء الأخرة فصار فى الأسطوان فنفرت دابة معاوية منه واشتد قلقها من أجله حتى خرج معاوية إلى الصلاة فسمع حس الدابة فرابه ذلك ثم دعا بالمصباح فوجد زياداً فى مذود الدابة فى بعض زوايا الأسطوان فما زاد على أن قال استوصوا (بالنساء) خيراً ثم خرج إلى الصلاة "(٤).

---

(١) ابن حزم : طوق الحمامة ص٤٤ .

(٢) نفس المصدر ، ص١١٧ .

يفهم من ابن حزم أن أخاه أبا بكر الذى توفى فى عن ٢٢ عاماً بعد زواج دام ٨ سنوات كان قد تزوج فى سن الرابعة عشر وإذا كانت زوجته تصغره بنحو عام أو عامين فإن زواجها يكون فى سن ١٢ -١٣ عام كما ذكرنا عالية .

(٣) الوثائق والسجلات ، ص١٣ .

(٤) الخشنى : المصدر السابق ص١٨ .

كان يمهد للزواج بالخطبة التى قد يسبقها تبادل المحبين للرسائل الغرامية التى يحملها بينهم " إما خاملاً لايؤبه له وإما جليلاً لاتلحقه الظنن لنسك يظهره أو لسن عالية قد بلغها ، وما أكثر النساء فى هذا ولاسيما ذوات العكاكيز والتسابيح "(١) . فالعجائز كن يقمن بدور هام فى تهيئة الظروف بين الخطيبين وتذليل العوائق التى قد تعترض مشروع الزواج(٢) وفى ذلك يقول ابن حزم " أنك لترى المرأة الصالحة المسنة المنقطعة الرجاء من الرجال وأحب أعمالها إليها سعيها فى تزويج يتيمة أو إعارة ثيابها وحليها لعروس مقلة(٣) .

يأتى بعد الخطبة عقد القران وعادة ما يكون فى مجلس مشهود فلقد حضر رجل يدعى محمد بن وهيب مجلساً لأحد الفقهاء وهو محتفل بسراة الناس لعقد نكاح فأحضر الفقية كاتباً " فأملى عليه فى نسق لم يتردد فيه ولا أبطأ كأنه يتلوه من كتاب حفظه وذكر الشروط والتاريخ على نصها فى الصداقات ، كل ذلك يحضره من شهد المجلس"(٤) ويمدنا ابن العطار بنماذج لعقد النكاح وفيها ينص على مقدار الصداق نقداً وكالئا (مقدماً ومؤخراً) وتسجل فيه الشروط المتفق عليها بين طرفى العقد وما يتعهد به الزوج لزوجته ومايلتزم به نحوها من التزامات مثل عدم الزواج عليها وألا يتسرى معها ولا يتخذ أم ولد وألا يغيب عنها غيبة متصلة أكثر من ستة أشهر إلا فى أداء فريضة الحج عن نفسه فإن له فى ذلك مغيب ثلاثة أعوام وألا ينقلها من

---

(١) ابن حزم : المصدر السابق ص٣٥ .

(٢) الطاهر مكى : دراسات عن ابن حزم ص٢٧٠ .

(٣) ابن حزم : المصدر السابق ص٤٩ .

(٤) الثعالبى : يتيمة الدهر ، جـ١ ص٤٠٨ .

دارها إلا برضاها وألا يمنعها من زيارة جميع أهلها من النساء وذوى محارمها من الرجال وألا يمنعهم من زيارتها وأن يوفر لها من يخدمها إن كانت ممن لاتخدم نفسها ومما إلى ذلك من شروط(١).

كان الصداق مناسباً لمكانة المرأة الاجتماعية وينقسم إلى قسمين : نقد (مقدم) وكالئ (مؤخر) وربما يدل على قيمة الصداق ماذكره ابن العطار أن كالئ فاطمة زوج المدعو محمد بن عامر الذى صولح عليه أبوها بعد وفاة زوجها قد بلغ ثلاثمائة دينار قبضها أبوها من ميراث زوجها المتوفى إذ هى فى نظر أبيها لقرب بناء زوجها عليها(٢) . ويستخدم الصداق عادة فى تجهيز الزوجة إلى زوجها(٣) وينبغى أن يكون الجهاز لائقاً بمكانة العروس لتباهى به قريناتها(٤) لكن يبدو فى المقابل أن الأندلسيين كانوا يقدمون لبناتهم هدايا عرس لائقة (دوطة) ترغيباً فى الزواج منهن ولعل الأصل فى ذلك كان أسبانياً فقد أعطى تدمير صاحب أوريولة ابنته حين زواجها بعبد الجبار بن نذير - الذى أشرنا إليه سابقاً _ هدية عرس قريتين كاملتين هما : قرية " ترسة " المجاورة لإلش على ثلاثة أميال منها وقرية " تل الخطاب " الواقعة على ثمانية أميال من أوريولة(٥) وكانت هدايا العرس تتزايد كلما عز تزويج الحرائر بسبب كثرة الجوارى ورخص أثمانهن مثلما حدث فى زمن المنصور ابن أبى عامر فقد نتج عن كثرة السبى فى أيامه أن " تغالى الناس بالأندلس فيما

---

(١) كتاب الوثائق والسجلات ، ص ص ٧ - ٨ .

(٢) نفس المصدر ص٢٣ .

(٣) نفس المصدر ص١١ .

(٤) يحى بن عمر : أحكام السوق ص١٤١ .

(٥) العذرى المصدر السابق ص١٥ .

يجهزون به بناتهم من الثياب والحلى والدور وذلك لرخص أثمان بنات الروم فكان الناس يرغبون فى بناتهم بما يجهزونهن به مما ذكرنا ولولا ذلك لم يتزوج أحد حرة "(١) .

وإذا حل يوم الزفاف وبناء العريس بعروسه أقيم العرس فى حفل بهيج يسميه ابن قزمان " الجلو " وفيه ترتدى العروس أحسن ثيابها وأغلى حليها وتتزين وتضع على رأسها تاجاً(٢) وعادة ما يكون ثوب العروس أحمر اللون وتخضب العروس يديها بالحناء(٣) وتعزف الموسيقى ويصدح المغنون بالغناء وقد يقام الاحتفال بالعرس فى الشارع ، فقد رأى أبو عبد الله محمد بن الحسن المذحجى عرساً فى أحد شوارع قرطبة والنكورى الزامر – الذى كان زامراً سابقاً للخليفة الناصر – قاعد فى وسط الحفل وهو يزمر فى البوق ومغن محسن يسايره(٤) وحضر عبد الله الفهرى اللغوى أيام شبابه وطلبه العلم عرساً وحضره معه جماعة من أهل الأدب وأحضر صاحب العرس جماعة من الملهين فيهم زامر يدعى ابن مقيم(٥) ويبدو أن والد العروس كان هو الذى يتحمل نفقة العرس ، فقد ذكر محمد بن أفلح أنه دفع إلى مالا يطيقة من نفقة فى عرس إحدى بناته ولم يبق معه سوى لجام محلى فلجأ إلى محمد بن

---

(١) ابن عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ص٣٨ .

(٢) ديوان ابن قزمان ، ورقة ١٤ يقول:

أنا تائب لس نقول بزواج ولاجلو ولاعروس بتاج .

(٣) ابن سعيد : المصدر السابق جـ١ ص٢٤٨ .

– وهبها قينة تهدى عروساً خضيب الكف قانية الرداء .

(٤) الضبى : البغية ص٢٠٣ .

(٥) نفس المصدر ، ص٥٢٤ والحميدى : الجذوة ص٣٩٨ .

أبى عامر وقت أن كان قائماً على دار الضرب فأعطاه من المال مامكنه من الأنفاق على العرس(١) لكن المغالاة فى النفقة على الأعراس كانت تؤدى إلى حدوث أشياء لايرضى عنها أهل الحسبة فى بعض الأحيان ولذلك شدد بعضهم على منع اللهو فى الأعراس ومنع بعض الآلات الموسيقية كالعود وغيره إلا ما كان من الدف العربى ، ونددوا بما استحدثته العامة من جلاء العروس على غير ذى محرم(٢) .

وإذا كان الزواج هو السبيل إلى تكوين الأسرة فإن الإنجاب كان أحد الأهداف الأساسية للأبوين وتتم عملية الوضع بالنسبة للمرأة الأندلسية على يد القابلة وقد تستدعى الطبيبة عند الضرورة وتقوم على رعاية الطفل حاضنة فى بيت أبية إذا كان الأب مقتدراً وقد يعهد به إلى حاضنة ريفية تحمله إلى الريف لترعاه حتى الفطام بمقتضى عقد يعقد بين أهل الطفل الوليد والحاضنة توضح فيه مسئولية الحاضنة عن إرضاع الطفل ونظافته ويحتفى بالمولود حفاوة تتناسب مع مكانة أسرته فتقام العقيقة فى اليوم لسابع لميلاده ويحلق شعره لأول مرة ويسمى ويكنى وتطلق على البنات أسماء عربية تقليدية بينما اقتصرت، الأسماء الوصفية على الإماء حتى عصر الخلافة تقريباً إذ مالبثت الأسماء الوصفية فى ذلك العصر أن أطلقت على الحرائر أيضاً حتى أن المنصور ابن أبى عامر كانت له ثلاث بنات لهن أسماء وصفية رقيقة هن : بهار وبنفسج ونرجس(٣) .

---

(١) المقرى : المصدر السابق جـ٤ ص٨٨ .

(٢) ابن عبد الرؤف : رسالة فى الحسبة ، ص٨٣ .

(٣) المقرى : المصدر السابق جـ٤ ص٧٢ . والطاهر مكى : المرجع السابق : ص٤٣ .

واهتمت الأسرة الأندلسية بالختان وأقامت له الاحتفالات فلقد أعذر الناصر لدين الله لأولاد ابنه أبى مروان عبيد الله فاتخذ لذلك صنيعاً عظيماً بقصر الزهراء لم يتخلف عنه أحد من أهل دولته(١) ولقد احتفل المنصور بن أبى عامر بختان ولده عبد الرحمن المعروف بشنجول وتفاءل به إذ تصادف أن نزل الغيث يومذاك بعد طول انقطاع وقحط(٢) ولما ختن المنصور بقية أولاده ختن معهم من أولاد أهل دولته خمسمائة صبى ومن أولاد الضعفاء عدد لايحصر فبلغت النفقة عليهم فى ذلك الأعذار خمسمائة ألف دينار(٣) .

ومن الأحداث الهامة فى الأسرة الأندلسية حالات الوفاة وكانت المرأة الأندلسية تشارك فى الجنائز وتتبعها وتذهب لزيارة القبور(٤) وكانت النساء تجتمعن فى الجنازات للعويل والبكاء والندب(٥) وبلغ من حزن بعض النساء على موتاهن مبلغاً عظيماً حتى أنهن يأتين بتصرفات غير معتادة فلقد بلغ من حزن إحداهن على زوجها أن باتت معه ليلة وفاته فى دثار واحد وجعلت ذلك آخر عهدها به ثم لم يفارقها الأسف عليه إلى حين موتها(٦) وأخرى اعتراها السقم والذبول حزناً على وفاة زوجها حتى توفيت بعده بعام واحد(٧) .

---

(١) المقرى : المصدر السابق ، جـ١ ، ص٣٥٩ .
(٢) نفس المصدر جـ٢ ، ص ص ٧١ - ٧٢ .
(٣) نفس المصدر جـ٢ ، ص١٢٩ .
(٤) ابن عبد الرؤف : المصدر السابق ص١٢١ .
(٥) ابن حزم : طوق الحمامة ص١١١ . والعذرى : نصوص عن الأندلس ص٣١ .
(٦) ابن حزم : المصدر السابق ص٦٥ .
(٧) نفس المصدر ص١١٧ .

وإذا كان الزواج للحرائر فإن الجوارى كن للتسرى أو للخدمة ، وقد تعددت أصولهن العرقية - كما سبق أن ذكرنا - وانقسمن تبعاً للون بشرتهن - إلى بيضاوات وسودانيات ، وإذا كان مصدر السودانيات معروفاً فإن البيضاوات كن يجلبن من جهات شتى : من شمال شبه الجزيرة الأيبيرية ومن جنوب فرنسا وإيطاليا ووسط أوربا(١) فضلاً عن العدوة المغربية التى تجلب منها البربريات ومختلف جهات المشرق التى جلبت منها الجوارى المشرقيات اللائى اشتهر من بينهن المدنيات على وجه الخصوص .

وكان تداول الجوارى بيعاً وشراء يتم فى سوق الرقيق التى عرفت فى الأندلس باسم " المعرض " ولقد تبين من دراسة سجلات سوق الرقيق بقرطبة أن ابتياع الجوارى لم يكن عملية بسيطة وإنما عملية معقدة تتم بحضور كاتب عقود يكتب عقداً توضح فيه الشروط والغرض الذى تبتاع من أجله الجارية ، ويشهد على صحته شاهدا عدل بعد فحص واختيار(٢) .

ويتضح من وثائق تلك العقود أنها تضمنت مايلى :

(أ) طرفى العقد : البائع والمشترى .

(ب) جنس الجارية : واسمها عند البيع ووصفها (قنواء أو شيماء أو خنساء أو نجلاء ...إلخ).

(جـ) ثمن الجارية : مقداره وسكته وعيارة وأن البائع قبضة من المشترى .

(د) سلامة الجارية وخلوها من الداء والعيوب .

---

(١) الطاهر مكى : المرجع السابق ، ص٤٠ .

(٢)ج . ب . ترند : أسبانيا والبرتغال ، ص١١ .

(هـ) إقرار الجارية بعلمها بالرق لبائعها وقت البيع .

(و) شهادة شاهدى عدل على صحة العقد .

(ى) تاريخ تحرير العقد : اليوم والشهر والسنة(١) .

وفى حالة الغش أو ظهور عيب فى الجارية لم يكن المشترى على علم به وقت البيع مثل الحمل الظاهر وغيره يمكن فسخ البيع ورد الأمة إلى بائعها ولذلك يرى ابن العطار أنه "يجوز ابتياع الأمة من الوخش(*) على البراءة من الحمل ولايجوزذلك فى الأمة من المرتفعات" وعنده أن العلية (المرتفعة) من الرقيق " ماكان ثمنها خمسين ديناراً إلى الستين ، وتتواضع الأمة من الوخش التى ثمنها دون العلية للاستبراء(**)"(٢) وإذا كان العيب فى الأمة باطناً لايجوز أن تراه الرجال فإنما " تنظر فيه ثقتان من قوابل النساء ومتجاليات الحرائر وتصفانه صفة تامة بقدر اجتهادهما ويسأل عن ذلك ثقتان من أطباء الرجال فإن قالا إنه عيب ينقص من الثمن وأنه قديم وجب الرد"(٣)

---

(١) ابن العطار : المصدر السابق ، ص٣٣ .

(*) الوخش فى لسان العرب ، مادة وخش هو رذالة الناس وصغارهم وسقاطهم ويبدو أن وخش الإماء فى الأندلس كن الوضيعات من جوارى الخدمة اللائى لايحسن صنعة إذ يخرج ابن العطار (الوثائق والسجلات ص٥٦) من الوخش " جارية طباخة رقامة من علية الرقيق ".

(**) الاستبراء : أن يشترى الرجل جارية فلا يطؤها حتى تحيض عنده ثم تطهر ومعناه طلب براءة الجارية من الحمل (لسان العرب ، مادة برأ) ويفهم من ابن العطار (المصدر السابق ص٣٦) أن الاستبراء كان يحط من ثمن الجارية ربما لأنه يؤخر وطأها من قبل مشتريها مدة لاتقل عن شهر ونصف .

(٢) ابن العطار : المصدر السابق ، ص ص ٣٤ - ٣٦ .

(٣) نفس المصدر ص٣٧ .

وقد ذكر ابن سهل أن رجلاً قام عنده على قوم من النخاسين فى خادم باعوها وظهر بها عيب فأمر من وثق بها من النساء لتنظر إلى تلك العيوب فاستبان بشهادة المرأة أن العيب قديم بمثله ترد ، ويوضح ابن سهل أن فقهاء الأندلس كانوا فى مثل هذه المسألة على ثلاثة آراء : أولها العمل بقول امرأة واحدة فى العيب وثانيها أن تنظر امرأتان فى العيب وثالثها أن يؤخذ بقول النساء فيما شهدن فيه من عيوب الإماء أنه قديم إن كن طبيبات ولايشهد به إلا الحكماء(١) وفى مسألة مماثلة يحدد ابن سهل ثلاث خطوات للفصل فى الأمر أولها : أن يشهد الطبيبان على أن الداء قديم قبل التبايع ، يلى ذلك أن يشهد أهل البصر من تجار الرقيق ونخاسيهم بأنه عيب يحط من ثمنها وأخيراً يصدر الفقية فتواه بوجوب الرد(٢) .

كانت الجوارى من حيث استخدامهن نوعين : جوارى للمتعة (سرارى) وجوارى للخدمة ، ويحدث أحياناً أن تتحول الجارية من أحد هذين النوعين إلى النوع الآخر ، فقد ذكر ابن حزم أن جارية رائعة الجمال بدار ابن الركيزة انتقلت إليها بعد وفاة سيدها السابق وبيعها فى تركته لكنها نفرت من الرجال جميعاً وفاء لذكرى مولاها المتوفى وكانت تحسن الغناء فأنكرت علمها به ورضيت أن تعمل بالخدمة والخروج من جملة السرارى المتخذات للنسل والمتعة وما ينعمن به من حال حسنة ورفاهية(٣) وعلى العكس يروى أن الخليفة الناصر أعجب بامرأة قصارة تدعى أم قريش رأها على ضفة أحد الأنهار فتزوجها(٤) ويمكن الإشارة فى هذا الصدد إلى اعتماد الرميكية التى

---

(١) وثائق فى الطب الإسلامى ، ص٥١ .

(٢) نفس المصدر ص٥٤ .

(٣) طوق الحمامة ؛ ص٨٠ .

(٤) ابن حزم : رسالة نقط العروس ص٦٩ .

كانت جارية خدمة لرميك بن حجاج ، رآها المعتمد بن عباد على ضفة النهر مع الغسالات وأعجب بها بعد أن أجازت له شطر بيت من الشعر عجز الشاعر ابن عمار عن أجازته فاشتراها المعتمد من مولاها رميك وأعتقها وتزوجها(١) .

كانت جوارى المعتة يحظين برغد العيش تخدمهن جوارى الخدمة الشغالات فكن فى ذلك لايختلفن عن الحرائر إلا من حيث الخلفية الشرعية لكل منهن ولقد كانت الجارية التى أهداها هشام بن عبد الرحمن إلى أخيه الأمير محمد بن عبد الرحمن تخدمها جاريتان عند هشام فلما حلت بقصر الأمير محمد أفرد لها مجلساً خاصاً ووكل بخدمتها القهرمانة مع عدة رواشد من الجوارى(٢) ولم تكن جوارى الخدمة دائماً أقل جمالاً من السرارى بل كان من جوارى الخدمة من هن أكثر جمالاً فى بعض الأحيان ، فقد أهدى يوسف الفهرى إلى معاوية بن صالح جارية تدعى " خلة " فأولدها معاوية وكانت خلة المذكورة قبيحة بينما كانت لها خادم فائقة الحسن تدعى سعاد فصار الناس يضربون بها المثل ويقولون : شتان مابين خلة وسعاد(٣) .

تفاوتت أثمان الجوارى تبعاً للعرض والطلب من ناحية ومن ناحية أخرى حسب مواصفات الجارية ومواهبها وقدراتها الشخصية وإذا كان الدكتور حسين مؤنس يذهب إلى أن الجوارى الأندلسيات كن غاليات الثمن(٤) استناداً إلى ماورد عن الأصطخرى من أن الجارية الأندلسية من غير صناعة

---

(١) ابن الآبار: المصدر السابق جـ٢ ص٦٢ . والمقرى : المصدر السابق جـ٥ ص٣٤٣.

(٢) ابن حيان : المقتبس ، نشر مكى ص٢١٦ .

(٣) الخشنى : قضاة قرطبة ص١٩ .

(٤) فجر الأندلس : ص٤٢١ .

كانت تأخذ ثمناً ألف دينار أو أكثر(١) فهناك من النصوص مايثبت غير ذلك ، فقد حدد ابن العطار ثمن وخش الجوارى بما دون الستين ديناراً وثمن المرتفعات منهن بما يزيد على ذلك ، ولما كان العرض يزيد على الطلب كان ثمن الجوارى ينقص كثيراً ، ففى أيام المنصور بن أبى عامر الذى" ملأ الأندلس غنائم وسبياً من بنات الروم وأولادهم ونسائهم " ولقب لذلك بالجلاب، رخصت أثمان الجوارى حتى أنه نودى على ابنة عظيم من عظماء الروم فى معرض قرطبة - وكان ذات جمال رائع - فلم تساو أكثر من عشرين دينار عامرية(٢) وارتفعت أثمان الجوارى فى الأندلس أحياناً أخرى ، فقد عوض الأمير محمد أخاه هشاماً عن الجارية التى تنازل له عنها بعشرة آلاف دينارا ، وابتاع المنصور بن أبى عامر أم ولده عبد الله متجاوزاً النهاية فى ثمنها(٣) واشترى ابن رزين صاحب السهلة جارية ابن الكتانى المتطبب بثلاثة آلاف دينار(٤) ولاشك أن هاتيك الجوارى غاليات الأثمان كن ذوات مواصفات وقدرات متميزة ، فقد كانت جارية ابن الكتانى المشار إليه " واحدة القيان فى

---

(١) مسالك الممالك ص٢٤٥ .

- لعل الأصطخرى يقصد ثمن الجوارى الأندلسيات فى المشرق فمن الطبيعى أن يغلو ثمنهن هناك لغلو تكلفة جلبهن إلى المشرق وبالمثل كانت الجوارى المشرقيات غاليات الثمن فى الأندلس حتى أن محمد بن موسى الرازى جد الرازى المؤرخ جلب إلى الأندلس جارية مشرقية لايقدر على ثمنها إلا الملوك على نحو مايفهم من ابن حيان (المقتبس ، نشر مكى ص ص ٢٦٧ - ٢٦٩) .

(٢) ابن عبد الواحد المراكش : المصدر السابق ، ص٣٨.

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ٢ ص ٢٨٥.

(٤) ابن بسام : الذخيرة ٣/١ ص١١٢ .

- يعد ابن بسام ابن الكتانى أول من بالغ فى ثمن القينات بالأندلس .

وقتها لانظير لها فى معناها ، لم ير أخف منها روحاً ولا أملح حركة ولاألين إشارة ولاأطيب غناء ولا أجود كتابة ولا أملح خطاً ولا أبرع أدباًولا أحضر شاهداً على سائر ما تحسنه وتدعيه مع السلامة من اللحن فيما تكتبه وتغنيه إلى الشروع فى علم صالح من الطب ينبسط بها القول فى المدخل إلى علم الطبيعة وهيئة تشريح الأعضاء الباطنة وغير ذلك مما يقصر عنه كثير من منتحلى الصناعة إلى حركة بديعة فى معالجة صناعة الثقاف واللعب بالسيوف والأسنة والخانجر المرهفة وغير ذلك من أنواع اللعب المطربة لم يسمع لها بنظر ولابمثل ولاعديل "(١) .

ولم تكن هذه الجارية فريدة فى بابها فقد كان ابن الكتانى المشار إليه يقوم على تعليم القيان وتدريبهن ليصلن إلى المستوى الذى وصلت إليه جاريته التى باعها لابن رزين ، وقد ذكر ابن الكتانى عن نفسه :"فى ملكى الأن أربع روميات كن بالأمس جاهلات وهن الأن عالمات حكيمات منطقيات فلسفيات هندسيات موسيقيات أسطر لابيات معدلات نجوميات نحويات عروضيات أديبات خطاطيات تدل على ذلك لمن جهلهن الدواوين الكبار التى ظهرت بخطوطهن فى معانى القرآن وغريبة وغير ذلك من فنون وعلوم العرب من الأنواء والأعاريض والأنحاء وكتب المنطق والهندسة وسائر أنواع الفلسفة وهن يتعاطين إعراب كل ما ينسخنه ويضبطه فهماً لمعانيه ولكثرة تكرارهن فيه"(٢) .

وكانت المرأة الأندلسية تتمتع بقسط وافرمن الحرية الاجتماعية لم تسنح للكثيرات من معاصراتها فى البلدان الأخرى ، وكانت كثيرات من الأندلسيات

---

(١) نفس المصدر ١/٣ ص٣٢٠ .

(٢) نفس المصدر نفس الصفحة .

سافرات غير محتجبات تستوى فى ذلك الحرائر والإماء حتى صعب التمييز بينهن فى كثير من الأحيان ، تدل على ذلك شواهد تاريخية عديدة منها ماروى عن نظر الرجال إلى نساء فى المنتزهات والمتفرجات الأندلسية وغيرها من الأماكن التى يختلط فيها الأندلسيون بالأندلسيات مثلما ذكر عن الرمادى الشاعر القرطبى إذ خرج للتريض يوم جمعة عقب الصلاة فاجتاز باب العطارين الذى كان مجتمع نساء قرطبة - على قول ابن حزم - فرأى جارية(*) أخذت بمجامع قلبه وتبعها فاجتازت القنطرة إلى الربض حتى صارت إلى رياض بنى مروان المبنية على قبورهم فى مقبرة الربض خلف الوادى الكبير فسلم عليها فردت عليه السلام وجاذبها أطراف الحديث وسألها أحرة هى أمة فأدعت أنها أمة تسمى " خلوة " لكنه اكتشف بعد حين أنها حرة وأنها أخت لأحد أخوانه(١) ويعج طوق الحمامة لابن حزم بأمثلة عديدة تظهر فيها النسوة سافرات ولذلك شدد أهل الحسبة على منع اختلاط النساء بالرجال فى الأعراس وفى المآتم(٢) وفى الصلاة والأعياد والمحافل(٣) وما إلى ذلك من مواضع أو مناسبات تخرج إليها المرأة الأندلسية وقد أشار المقرى إلى

(*) الجارية لغة هى الفتية من النساء " وقيل للأمة جارية على التشبية لجريانها مستسخرة فى أشغال مواليها ثم توسعوا حتى سموا كل أمة جارية وإن كانت عجوزاً لاتقدر على السعى" (المصباح المنير للفيومى) ويرى الطاهر مكى (المرجع السابق ص٢٦٢) أن كلمة جارية كانت تطلق فى قرطبة على الفتيات والشابات من الحرائر أيضاً .

(١) ابن حزم : طوق الحمامة ص٢٢ . وابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ١٤٥٢/٤٩٣ . والحميدى : جذوة المقتبس ص ص ٣٧١ - ٣٧٢ .

(٢) ابن عبدون : المصدر السابق ص٣٥ .والجرسيفى : المصدر السابق ص١٢١ .

(٣) ابن عبد الرؤف : المصدر السابق ص٧٤ .

خروج المرأة الأندلسية إلى الجامع خاصة فى المناسبات الدينية وروى أن امرأة من بنات أجلاء قرطبة قد كملت حسناً وظرفاً خرجت إلى الجامع ليلة السابع والعشرين من رمضان (ليلة القدر) ومعها طفل يتبعها وجوارى تحف بها(١) وكانت للنساء فى الجامع مقاصير خاصة بهن(٢) .أما عن خروج المرأة إلى المتنزهات ففضلاً عما ذكرنا عن خلوة والشاعر الرمادى فقد ذكر ابن حزم أن صديقاً له من أهل النباهة تنزة يوماً مع جارية كان يتعشقها منذ أيام صباه فتمشى معها فى البساتين وأبعدوا عن الديار وانبسطوا على الأنهار(٣) وكانت المرأة الأندلسية لاتتحرج عن ممارسة كل ماهو متاح لها من صنوف اللهو إذا خرجت للتنزة خاصة إذا لم تكن فى صحبة الرجال ، من ذلك أن حمدة الواد ياشية خرجت إلى الوادى مع صبية فنضت عنها ثيابها وعامت فى النهر(٤) .ونتيجة لما كان يحدث فى تلك المتنزهات من مجون رأى أهل الحسبة منع النساء من الخروج إليها(٥) .

وكانت المرأة الأندلسية تخرج إلى الأسواق ، وقد تتعرض لبعض المضايقات مثلما وقع من ابن قزمان ذات مرة مع إحدى الماجنات فاستدرجته حتى تبعها إلى سوق الصاغة بأشبيلية فجعلت منه موضعاً للسخرية والتهكم(٦)

---

(١) المقرى : المصدر السابق ، جـ٤ ص٢٤٨ .

(٢) عياض : المصدر السابق ،جـ٢ ص٥٤٤ .

(٣) ابن حزم : المصدر السابق ، ص٦٥ .

(٤) المقرى : المصدر السابق ، جـ ص٦٧ . وابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات جـ١ ص٣٩٤ .

(٥) ابن عبدون : المصدر السابق ص٥٧ .

(٦) المقرى : المصدر السابق ، جـ٢ ص٧٦ .

وخرجت المرأة الأندلسية أيام العيد لأكثر من غرض(١) لذلك نهى أهل الحسبة عن اختلاطهن بالرجال فى أيام العيد وعدم مزاحمتهن عند جواز النهر(٢) وخرجت أيضاً إلى الحمامات العامة التى كان بعضها مخصصاً للنساء طيلة أيام الأسبوع وبعضها الآخر يخصص للنساء بعض أيام الأسبوع، وكانت المرأة تنتهز تلك الفرصة للتأنق فتعنى بملابسها وتتزين مستخدمة الكحل والحناء والعطور(٣) لذلك نهى أهل الحسبة عن جلوس متقبل الحمام للنساء(٤) وكانت المرأة الأندلسية تخرج لمشاهدة المواكب مثلماخرجت النساء لمشاهدة موكب الجند الذين أرسلهم الخليفة الناصر بقيادة صاحب الشرطة أحمد بن يعلى إلى أفريقية فى الثامن من المحرم سنة ٣٤٧هـ لكن العامة سخروا من الجند يومذاك وقلدوا مشيتهم فوقعت اضطربات اعتدى فيها على بعض النساء فأصابهن مكروه وتمزقت ثيابهن وانخدش حيانهن فتوارين فى الزرع الكثيف حتى تفرق الناس بعد انفضاض الموكب(٥) .

وكانت المرأة الأندلسية تقيم احتفالات خاصة يقتصر حضورها علىالنساء والصبيان ، فقد ذكر ابن حزم أنه كان فى دارهم مصطنع " لبعض ما يصطنع له فى دور الرؤساء تجمعت فيه دخلتنا ودخلة أخى من النساء ونساء فتياننا ومن لاث بنا من خدمنا ممن يخف موضعه ويلطف محله فلبثن

---

(١) يقول ابن قزمان فى ديوانه :

كل وجه مزين ليلة العيد براً　　　دا احفال الفجايع ودا احتفال المسرا .

(٢) ابن عبدون : المصدر السابق ص٤٧ .

(٣) محمد لبيلى : الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى أشبلية فى عصر بنى عباد ص١٦٠.

(٤) ابن عبدون : المصدر السابق ص٤٩ .

(٥) ابن عذارى : المصدر السابق جـ٢ ص٢٢٢ .

صدراً من النهار ثم تنقلن إلى قصة كان فى دارنا مشرفة على بستان الدار ويطلع منها على جميع قرطبة وفحوصها مفتحة الأبواب فصـرن ينظـرن من خلال الشراجيب ... ثم نزلن إلـى البستان " ويضيف ابن حزم أن السيدات طلبن أن يسمعن غناء جارية كان لها محباً فى صباه فأمرتها سيدتها فأخذت العود وسوته ثم غنت بأبيات للعباس بن الأحنف(١) .

وكانت المرأة الأندلسية تستطيع التعبير عن مشاعرها العاطفية(٢) وفى طوق الحمامة لابن حزم أمثلة كثيرة علـى ذلك منها أن "امرأة سرية النشأة عالية المنصب غليظة الحجاب" رأت فتى من أبناء الكتاب مجتازاً أمام منزلها فهامت به وهام بها وتبادلا المراسلة(٣) وفتاة من ذوات المناصب والشرف من بنات القواد بلغ منها حب فتى من أبناءالكتاب مبلغ هيجان المرار الأسود واشتهر الأمر وذاع حتى علمه الأباعد إلى أن تدوركت بالعلاج (٤) وجارية اشتد وجدها بفتى من أبناء الرؤساء كانت لاتحجب عنه فعرضت له بالشعر فلمم يفطن لوجدها به حتى عيل صبرها فبادرت إلى تقبيلة فى فمه فبهت من المفاجأة لكنها نجحت فى أن تشعل حبه لها(٥) .

لم تكن النساء الأندلسيات كلهن من المقصورات اللائـى يلزمن بيوتهن وإنما كانت كثيرات منهن عاملات يطلبن أرزاقهن كالطبيبة والحجامة والدلالة

(١) طوق الحمامة ، ص ص ١٠٩ - ١١٠ .
(٢) الطاهر مكى : المرجع السابق ص٢٦٥ .
(٣) ابن حزم : المصدر السابق ص٢٤ .
(٤) نفس المصدر ص١٠٤ .
(٥) نفس المصدر : ص ص ٦١ - ٦٢ .

والماشطة والنائحة والمغنية والمعلمة والصناع فى الغزل والنسيج(١) ومن ناحية أخرى لم تكن كل العاملات سافرات بل كان منهن المحجوبات اللاتى يعملن داخل بيوتهن طلباً للرزق أو زهداً فى الرفة والنعيم ، من ذلك أن امرأة القاضى مصعب بن عمرن - وكانت أختاً لزوجة الأمير عبد الرحمن الداخل - كانت تنسج فى بيتها على منسج لها وكان زوجها يساعدها - قبل تولية القضاء على الأقل - فى العمل عليه(٢) . وكانت امرأة بكار المروانى وابنته تعينانه على العيش بما يغزلانه ولما خرج إلى الجهاد واستشهد فيه لم يسمحا لأحد أقاربه أن يدخل دارهما وأخبرته ابنة بكار من خلف الباب بأن العجائز يرعونهما ويتفقدن أحوالهما ويبعن غزلهما(٣) .

وإذا كانت بعض الأندلسيات قد حرصن على حجابهن فقد بالغت أخريات فى السفور وربما تردت بعضهن إلى هاوية الدعارة ويعتقد بعض الدارسين أن المدن الأندلسية عرفت " بيوت الحظوة " وأن زبائنها كانوا من دهماء المدينة أو من الريفيين القادمين إلى المدينة لقضاء مصالحهم ، وكانت بيوت الحظوة هذه - فيما يبدو - معترف بها رسمياً فى الأندلس وتسمى دور الخراج من تسكنها من البغى تسمى خراجية وتدفع للدولة ضرائب مقرره ، ودار الخراج - فى رأيهم - هى التى يسميها ابن عذارى دار البنات(٤) لكننا نفهمم أن ابن عذارى يعنى بدار البنات معرض بيع الجوارى لادار الخراج(٥)

(١) نفس المصدر ص٣٥ .
(٢) الخشنى : المصدر السابق ص٢٤ .
(٣) المقرى : المصدر السابق حـ٤ ص٣١٧ .
(٤) الطاهر مكى المرجع السابق .
(٥) البيان المغرب جـ٣ ص٨١ يقول :
" وسبى نساؤهم وباعوهن فى دار البنات " .

ويبدو أن دور الخراج كانت ملحقة بالفنادق التى ينزلها الغرباء ولذلك نهى ابن عبدون " نساء دور الخراج عن كشف رؤوسهن خارج الفندق والتجلى للنساء بزينتهن "(١) ويبدو أن بعض الخراجيات كان لهن نفوذهن ، فقد ذكر ابن حزم فى معرض نقد الجهر بالمعاصى واللذات أن عبد الرحمن الناصر أركب رسيس بقلنسوة وسيف مكشوفة فى موكبة "ورسيس هذه كانت امرأة من دار الخراج رقيقة مهيبة اتصلت بالناصر وخفت عليه(٢) ويبدو أن ابن حيان لم يعجبه - وهو الأموى الميول - أن يتسقط ابن حزم معايب الناصر فأشار إلى أنه قد عارض جميع ماظهر للناس وحملته نقلة أخبارهم من محاسن الخليفة الناصر فذكر أنه" استركب رسيس الماجنة مضحكته فى موكب بسيف وقلنسوة وهى عجوز سوء فاجرة"(٣) .

ويبدو وأن المجون لم يكن قاصراً على محترفات البغاء بل كان بعض العابثين من الرجال يستأجرون بيوتاً للعبث والمجون يستدرجون إليها النساء خاصة فى أطراف المدن التى تطل على الريف(٤) .

---

(١) رسالة فى القضاء والحسبة ص٥٠ .

(٢) نقط العروس ، ص٧٦ .

(٣) المقتبس ، جـ٥ ص٣٧ .

(٤) ابن سعيد : المصدر السابق جـ١ ص٢٨٢ .

- عن عبد الله بن حاطب الزجال الأشبيلى قال :

كن صبيان ودارت الأحوال
والتحينا وصرنا ذناب رجال
وكن اكريت ذويد من إنسان
بر باعى سكنت فيه زمان

أما عن ملابس المرأة الأندلسية وأزيائها فقد كانت متأنقة فيهــا وتتوخـى التناسق بين أجزائها فإذا ارتدت مقنعاً عراقياً فإنها ترتدى معه ثوباً ورداء مـن جنسـه(١) وكـان مـن ملابسـها الجبـاب(٢) والحـانك الـذى يعـرف بالملحفــة(٣) والقفطان الذى تضع فوقه عادة حزامـاً مصنوعـاً مـن الحريـر أو الصـوف(٤) وكانت تلبس أيضاً السراويل(٥) والقمصان(٦) وكان بعض القمصان يرق حتى يلتصق بجسد المرأة ويأخذ شكل طياته فـلا يكـاد يفـرق بينـه وبيـن جسـدها(٧) وترتـدى المـرأة مثـل هـذا القميـص إثـارة لرجلهـا أو ترتـدى لـه غلالـة رقيقـة

ثــم قــال لــى — تــزن ثـلاث أثمــان
ونـــزن لـــو — ولــو طلب متقــال
إن فيــه حنــى — أمـام الســريــر
وعقابيــا مليــح — يجنـــب البيـــر
وقصـيبـــــا — عليهـــا بـــاب كبيــر
تكشــف الفحــص — مــن ثــلاث أميــال
والربض لاشيــوخ — ولاحجــــاج
وأرامــل مــلاح — بــــلا أزواج
ويجونى طول النهار — عـــن حـــواج
واشيـــات لــس — ينبغـــى أن تقــال

(١) الخشنى : المصدر السابق ص٩٦ .

(2) Dozy . Dict . Det . des Noms des Vetements . p . 113

(3) Ibid . pp . 147 - 148

(٤) محمد البيلى : البربر فى الأندلس ص١٦١ .

(٥) ابن سهل : وثائق فى أحكام القضاء الجنائى ص٦٣ .

(٦) ابن حزم : طوق الحمامة ص٦١ .

(٧) المقرى : المصدر السابق ، جـ٦ ص٢٢١ .

حمراء مثلما فعلت جارية لسعيد بن جودى حين عرضت له ذات صباح فى غلالة حمراء وهى تتثنى فى حركتها لتأخذ عليه الطريق(١) وكانت بعض ألبسة النساء من النسيج الموشى بالذهب أو ذى ألوان عجيبة(٢) وكانت المرأة تغطى رأسها بأغطية تسمى الخمر وأخرى تسمى المعاجر(٣) .

وتكتمل زينة المرأة عادة بما ترتدية من حلى ، وكان من حلى المرأة الأندلسية العقود والخواتم ، ومن العقود مازاد ثمنه على ثلاثة آلاف دينار(٤) وقد يصل أحياناً إلى، عشرة آلاف دينار بل قيل أن عبد الرحمن الأوسط أعطى حظيته طروب عقداً بلغ ثمنه مائة ألف دينار فلما قيل له إن مثل هذا العقد لاينبغى أن يخرج من خزانة الملك قال إن لابسة أنفس منه خطراً وأرفع قدراً وأكرم جوهراً وأشرف عنصراً(٥) ومالت المرأة إلى الخواتم ذات الأشكال الغريبة التى يتفنن الصاغة فى صوغها(٦) وارتدت المرأة الأندلسية الأقراط فى أذنيها(٧) وكانت تتكلف فى حركتها وفى كلامها لتلفت أنتباه الرجل إليها(٨) وكان من بعض وسائلها فى ذلك ارتداء نوع من الأحذية الصرارة التى تحدث أصواتا تلفت انتباه الرجل ولذلك نهى أهل الحسبة الخرازين عن

---

(١) نفس المصدر ، جـ٦ ص١٥٧ .

(٢) نفس المصدر جـ١ ص١٩٠ .

(٣) محمد عبد العزيز مرزوق : الفنون الزخرفية فى المغرب والأندلس ص١٢٤ .

(٤) أخبار مجموعة ص١١١ .

(٥) المقرى : المصدر السابق جـ١ ص٣٣٣ .

(٦) نفس المصدر ، جـ٦ ص٧٦ .

(٧) الخشنى : المصدر السابق ، ص٦٣ .

(٨) طوق الحمامة ، ص١٢٥ .

صنع الخفاف الصرارة للنساء لأنهن يلبسنها لأحداث تلك الأصوات فى الأسواق ومجامع الرجال(١) وأختصت الأندلسيات فى بعض نواحى الأندلس بعادات محلية تختص بها كل جهة على حدة ، مثال ذلك أن النساء فى أقليم " لماية " من كورة " رية " كن يمارسن عادة اجتماعية خاصة بهن هى اختبار العذارى بالتعرض لمياه تسقط من منخر تمثال بصورة إنسان كان يوجد بسند جبل متصل بوادى لماية ، فكانت العذراء منهن تضع يدها يحذاء المثال " فإن كانت بكراً قطر الماء فى يدها وإلا لم يوافق يدها ولو جهدت هذا عند أهل الناحية مستفيض وأخبر به الثقات"(٢) .

المرأة الأندلسية والحركة الفكرية :

كان للمرأة الأندلسية باعتبارها نصف المجتمع الأندلسى دور فعال فى الحياة الفكرية فى الأندلس وأسهمت فيها إسهاما يصعب تجاهله وليس ذلك بغريب فقد كان للحرية الاجتماعية التى تمتعت بها المرأة الأندلسية من ناحية واهتمام ذويها بتعليمها من ناحية أخرى فضلاً عن قدوم كثيرات من المشرقيات إلى الأندلس وخروج كثيرات من الأندلسيات إلى المشرق كبير الأثر فى اعداد المرأة الأندلسية للاسهام بدور هام فى الحياة الفكرية .

كان الاهتمام بتعليم المرأة فى الأندلس يفوق مثيله فى البلدان الأخرى ، وعلى حد تعبير خليان ريبيرا ، كانت العوائق دون تقدير تعليم المرأة ، أقل مما كانت عليه فى البلاد الأخرى(٣) ويضيف ريبيرا أن الأندلسيين كانوا

---

(١) يحى بن عمر : كتاب أحكام السوق ص١٢٦ .

(٢) ابن عبد المنعم الحميرى : المصدر السابق ص١٧٠ .

(٣) التربية الإسلامية ص١٦٠ .

يبعثون بالفتيات إلى التعليم الأولى منذ الصغر لكى يتعلمن نفس المواد التى يتعلمها الصبيان عادة وكان بعضهن يواصلن التعليم العالى ويحصلن على نفس الأجازات التى يحصل عليها الرجال ، فدرس بعضهن الفقة والقراءات والسنة وهى دراسة كانت تؤهل صاحبتها لاحتراف مهنة التعليم وأخريات درسن الأدب والخطوط وهى دراسة كانت تؤهل صاحبتها لتتبوا منصباً فى ديوان الكتابة(١) وفى رأى ريبيرا أيضاً أن تعليم المرأة الأندلسية بلغ حداً واسعاً من الانتشار وأنها بلغت قدراً عاليا من التعليم دون تفرقة بين جنس الفتيات فحتى النساء السودانيات اللائى عشن فى الأندلس يمكن أن يتخذ منهن مثلاً للمرأة الأندلسية المتعلمة مثل إشراق التى عرفت باسم " العروضية " وكانت - على غير ما ظن سيمونيت - جارية سوداء(٢) .

وقامت المرأة الأندلسية بدورها الطبيعى فى تربية النشىء وتعليمه خاصة فى مرحلة الطفولة المبكرة التى تسبق الذهاب إلى الكتاتيب والتردد علىالمشايخ للسماع منهم والتلقى عنهم، ويعبر ابن حزم فى وضوح عن دور المرأة الفعال فىتربيته وتعليمه فيقول " ربيت فىحجورهن ونشأت بين أيديهن ولم أعرف غيرهن ولاجالست الرجال إلا وأنا فى حد الشباب وحين تفيل وجهى وهن علمننى القرآن وروييننى كثيراً من الاشعار ودربننى فى الخط(٣).

وشاركت المرأة الأندلسية فى مختلف جوانب الحياة الفكرية ، ففى العلوم النقلية كان من الأندلسيات محدثات وفقهيات وقارئات ، فمن المحدثات

(١) نفس المرجع ، نفس الصفحة .
(٢) نفس المرجع ، ص ص ١٦١ - ١٦٢ .
(٣) طوق الحمامة ، ص٥٠ .

كانت عابدة المدينة أم ولد حبيب بن الوليد المراونى المعروف بدحون وكانت جارية سوداء من رقيق أهديت لدحون فأعجب بعلمها وفهمها فاتخذها أم لولده، وكانت تروى عن مالك بن أنس وقيل أنها كانت تروى عشرة آلاف حديث(١) وخديجة بنت جعفر بن نصير التمار التميمى زوج الفقية عبد الله ابن أسد ، حدثت عن زوجها بموطأ العقنبى قراءة عليه بلفظها فى أصله وقيدت فيه سماعها بخطها فى سنة ٣٩٤هـ(٢) . وراضية مولاة عبد الرحمن الناصر ، أعتقها الحكم المستنصر عن أبيه وتزوجها لبيب الفتى وحجا معاً سنة ٣٥٣هـ وكانا يقرآن ويكتبان ، دخلا الشام ولقيا بمصر ابن سفيان القرطى ونظراءه ، روى عنها أبو محمد بن خزرج وقال عندى بعض كتبها ، توفيت سنة ٤٢٣هـ عن ١٠٧ عام(٣) وخديجة بنت أبى محمد عبد الله بن سعيد الشنتجيالى ، سمعت مع أبيها من الشيخ أبى ذر الهروى صحيح البخارى وغيره ، وشاركت أباها فى السماع من شيوخ مكة ثم قدمت إلى الأندلس حيث توفيت(٤) . ويمكن أن نضيف إليهن أمة الرحمن بنت أحمد بن محمد بن خزرج ، كانت صوامة قوامة ، لم تنكح قط ، توفيت سننة ٤٤٠هـ عن نيف وثمانين سنة(٥) .

---

(١) المقرى : المصدر السابق جـ٤ ، ص١٣٧ .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ٦٩٣/١٥٣٢ .

(٣) نفس المصدر ، ٦٩٣/١٥٣٤ .

(٤) نفس المصدر ، ٦٩٦/١٥٣٩ .

(٥) نفس المصدر ،٦٩٤/١٥٣٥ .

وخليان ريبيرا : المرجع السابق ص١٦٢ .

ومن الفقيهات فاطمة بنت يحى بن يوسف المغامى أخت الفقية يوسف ابن يحى ، كانت خيرة فاضلة عالمة فقيهة ورعة ، استوطنت قرطبة وبها توفيت ودفنت بالربض ولم ير على نعش امرأة مثلما رؤى على نعشها من اجتماع الناس(١) وأم الهناء بنت القاضى أبى محمد عبد الحق بن عطية سمعت من أبيها وكانت حاضرة النادرة من أهل العلم والفهم والعقل ولها تأليف فى القبور(٢) أما القارئات فكانت منهن ريحانة التى قرأت القرآن بالمرية على أبى عمرو عثمان بن سعيد المقرئ الذى كان إمام وقته فى الأقراء ، وكانت ريحانة تقعد خلف ستر فتقرأ ويشير لها بقضيب بيده إلى المواقف حتى أكملت عليه القراءات السبع(٣) . وجملة القول إن إقبال المرأة الأندلسية على العلوم النقلية كان كبيراً حتى " كان بالربض الشرقى من قرطبة مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفى ، هذا ما فى ناحية من نواحيها فكيف بجميع جهاتها "(٤) .

وشاركت المرأة الأندلسية فى اللغة العربية والأدب ، ففى مجال اللغة كان للمرأة الأندلسية دور غير مباشر فى ازدواجية اللغة فى المجتمع الأندلسى إذا أسهم الزواج المختلط وما أنجبه من مولدين متأثرين بأمهاتهم من ناحية ووفرة الجوارى على اختلاف أصولهن العرقية من ناحية أخرى فى ظهور لغة عاميةأندلسية كانت خليطاً من العربية واللاتينية عرفت بالرومانثية Romance وكان الأندلسيون يسمونها اللطينية أو عجمية أهل الأندلس(٥) .

---

(١) ابن الفرضى : المصدر السابق ٥٤٧/١٥٩٦ .

(٢) المقرى : المصدر السابق جـ٦ ص٧٢ .

(٣) ابن الفرضى: المصدر السابق ٥٤٦/١٥٩٥ .والضبى: المصدر السابق ٤١١/١١٨٦.

(٤) ابن عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ص٣٧٢ .

(٥) أحمد مختار العبادى:المرجع السابق ص١٠٠، والطاهر مكى:المرجع السابق ص٣٠.

وقد كانت تلك اللطينية لغة التخاطب اليومى وشاعت بين الأندلسيين حتى كان عدم إحسان بعضهم لها بمثابة الاستثناء على القاعدة ويلفت إليه الانتباه مثلما لاحظ ابن حزم أن البلويين الذين كانوا فى الموضع المنسوب إليهم بشمال قرطبة " لايحسنون الكلام باللطينية لكن بالعربية فقط نساؤهم ورجالهم "(١) . ويمكن القول إن تأثير المرأة الأندلسية الذى كان عاملاً من أهم عوامل ظهور العامية الأندلسية المعروفة باللطينية قد امتد إلى ماهو أبعد من ذلك فقد أنتجت العامية أنماطاً تعبيرية كان أبرزها " الزجل " الذى اتخذ من الحياة اليومية الأندلسية أهم موضوعاته على النحو الذى يظهر فى أزجال ابن قزمان كبير الزجالين الأندلسين .

وإذا جاز أن يكون للمرأة الأندلسية دور فى ظهور الزجل على النحو الذى ذهبنا إليه فقد كان أثرها على الموشح أقوى وأوضح ، إذ ظهر الموشح كشعر غنائى عاطفى ذى طبيعة خاصة ونظام متميز(٢) وكان الغزل أو العلاقة العاطفية بين الرجل والمرأة أهم موضوعات الموشح الأندلسى مما جعله يدين للمرأة الأندلسية بشئ من دواعى ظهوره .

وظهر تأثير المرأة الأندلسية فى الأدب الأندلسى أيضاً فى ظهور موضوعات أدبية لم تكن لتظهر بمعزل عن المرأة مثل الكتابة فى الحب أو العلاقة العاطفية بين المرأة والرجل على النحو الذى قدمه لنا ابن حزم فى كتابه " طوق الحمامة " وهناك من يعترف بأن هذا النوع من الكتابة فضلاً عن الموشح الأندلسى كان له تأثيره على جماعة التروبادور(٣) وإذا صح ذلك

(١) جمهرة أنساب العرب ص٤١٥ .
(٢) جب: الأدب (من تراث الإسلام) ص١٦٧ .
(٣) نفس المرجع ، ص١٦٦ .

فإن تأثير المرأة الأندلسية لايكون قد اقتصر على الأدب الأندلسى وإنما امتد إلى آداب أخرى خارج الحدود الأندلسية .

لم يقتصر دور المرأة الأندلسية فى مجال الأدب على ماسبق وإنما شاركت فى الحركة الأدبية مشاركة فعلية ، ويرى البعض أنها اتجهت إلى المواد التى اعتقدت أنها أكثر مناسبة وتجعل من المرأة أكثر لطفاً مثل الأدب والشعر والموسيقى(١) ومن ثم كان من الأندلسيات أديبات وشاعرات مثل حسانة التميمية بنت أبى المخشى الشاعر ، تأدبت وتعلمت الشعر وكتبت إلى الحكم الربضى شعراً بعد وفاة أبيها فاستحسنه الحكم وأجرى عليها راتباً وكتب إلى عامله على إلبيرة أن يجهزها بجهاز حسن ثم وفدت بعد الحكم إلى ابنه عبد الرحمن الأوسط تشكو إليه جابر بن لبيد عامل البيرة فاحسن عبد الرحمن معاملتها مثلما فعل أبوه من قبل(٢) وأم السعد بنت عصام الحميرى المعروفة بسعدونة ، قرطبية ، لها رواية عن أبيها وجدها وكانت تنشد الشعر(٣) ومزنة كاتبة الخليفة الناصر كانت أديبة حاذقة من أخط النساء توفيت سنة ٣٥٨هـ(٤) ولبنى كاتبة الخليفة الحكم المستنصر التى كانت نحوية شاعرة بصيرة بالحساب مشاركة فى العلم ، وعروضية خطاطة حسنة الخط ، توفيت سنة ٣٧٤هـ(٥) والغسانية الشاعرة البجانية كانت تمدح الملوك وهى

---

(١) خليان ريبيرا : المرجع السابق ، ص١٦٢ .

(٢) المقرى : المصدر السابق جـ٥ ص ص ٣٠٠ - ٣٠١ .

(٣) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(٤) ابن الفرضى : المصدر السابق ١٥٩٣/٥٤٦ . وابن بشكوال : الصلة ١٥٣٠/٦٩٢ .

(٥) ابن الفرضى : المصدر السابق ١٥٩٢/٥٤٦ . وابن بشكوال : الصلة ١٥٢٩/٦٩٢ .

من أهل المائة الرابعة(١) وحفصة بنت حمدون الحجارية ، من أهل المائة الرابعة ، أيضاً ممن يفخر بها بلدها وكان لها شعر كثير(٢) وعائشة بنت أحمد بن قادم ، قرطبية ، قيل إنها لم يكن فى الأندلس من تعدلها فى زمانها فهمًا وعلماً وأدباً وشعراً وفصاحة وعفة وجزالة وحصافة وكانت تمدح الحكام فى زمانها وتخاطبهم فيما يعرض لها فتبلغ ببيانها حيث لايبلغه كثير من أدباء وقتها ، ولم تكن ترد لها شفاعة وكانت حسنة الخط تكتب المصاحف وتجمع الكتب وتعنى بالعلم ولها خزانة علم كثيرة حسنة وماتت عذراء لم تنكح قط سنة ٤٠٠هـ(٣) ومريم بنت أبى يعقوب الفصولى الشلبى الأنصارى كانت أديبة شاعرة جزلة مشهورة ، كانت تعلم النساء الأدب وتحتشم لدينها وفضلها ، سكنت أشبيلية وعمرت طويلاً فشهرت بعد الأربعمائة(٤) وحمدونة بنت زياد المؤدب الواداياشية ، كانت أديبة شاعرة وكانت أختها زينب مثلها(٥) وصفية بنت عبدالله الريى،كانت أديبة شاعرة معروفةبحسن الخط (٦) وفاطمة بنت زكريا بن عبد الله الكاتب المعروف بالشيلارى مولى بنى أمية ، كانت كاتبة جزلة عمرت طويلاً وظلت على كبر سنها تكتب الكتب الطوال وتجيد الخط وتحسن القول توفيت بكراً سنة ٤٢٧هـ ودفنت بمقبرة أم سلمة وشهد جنازتها

(١) الحميدى : الجذوة ٤١٣/٩٨٧ . وابن الفرضى : المصدر السابق٥٤٤/١٥٨٨ . وابن بشكوال : الصلة ٦٩٦/١٥٣٨ .والمقرى : المصدر السابق جـ٥ ص٣٠٣ .

(٢) ابن سعيد : المصدر السابق جـ٢ ص٣٧ .

(٣) ابن بشكوال : الصلة ٦٩٢/١٥٣١ .

(٤) المقرى : المصدر السابق جـ٦ ص٧٠ .

(٥) ابن الفرضى : المصدر السابق ٥٤٥/١٥٩٠ ، والمقرى : المصدر السابق جـ٦ ، ص٩٦ . ويسميها ابن الآبار (المقتضب من تحفة القادم ص٢١٤) باسم حمدة .

(٦) الحميدى : الجذوة ٤١٢/٩٨٥ . والضبى : البغية ٤٤٣/١٥٨٦ .

خلق كثير(١) ويأتى بعدهن - وإن تأخرت نسبياً - إشراق العروضية مولاة الكاتب أبى المطرف عبد الرحمن بن غلبون ، سكنت مدينة بلنسية كانت قد أخذت عن مولاها النحو واللغة لكنها فاقته فى ذلك وبرعت فى العروض وكانت تحفظ الكامل للمبرد والنوادر للقالى وتشرحهما ، توفيت بدانية بعد سيدها فى حدود سنة ٤٥٠هـ(٢) وتعد ولادة بنت المستكفى أشهر الأندلسيات فى الشعر والأدب ، فقد كانت أديبة شاعرة جزلة القول مطبوعة الشعر تخالط الشعراء وتساجل الأدباء(٣) وكانت واحدة قريناتها حضور شاهد وحرارة اوابد وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر(٤) كان صالونها الأدبى يرتاده الرجال والنساء على السواء وهام بها كثير من الشعراء كابن زيدون الذى أنشد فى غرامها فرائد لامثيل لها وكانت من صاحباتها مهجة بنت التيانى القرطيبة التى كانت من أجمل نساء زمانها وأخفهن روحاً فعلقت بها ولادة ولزمت تأدبها إلى أن صارت شاعرة فانقلبت على ولادة وهجتها(٥) .

(١) ابن بشكوال : المصدر السابق ١٥٣٦/٦٩٤ .

(٢) المقرى : المصدر السابق جـ٥ ص٣٠٤ .

(٣) ابن الفرضى : المصدر السابق ١٥١٨/٥٤٧ .

(٤) ابن بسام : الذخيرة ١/١ ص٢٤٩ .

(٥) بلغ من هجوها إياها أن زعمت أن ولادة ولدت بغير بعل فقالت :

ولادة قـــد صـــــرت ولادة   من دون بعل فضح الكاتم

لكن ولادة لم تأبه لهذه الإشاعات وكانت تتيه بنفسها حتى أنها كتبت على ملابسها :

أنا والله أصـــلح للمعـــــالى   وأمشى مشيتى وأتيه تيهـا

وامكن عاشقى من صحن خدى   وأعطى قبلتى من يشتهيها

(ابن سعيد : المغرب جـ١ ص١٤٣ ، المقرى : النفح جـ٥ ص٣٣٧) .

وشاركت المرأة الأندلسية بدور هام فى الموسيقى والغناء فى الأندلس ، فقد كانت العجفاء جارية عبد الرحمن الداخل من أحسن الناس غناء بعث الداخل من اشتراها له من المشرق وحملها إليه(١) وإذا كانت الموسيقى الأندلسية قد شهدت طفرة كبرى على يد زرياب فى عصر عبد الرحمن الأوسط ، فقد أقام زرياب فى الأندلس مايشبه معهداً موسيقياً أو كونسرفاتورا عمل فيه على تطوير الآلات الموسيقية وتدريب القينات على الغناء(٢) فذاع صيت كثير من المغنيات من تلميذات زرياب من بناته وجواريه ، فقد كانت عليه وحمدونة ابنتى زرياب من المغنيات الموسيقيات " وكانت حمدونة متقدمة فى أهل بيتها محسنة لصناعتها متقدمة على أختها وهى زوجة الوزير هاشم ابن عبد العزيز وطال عمر عليه بعد أختها ولم يبق من أهل بيتها غيرها فافتقر الناس إليها وحملوا عنها"(٣) ومن جوارى زرياب غزالة وهند كانتا تتلقيان عنه ألحانه وأغانيه ويحفظنها(٤) كما كانت من جوارية متعة حظية الأمير عبد الرحمن الأوسط أدبها زرياب وعلمها أحسن أغانيه حتى شبت وكانت رائعة الجمال فأعجب بها الأمير عبد الرحمن الأوسط فأهداها إليه زرياب فحظيت عنده(٥) ومن تلميذات زرياب ، أيضاً مصابيح جارية الكاتب أبى حفص عمر بن قلهيل ، أخذت عن زرياب وكانت غاية فى

---

(١) المقرى : المصدر السابق جـ٤ ص١٤٠ . وهنرى فارمر : تاريخ الموسيقى العربية ص٢١٠ .

(٢) هنرى فارمر : المرجع السابق ص٢٠٣ .

(٣) المقرى : المصدر السابق ، جـ٤ ص ص ١٢٦ - ١٢٨ .

(٤) هنرى فارمر: المرجع السابق ص٢٠٣ .

(٥) المقرى : المصدر السابق جـ٤ ص١٢٨ . وهنرى فارمر : المرجع السابق ص٢١٠.

الإحسان والنبل وطيب الصوت(١) ومن المرجح أن تلميذات زرياب لم يكن يتعلمن منه الموسيقى والغناء فحسب بل تعلمن منه أيضاً أنماطاً حضارية مشرقية فى الأزياء والأطعمة مما كان له أثره فى الحياة الاجتماعية للمرأة الأندلسية .

امتلأ قصر عبد الرحمن الأوسط بالقينات المشهورات المجيدات فكان فيه جناحاً خاصاً بهن يعرف بدار المدنيات تسكنه القينات اللاتى تعلمن فى مدرسة المدينة وكانت مشهورة بتخريج القينات اللاتى يضرب بهن المثل ، واشتهرت من قينات دار المدنيات بقصر عبد الرحمن الأوسط فضل المدنية التى كانت مغنية حاذقة كاملة الخصال تعلمت الغناء ببغداد أولاً ثم فى المدينة المنورة فارتفعت طبقتها فى الغناء وابتيعت هناك لعبد الرحمن الأوسط مع قينة أخرى مدنية أيضاً تسمى " علم " وكانت ثالثتهم " قلم " التى كانت فى الأصل أندلسية بشكنسية أخذت إلى المشرق وهى صبية فتعلمت الغناء فى المدنية وحذقته وكانت مع ذلك أديبة ذاكرة حسنة الخط راوية للشعر حافظة للأخبار(٢) .

لم تنقطع سلسلة القينات المجيدات فى الأندلس فكانت منهن بزيعة جارية عثمان بن الأمير محمد التى عرفت بالإمام لأنها كانت واحدة زمانها فى التجويد والغناء(٣) وقمر جارية إبراهيم بن حجاج ، اشتراها من المشرق

(١) المقرى : المصدر السابق جـ٤ ص١٢٨ . وهنرى فارمر : المرجع السابق ص٢١٠.
(٢) المقرى : المصدر السابق جـ٤ ص١٣٧ .
(٣) ابن القوطية : تاريخ أفتتاح الأندلس ص١٢٦ .

لم يكن تعليم القينات قاصراًعلى الموسيقى والغناء وإنما كان تعليمهن أوسع من ذلك بكثير إذ كانت منهن من تحسن قراءة القرآن وتجويده وتنشد الشعر(١) مما يدل على سعة علمهن وتعليمهن .

وامتد تأثير المرأة الأندلسية إلى نواحى فنية أخرى مثل فن العمارة فقد أدى حرص بعض الأندلسيين على عدم اختلاط نسائهم بالغرباء إلى أشكال معمارية تخصص فيها أجنحة أو أدوار من المبانى الأندلسية للنساء(٢) كما أدى حرصهم على الترويح عن نسائهم إلى أن تضم الدور الأندلسية صحوناً تزدان بالغراسات لتكون متفرجاً للنساء ومتنفساً لهن ، وحرص الأندلسيون على أن تكون الواجهات الخارجية لدورهم مزدانة بالشراجيب التى تمكن المرأة من النظر إلى ما يجرى خارج الدار دون أن يراها أحد من المارة(٣) وفضلاً عن ذلك فقد كان لمشاركة كثيرات من الأندلسيات فى الانفاق على إنشاء بعض المساجد والأسبلة أثره فى إثراء الحركة المعمارية فى الأندلس : من ذلك على سبيل المثال نساء عبد الرحمن الأوسط اللائى أنشأن بقرطبة عدة مساجد(٤) بل نسبت إلى بعض النساء أحياء بأكملها مثل منية عجب والزهراء ونسبت مقبرة أم سلمة الكائنة بشمال قرطبة خارج سورها الشمالى إلى أم سلمة بنت محمد بن الحكم الربضى وكانت زوجة لابن عمها محمد بن عبد الرحمن (٥) .

---

(١) عياض : ترتيب المدارك جـ٢ ص٥٤٧ .

(٢) بلباس : الأبنية الإسلامية ص١٢٧ .

(٣) ابن حزم : طوق الحمامة ص١٠٩ . وبلباس : المرجع السابق ص١٢٤ .

(٤) مثل مسجد متعة .

(٥) ابن حزم : الجمهرة ص٨٦ ، وابن سهل : وثائق فى أحكام القانون الجنائى ص٧٥ .

لقد شاركت المرأة الأندلسية فى الحركة الفكرية الأندلسية مشاركة فعالة ومثمرة مثلما أسهمت فى الحياة السياسية والاجتماعية وكان لها شخصيتها المستقلة من الناحية القانونية وبإمكانها التقاضى أمام القضاء بشخصها أو بوكيل تنديه لينوب عنها(١) وكما كانت مدعية أحياناً كانت مدعى عليها أحياناً أخرى وقد يحكم عليها بأحكام مثل الحبس أو السجن لذلك كان للنساء سجن مستقل يراعى أن يكون القائم عليه شيخاً مزوجاً عفيفاً وتتفقد سيرته فيهن أو تحبس المرأة التى وجب عليها الحبس عند امرأة فاضلة خيرة قد عرف القاضى فضلها ويجعل لها أجرة على ذلك من بيت مال المسلمين(٢) .

وخلاصة القول إن المرأة الأندلسية كانت نصف المجتمع الأندلسى تشارك فيه بدور مؤثر فى مختلف جوانب الحياة الأندلسية لكن ذلك لم يمنع من وجود ما نسميه " عدو المرأة " مثل الشيخ القاضى أبو البركات محمد ابن أبىبكر البلفيقىالسلمىالذىوإن كان قد عاش فىعصر متأخر فى الأندلس(٣) إلا أن أمثاله كانوا فيما يبدو - كثيرين فى العصر الأموى فى الأندلس .

---

(١) ابن سهل : فى شئون العمران فى الأندلس ص٨٩ ، ص١١١ وأحكام القانون الجنائى ص١٠١ والخشنى: قضاة قرطبة ص١١٣ . والنويرى: نهاية الأرب جـ٢٣ ص٤٠١.

(٢) ابن عبدون : المصدر السابق ص١٩ .

(٣) ابن الخطيب : الكتيبة الكامنة ص١٣٣ . يقول البلفيقى :

قد هجوت النساء دهرا فلم ابلغ أدانى صفاتهن الذميمة .

مصادر البحث ومراجعه

أولاً : المصادر :

ابن الأبار : أبو عبد الله محمد بن أبى بكر القضاعى
- التكملة لكتاب الصلة ، تحقيق إبراهيم الابيارى ، القاهرة / ١٩٨٩
- الحلة السيراء ، تحقيق حسين مؤنس ، القاهرة / ١٩٨٥

ابن بسام : أبو الحسن على الشنترينى
- الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس، بيروت /١٩٨١

ابن بشكوال : أبو القاسم خلف بن عبد الملك
- الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس ، القاهرة ١٩٦٦

الثعالبى : أبو منصور عبد الملك
- تيمية الدهر ، القاهرة ، ١٩٣٤

الجرسيفى
- رسالة فى الحسبة من كتاب (ثلاث رسائل أندلسية) ، تحقيق ليفى بروفنسال ، القاهرة / ١٩٥٥

ابن حزم : أبو محمد على بن أحمد
- جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة / ١٩٦٢
- رسالة نقط العروس ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت / ١٩٨٧
- طوق الحمامة ، تحقيق حسن كامل الصيرفى ، القاهرة / ١٩٦٤

الحميدى : عبد الله محمد بن أبى نصر الأزدى
- جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس ، القاهرة / ١٩٦٦

ابن حيان :
- المقتبس من أنباء أهل الأندلس ، تحقيق محمود على مكى، بيروت/١٩٦٥

ابن الخطيب :

- أعمال الإعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، تحقيق ليفى بروفنسال ، القاهرة / ١٩٦٦

الخشنى : أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد القيروانى

- قضاة قرطبة ، القاهرة / ١٩٦٦

ابن سعيد الأندلسى : على بن موسى بن محمد

- المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق شوقى ضيف ، القاهرة / ١٩٥٣

ابن سهل :

- وثائق فى أحكام القانون الجنائى ، تحقيق محمد عبد الوهاب خلاف ، القاهرة / ١٩٨٠
- وثائق فىالطب الإسلامى ، تحقيق محمد عبدالوهاب خلاف،القاهرة/١٩٨٢
- وثائق فى شئون العمران والأندلس ، تحقيق محمد عبد الوهاب خلاف ، القاهرة / ١٩٨٣

ابن شاكر الكتبى : محمد بن شاكر بن أحمد

- فوات الوفيات : تحقيق إحسان عباس ، بيروت / ١٩٧٣م

الاصطخرى : أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الكرخى

- مسالك الممالك ، ليدن / ١٩٣٧

الضبى : أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميره

- بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس ، القاهرة / ١٩٦٧

ابن عبد الرؤوف :

- رسالة فى الحسبة . (من كتاب ثلاث رسائل أندلسية) ، تحقيق ليفى بروفنسال ، القاهرة / ١٩٥٥

ابن عبد المنعم الحميرى :

- صفة جزيرة الأندلس . (من الروض المعطار) .

عبد الواحد المراكشى :

- المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان وزميله ، القاهرة / ١٩٤٩

ابن عبدون : محمد بن أحمد التجيبى

- رسالة فى الضاء والحسبة (من كتاب ثلاث رسائل أندلسية) ، تحقيق ليفى بروفنسال ، القاهرة / ١٩٥٥

ابن عذارى المراكشى

- البيان المغرب فىأخبار الأندلس والمغرب، تحقيق كولان وليفى بروفنسال، بيروت / ١٩٨٠

العذرى : أحمد بن عمر بن أنس المعروف بابن الدلائى

- نصوص عن الأندلس ، تحقيق عبد العزيز الأهوانى ، مدريد / ١٩٦٥

ابن العطار : محمد بن أحمد الأموى

- كتاب الوثائق والسجلات ، تحقيق شالميتا وكورنيطى ، مدريد / ١٩٣٨

عياض : القاضى أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبى

- ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقيق أحمد بكير محمود ، بيروت/ب.ت

ابن الفرضى : أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدى

- تاريخ علماء الأندلس ، القاهرة / ١٩٦٦

ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينورى

- الأمامة والسياسة ، مصر / ١٣٤٤هـ

ابن قزمان : أبو بكر محمد بن عبد الملك

- ديوان ابن قزمان ، نشر البارون دافيد دى جونزبرج

ابن القوطية : أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز القرطبى
- تاريخ إفتتاح الأندلس ، تحقيق إبراهيم الابيارى ، القاهرة / ١٩٨٢

مجهول :
- أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ، الكانترا مدريد / ١٨٦٧م

المقرى : أحمد بن محمد التلمسانى
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعى بيروت / ١٩٨٦

ابن منظور :
- لسان العرب

الفيومى :
- المصباح المنير

ثانيًا : المراجع :

أحمد مختار العبادى :
- الإسلام فى أرض الأندلس (ضمن دراسات إسلامية) الكويت / ١٩٨٤

بلباس : ل . ت .
- الأبنية الإسلامية ، ترجمة عليه إبراهيم العنانى مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد مجلد ١ / ١٩٥٣

ترند : ج . ب .
- أسبانيا والبرتغال (من تراث الإسلام) جـ١ ، ترجمة حسين مؤنس ، القاهرة / ١٩٣٦

جب : هـ . أ . ر
- الأدب (من تراث الإسلام) جـ١ ، ترجمة عبد اللطيف حمزة القاهرة/١٩٣٦

حسين مؤنس :

- فجر الأندلس ، القاهرة / ١٩٥٩

ريبيرا : خليان

- التربية الإسلامية فى الأندلس ، ترجمة الطاهر أحمد مكى، القاهرة /١٩٨٠

سعد إسماعيل شلبى :

- البيئة الأندلسية وأثرها فى الشعر ، القاهرة / ١٩٧٨

الطاهر مكى :

- دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، القاهرة / ١٩٨٢

عبادة كحيلة

- تاريخ النصارى فى الأندلس ، القاهرة / ١٩٩٣

محمد بركات البيلى :

- الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى إشبيلية فى عصر بنى عباد رسالة ماجستير بآداب القاهرة / ١٩٧٨
- البربر فى الأندلس – رسالة دكتوراه بآداب القاهرة / ١٩٨٣

محمد عبد العزيز مرزوق

- الفنون الزخرفية فى الغرب والأندلس

محمد عبد الله عنان

- دولة الإسلام فى الأندلس ، القاهرة / ١٩٨٨

لطفى عبد البديع :

- الإسلام فى أسبانيا

هنرى فارمر :

- تاريخ الموسيقى العربية حتى القرن الثالث عشر الميلادى – ترجمة جرجيس فتح الله ، بيروت / ب . ت

- **Cambridge History of Islam**

Vol. 2, by P. M. HALT and others. Cambrige\1970

- **Dozy; R.**

Dictionnaire Detaille des Vetements Chez Les Arabes. Amesterdam, 1945.

- **Ribera y Tarrego;**

Disertaciones y opuscules. Vol.1 " El Concionero do Ben Guzman"

موقف بريطانيا من فتح قنصلية أمريكية فى الكويت

(١٩٤٦ - ١٩٥١)(*)

دكتور عبد الله سراج منسى
أستاذ التاريخ الحديث المساعد
كلية الآداب - جامعة الملك عبد العزيز

تمهيد :

منذ بداية القرن العشرين للميلاد صار للأمريكيين مصالح فى منطقة الشرق الأوسط بما فيها الخليج العربى إلا أن هذه المصالح كانت فى الأساس ذات طبيعة دينية وخيرية وتجارية إلا أنه لم يكن للولايات المتحدة مركز استراتيجى أو طموحات سياسية خصوصاً وأن المنطقة بعيدة جغرافياً عن العالم الجديد بالإضافة إلى شعور الولايات المتحدة بأن المنطقة يحتكرها النفوذ البريطانى لوقوع المنطقة على طرق المواصلات البريطانية عبر قناة السويس والبحر الأحمر والمحيط الهندى والخليج العربى إلى النفط الإيرانى،وإلى ممتلكاتها فىالهند وأستراليا ونيوزيلند(١) ولذلك لم تهتم حكومة الولايات المتحدة بأكثر من أن يتمتع مواطنوها فى المنطقة بحق عدم الخضوع للقضاء المحلى وهو الحق الذى يتمتع به مواطنو الدول الأوربية ومن ثم أبرمت فى عام ١٨٣٠ المعاهدة العثمانية الأمريكية .

(*) استخدم الباحث فى هذه الدراسة الوثائق البريطانية المنشورة فى كتاب :
Records of Kuwait: Selected and edited by A. de Rush, Vols. VI andVII, Foreign Affairs , (Archive Editions: 1989).

(1) De Novo: American Interests and Policies in the Middle East1900-1939,(University of Minnesota, 1963) p. 354 .

لقد كان الاهتمام الأمريكى المبكر بالخليج يتمثل فى نشاط الإرسالية الأمريكية العربية التابعة للكنيسة الهولندية المستصلحة Dutch Reformed Church وهى إرسالية أمريكية بروتستانتية ذات أهداف تنصيرية ، وأصبحت الإرسالية تحمل هذا الاسم منذ عام ١٨٨٩ ، وكان اختيار الجزيرة العربية كمجال لنشاط هذه الإرسالية بدعوى أنه كان للمسيحية فى السابق تأثير فى هذه المنطقة إلى جانب أهمية موقع الجزيرة العربية ، ينطلق منها النشاط التنصيرى إلى جهات أخرى .

وقد كان للكويت نصيب من نشاط الإرسالية بعد نشاطها فى بيروت والبصرة والبحرين ومسقط ، فافتتح المنصرون فى الكويت فى عام ١٩٠٣ مكتبة للكتاب المقدس ، ولكن الشيخ مبارك الصباح أمرهم بإغلاقها والرحيل عنها ، واستمرت المعارضة الرسمية للنشاط التنصيرى فى الكويت حتى عام ١٩١٠ ، عندما زار الشيخ مبارك البصرة وطلب من د .بنيت Binitt المجئ إلى الكويت لعلاج عين ابنته وبعد نجاح بنيت فى هذه المهمة طلب منه الشيخ مبارك البقاء وممارسة الطب ، ووافق على مشروعهم لافتتاح مستشفى فى الكويت ، ومنذ ذلك الحين أصبحت الكويت إحدى محطات الإرسالية ،ولم تلبث أن أصبحت واحدة من أهم محطاتها الرئيسية وقد اعترف المسئولون عن الإرسالية للسلطة البريطانية فى المنطقة بالوضع الخاص للحكومة البريطانية فى المنطقة والتعهد بالاستعانة بالمساعى البريطانية لحل ما يصادفهم من المشكلات التى لا يستطيعون حلها مع الشيخ مباشرة .

وفى عام ١٩١٤ افتتح مستشفى الرجال للعمل بل إنه فى عام ١٩١٦ قدم الكولونيل جراى الوكيل السياسى البريطانى فى الكويت هبة مالية

للمستشفى ولعل الدافع لذلك أن المقيميين البريطانيين فى الكويت كانوا يتلقون العلاج فى مستشفى الإرسالية ، إلى جانب العلاقة الوطيدة بين الوكالة البريطانية والإرسالية ويذهب البعض إلى أن الدافع هو رغبة البريطانيين فى معرفة ما إذا كان للولايات المتحدة أية أهداف سياسية فى المنطقة(١) .

وافتتح فى عام ١٩٢٠ مستشفى النساء ، ومن عام ١٩١٠ وحتى عام ١٩٤٩ كانت مستشفيات الإرسالية هى الوحيدة فى الكويت(٢) حين بنى أول مستشفى حكومى فى الكويت ، هذا إلى جانب عدد من المدارس للبنين ولم يكن بين أفراد الإرساليات أتصال مع الجهات الرسمية الأمريكية ، رغم أن القنصل الأمريكى فى بغداد أو البصرة كان يتجول من حين لآخر فى منطقة الخليج ، ولكن النشاط التنصيرى للإرسالية كانت تواجهه صعوبات من جانب الشيخ أحياناً ومن جانب علماء الدين ، فكانت تركز على الخدمات الصحية ، مما دفعهم فى النهاية إلى التخلى عن عملهم فى الكويت فى عام ١٩٦٧ ، وتسليم مستشفياتهم للدولة واقتصر نشاط الإرسالية فى الكويت منذ ذلك الحين على الخدمات الدينية العادية للمسيحين الذين قدموا للعمل فى الكويت ،وكان السبب الرئيسى لذلك هو إدراك الإرسالية لعدم جدوى العمل التنصيرى فى هذه المنطقة .

---

(١) عبد المالك خلف التميمى : التبشير فى منطقة الخليج العربى ، دراسة فى التاريخ الاجتماعى والسياسى (الكويت، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع ، ١٩٨٢) ص١٢٨ .

(٢) نفس المرجع : ص١٢٤ .

النفـــط :

كان الاحتفـال الذى أقامتـه شركة النفط العربية الأمريكية فى أول مايو (آيار) عام ١٩٣٩ فى رأس التنورة وحضره نحو ألفى مدعو على رأسهم الملك عبد العزيز ، يمثل تتويجاً لجهود مكثفة على مدى عقدين من جانب الشركات الأمريكية للنزول إلى حلبة التنافس على نفط الشرق الأوسط ودليلاً على أن الولايات المتحدة صارت لها مصلحة جديدة وهائلة فى العالم العربى، وأخذت صناعة النفط الأمريكية فى التوسع ، بحيث حصلت شركة ستاندارد أويل أوف كاليفورنيا (Standard Oil of California (SOCAL وشركة تكساس فى آخر عام ١٩٣٩ على امتيازات فى البحرين وكل شبه الجزيرة العربية ، كما شاركت شركة نفط الخليج Gulf Oil الأمريكية شركة بترول الأنجلو / إيرانية بنسبة ٥٠٪وعلى الرغم من تعهد شيخ الكويت فى عام ١٩١٣ بألا يمنح امتياز البحث عن النفط إلا لمن تعينهم الحكومة البريطانية ، فقد انتقل الامتياز الذى حصل عليه عام ١٩٢٥ الميجور هولمز Holmes وشركته الشرقية والعامة Eastern & General Syndicate فى جزء من الكويت إلى شركة نفط الخليج (الأمريكية) فى عام ١٩٢٧ .

وقد أدت معارضة بريطانيا إلى لجوء شركة نفط الخليج إلى وزارة الخارجية الأمريكية لمساندتها وقد مارست الخارجية الأمريكية مزيداً من الضغط الدبلوماسى لدى الحكومة البريطانية وتقدمت الشركتان الأنجلو / إيرانية (البريطانية) ونفط الخليج (الأمريكية) إلى شيخ الكويت بطلبات للحصول على الامتيازات الخاصة بالنفط وذلك فى يناير (كانون ثان) عام ١٩٣٣ وعندما رفض شيخ الكويت كلا العرضين قامت الشركتان بنسيان

تنافسهما واتفقتا على المشاركة فى امتياز بترول الكويت ، بحيث يكون لكل منهما ٥٠٪ من الملكية والتمويل وأخيراً حصلت شركة بترول الكويت على الامتياز فى أواخر عام ١٩٣٤ ، وبعد كشف النفط فى عام ١٩٣٨ أثبت البحث وجود احتياطى هائل ، ولكن عدم كفاءة وسائل النقل وقتئذ أرجأت الاستغلال إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية عندما أصبحت الكويت الدولة الأولى فى إنتاج النفط فى الشرق الأوسط(١) .

لقد إزداد اهتمام الولايات المتحدة الأمريكية – منذ الحرب العالمية الثانية – بمنطقة الشرق الأوسط عامة ، ومنطقة الخليج بوجه خاص ، وذلك ضمن استراتيجيتها التى استلزمتها الحرب الباردة بين الكتلتين الشرقية والغربية ، إلى جانب تنامى المصالح الأمريكية فى منطقة الخليج لوجود الإرساليات الأمريكية ونشاطها فى المنطقة ، ثم مشاركة الشركات الأمريكية فى استغلال النفط فيها .

كل هذا دعا حكومة الولايات المتحدة الأمريكية لأن تسعى من أجل أن يكون لها وجود سياسى / دبلوماسى فى المنطقة ، بدء بالتمثيل القنصلى ، ولذلك سعت من أجل إقامة قنصلية أمريكية فى البحرين ولكن سعيها الحثيث كان من أجل إقامة قنصلية أمريكية فى الكويت ، ولذلك فقد قام مستر ساتون Sutton نائب القنصل الأمريكى فى البصرة بزيارة الكويت فى الفترة من ١٣ إلى ١٦ يوليو (تموز) عام ١٩٤٦ ، حيث استقبله مستر دى جونج De Jong من الإرسالية الأمريكية ، وقد استفسر دى جونج من الميجور تاندى Tandy الوكيل السياسى البريطانى فى الكويت عما إذا كان اصطحابه لنائب القنصل

(1) De Novo : Op. cit., p. 206.

الأمريكى لزيارة شيخ الكويت أمراً يتفق والنظم الدبلوماسية المعمول بها فعرض الوكيل السياسى البريطانى أن يقدم نائب القنصل الأمريكى ومن معه شخصياً لشيخ الكويت ، كما عرض توفير مأوى مريح للزوار فى الوكالة البريطانية ولو أن دى جونج رد بأن ترتيبات الإقامة قامت الإرسالية الأمريكية بتدبيرها .

ونلمح من عرض الوكيل السياسى البريطانى أنه كان يريد أن تتم زيارة المسئول الأمريكى لشيخ الكويت تحت سمع وبصر المسئولين البريطانيين .

وفى صباح يوم ١٤ يوليو (تموز) اصطحب الوكيل السياسى البريطانى نائب القنصل الأمريكى والمستر دى جونج والأنسة مورتون Morton (من الإرسالية) لزيارة شيخ الكويت ، وكانت الزيارة – كما ذكر الوكيل السياسى البريطانى – اجتماعية بحتة لم يناقش خلالها أى عمل ، وفى المساء تناولت المجموعة الأمريكية التى كانت تتألف من الزوار وأعضاء من الإرسالية الأمريكية وأفراد من شركة نفط الكويت – بحضور شيخ الكويت – طعام العشاء فى دار الوكالة البريطانية وفى اليوم التالى كان العشاء فى منزل المستر بارتليت Bartlett (من شركة نفط الكويت) ثم أقيم قداس دينى وقدمت مرطبات لدى السيدة دى جونج ، وفى صباح ١٦ يوليو (تموز) غادر الضيوف الكويت عائدين إلى البصرة، وقد علق الوكيل السياسى البريطانى بأن نائب القنصل الأمريكى فى البصرة لم يظهر أن لديه موضوع عمل يريد أن يناقشه " بل أنه لم يظهر أنه يعتبر الكويت داخلة فى نطاق مسئولياته "(١).

(1) Report on the Visit to Kuwait From 13 - 16 July of Mr L. Sutton, American Vice -Consul at Basra, Top Secret : Records of Kuwait, Vol .7, Foreign Affairs, p . 656

ولم تكن زيارة نائب القنصل الأمريكى فى البصرة للكويت استطلاعية على ما يبدو ذلك أن وأدزورث Wadsworth القنصل الأمريكى فى البصرة - عند زيارته للولايات المتحدة الأمريكية اقترح على الخارجية الأمريكية أن يقوم بزيارة الخليج " لمسح المصالح الأمريكية ، على أن ينزل ضيفاً على شركات النفط المختلفة " وعندما علم الميجوز تاندى Tandy الوكيل السياسى البريطانى فى الكويت بالزيارة التى يزمع القنصل الأمريكى فى البصرة القيام بها ، عرض أن يقيم خلال زيارته للكويت فى مقر الوكالة البريطانية هناك ، كما دعاه لتناول العشاء يوم ٢٨ مارس (آذار) عام ١٩٤٧ .

وقد ردت القنصلية الأمريكية فى البصرة - على لسان برديت Burdett نائب القنصل - على دعوة الوكيل السياسى البريطانى على أساس أن إقامة القنصل ستكون لدى شركة نفط الكويت " ليكون متوافقاً مع نفسه خلال رحلته، ولكى يلتزم بخطط سبق رسمها " ولكن مع قبول الدعوة للعشاء،مع تقدير القنصل الأمريكى لعرض الوكيل السياسى البريطانى بترتيب زيارته لشيخ الكويت(١) .

ولم تلبث أن اتضحت نوايا الحكومة الأمريكية وهدفها من وراء تكرار زيارات ممثليها القنصليين للكويت ألا وهو إقامة قنصلية أمريكية فى الكويت " نظراً للمصالح الأمريكية المتزايدة بسرعة فى الكويت وازدياد عدد المقيمين الأمريكين وأغلبهم من الموظفين الأمريكيين فى شركة نفط الكويت ويصل عددهم إلى نحو ألفى شخص ".

---

(1) frcm William Burdett Jr., American Vice - Consul at Basra, to Major Tandy, H. M. Political Agent at kuwait. March 13, 1947:
Records of kuwait, op. cit., p. 657.

واستفسرت الحكومة الأمريكية من الحكومة البريطانية عما إذا كانت الأخيرة توافق على إقامة قنصلية أمريكية فى الكويت ، ولكن الحكومة البريطانية كانت ترى أن تقترح علىالحكومة الأمريكية إدخال الكويت " ضمن منطقتهم القنصلية فىالبصرة " مع تعهد المسئولين البريطانيين بأنه إذا تم ذلك " فسوف نعطى لموظفى الولايات المتحدة القنصليين القادمين من البصرة كل مساعدة فى أداء مهامهم فى الكويت طالما يعملون بطريقة غير رسمية وبدون الاعتراف بأوراق التمثيل الدبلوماسى(١) .

وقد أعرب الوكيل السياسى البريطانى فى الكويت عن عدم موافقته على الطلب على أساس :

١ – أن عدد الموظفين الأمريكيين الدائمين فى شركة نفط الكويت لا يزيد على مائتين – حسب تقديره – وأنه لذلك يرى الاستفسار من شركة نفط الكويت عن عددهم بدقة .

٢ – أن وزارة الخارجية البريطانية لا تريد أن تفتح الباب لدول أخرى لتطلب نفس الطلب الأمريكى، الذى ستصبح الاستجابة له سابقة غير مرغوبة.

٣ – احتمال أن يحاول شيخ الكويت ضرب ممثلى بريطانيا فى بلاده بممثلى الولايات المتحدة ، مما يضعف النفوذ البريطانى عليه ، وهذا أمر – فى رأى المسئولين البريطانيين – ليس فى صالح الولايات المتحدة ذاتها " لأن نفوذنا فى الكويت يمارس دائماً باسمهم كما هو باسمنا "(٢) .

---

(1) telegram "S" (6), from Secro, London to Repgu, Bahrain repeated to Political Kuwait, No. 117, March 27, 1948: Ibid, p. 658.

(2) Telegram " S " (Agency), from Political Kuwait to Hay Care, Political Muscat, No. 258, March 30,, 1948:
Ibid, p. 659.

وعلى هذا الأساس فإن الوكيل السياسى البريطانى فى الكويت أبدى تعجبه من إطلاق السفينة الأمريكية بوكونو Pocono سبع طلقات مدفعية تحية للقنصل الأمريكى فى البصرة عند مغادرته للكويت .

كما أنه أكد عدم تقديم طلب للوكالة البريطانية بشأن رفع علم الولايات المتحدة الأمريكية على المقر الأمريكى فىالكويت(١) .

وعندما بحثت مسألة قيام السفينة الأمريكية بأداء التحية للقنصل الأمريكى فى البصرة عند مغادرته الكويت وذلك بين وزارتى الخارجية البريطانية والأمريكية من خلال السفارة البريطانية فى واشنطون ردت وزارة الخارجية الأمريكة بأنها تعارض إرسال تعليمات لسفنها فى الخليج لحرمان موظفيها القنصليين من شرف التحية ، عندما يكونون فى عمل رسمى ، حتى ولو كانوا خارج مناطقهم(٢) .

وإزاء تمسك الولايات المتحدة بمطلبها فى إقامة قنصلية لها فى الكويت فإن الوكيل السياسى البريطانى كان يرى أنه لاتوجد عقبات لا يمكن تذليلها فى وجه تنفيذ الطلب الأمريكى ولكن اشترط للتنفيذ عدة شروط :

١ – ألا يحدث أى تغيير فى السيادة البريطانية على الكويت .

٢ – ألا تكون هناك معاملات مباشرة للموظفين القنصليين الأمريكيين مع شيخ الكويت .

(1) Confidential, No. R/ 67 (13 / 8 & 18/2), from Political Agency, Kuwait, to Galloway, Political Resident, in the Persian Gulf, Bahrain, Sept. 11, 1948.

(2) From Persian Gulf Residency, Bahrain, to Jackson, Political Agent, Kuwait, Confidential 173 / 11 / 49, April 29, 1949.

٣ - ألا تكون هناك تغييرات فى الاتفاقيات السياسية مع شركات النفط، والتى تجبرها على التعامل مع شيخ الكويت من خلال الوكيل السياسى البريطانى .

٤ - يحتمل أن يحدث تعقيد ، فلا تقنع حكومة الهند بالعمل من البصرة إذا ما افتتحت الولايات المتحدة مكتباً قنصلياً فىالكويت .

أما بالنسبة للوضع الرسمى للمسئول القنصلى الأمريكى فى الكويت فقد اقترح الوكيل السياسى البريطانى جاكسون Jackson :

(أ) أن يصدر قبول أوراق التمثيل الدبلوماسى من الحكومة البريطانية باعتبارها مسئولة عن علاقات الكويت الخارجية .

(ب) أن يعتبر مكتب الولايات المتحدة فى الكويت فرعاً من القنصلية الأمريكية فىالبصرة .

(جـ) عدم صدور أوراق تمثيل دبلوماسى ، على أن تؤكد الحكومة البريطانية لحكومة الولايات المتحدة تقديم كل التسهيلات والحصانات اللازمة لعمل المسئول القنصلى الأمريكى(١) .

وقد أبدت المقيمية البريطانية فى البحرين رأيها فى موضوع تعيين قنصل للولايات المتحدة فى الكويت فطلبت من وزارة الخارجية البريطانية أن تلح على الحكومة الأمريكية من أجل قبول حل وسط مثل إلحاق موظف من وزارة الخارجية الأمريكية بشركة النفط كضابط اتصال يقوم بمهام القنصل دون أن يحمل الاسم ودون التعامل المباشر مع شيخ الكويت خصوصاً وأن

---

(1) Telegram from Kuwait, to F.O. No. 43, May 14, 1949, repeated to Bahrain, No. C/115 (13/8).

المقيم البريطانى فى البحرين كان يعتقد أن الولايات المتحدة سوف تطلب تعيين قنصل لها فى البحرين أيضاً .

وأوضح المقيم البريطانى ضرورة إقناع حكومة الولايات المتحدة بالصعوبات " التى نعانيها وحثها على قبول جوهر مطلبهم دون الاسم "(١) .

وفى مذكرة بعثت بها الخارجية البريطانية لسفارة الولايات المتحدة فى لندن بشأن تعيين قنصل أمريكى فى الكويت ذكرت الحكومة البريطانية أن مركزها الرسمى فىالكويت يرتكز على الاتفاقية التى أبرمت مع حاكم الكويت فى ٢٣ يناير (كانون ثانى) عام ١٨٩٩ وعلى التأكيد الذى وجهه المقيم السياسى البريطانى فىالخليج إلى حاكم الكويت فى ٣ نوفمبر (تشرين ثانى) عام ١٩١٤ والذى بمقتضاه اعترفت بريطانيا بالكويت كإدارة مستقلة تحت الحماية البريطانية وأن هذا المركز قد رسخ بالتطبيق لفترة طويلة وأنه نتيجة لذلك يجب اعتبار مسئولية بريطانيا عن العلاقات الخارجية للكويت مسئولية راسخة .

وأضافت المذكرة أن مركز بريطانيا فى الكويت ليس مفيداً لتلك الدولة فحسب ، بل يخدم أيضاً مصالح أخرى غير مصالحنا " ونحن مصممون على الحفاظ على ذلك المركز ولا يمكن أن نوافق على أى انتقاص منه ".

كما ذكرت المذكرة أن حكومة العراق أخذت تضغط لمدة طويلة من أجل التصريح لها بتعيين قنصل فى الكويت ، حيث يوجد أكثر من ألفى مواطن عراقى وللدولتين حدود مشتركة ، لذلك فإنه فور تعيين القنصل

---

(1) From Residency, Bahrain, to F.O. London, Saving No. 8, June 22, 1949, repeated Kuwait,. Saving No. 23.

الأمريكى "سنشعر بأننا ملزمون بالسماح بتعيين قنصل عراقى بشروط متساوية ويحتمل أن يتبع ذلك تعيين ممثلين قنصليين لدول أخرى فى الشرق الأوسط".

" وبناء عليه - كما أوردت المذكرة - فإن الشروط التى سنوافق على تعيين قنصل للولايات المتحدة على أساسها ستكون بمثابة سابقة ، ولذلك يجب أن تكون تلك الشروط محددة تحديداً دقيقاً ومتفقة مع وضعنا (مركزنا) الدستورى المشار إليه وأن أى انتقاص من هذا الوضع (المركز) قد يترتب على شروط تعيين قنصل الولايات المتحدة سوف يؤدى على المدى الطويل إلى التقليل من قدرتنا على إدارة العلاقات الخارجية لحاكم الكويت مما سيسبب ضرراً لمصالحه ومصالح رعاياه ومصالح أصحاب الامتيازات من الأجانب".

واختتمت المذكرة بالتعبير عن عدم رغبة بريطانيا فى إبقاء الكويت تحت الوصاية الدائمة ولذلك فإنه "خلال السنوات التكوينية للمشيخة يجب منع إعاقة أو تأخير نموها الاجتماعى والاقتصادى بالتعرض غير الناضج والسابق لأوانه لتأثيرات سياسية غير مرغوب فيها وصادرة عن دول عربية أخرى وأن الخبرات أثبتت أن ممثلى تلك الدول هم الأكثر استعداداً للعمل كبؤر لهذه التأثيرات ومن ثم فإننا مصممون على تحديد شروط تعيين الممثلين القنصليين للدول العربية الأخرى "(١) .

ورغم العقبات والاعتراضات التى كان يثيرها - على استحياء - الممثلون البريطانيون فى الخليج فقد استمرت مساعى الولايات المتحدة الأمريكية من أجل إقامة قنصلية أمريكية فى الكويت ، فقام كليفتون أنجليش

(1) Memorandum for U.S. Embassy Appointment of U.S. Consul at Kuwait: Records of Kuwait, VII, pp. 672, 673.

Clifton English القنصل الأمريكى فى البصرة بزيارة الكويت فى أغسطس (آب) عام ١٩٤٩ ، حيث قابل الوكيل السياسى البريطانى ، كما قام بزيارة لشيخ الكويت برفقة الوكيل السياسى البريطانى وقد ذكر القنصل الأمريكى للوكيل السياسى البريطانى أن قدومه للكويت بهدف تحديد المهام التى ستقوم بها القنصلية الأمريكية إذا أقيمت فى الكويت وأنه لذلك سيقوم بجمع إحصاءات نفطية وتسجيل جوازات سفر جميع الأمريكيين العاملين فى الكويت مع دراسة مفصلة للسوق وأبدى للوكيل السياسى رأيه بأن المصالح الأمريكية قد لاتبرر وجود قنصل دائم طول الوقت وأنه قد يكفى وجود نائب قنصل بصفة غير رسمية لثلاثة أسابيع كل شهر ، ومع ذلك فقد ذكر أن وزارة الخارجية الأمريكية طلبت اعتمادات مالية لفتح قنصلية يعمل بها أربعة أفراد فى السنة المالية الجديدة : قنصل ونائب قنصل وكاتبان(١) .

وقد كشفت الوثائق البريطانية أن وزارة الخارجية الأمريكية قدمت طلباً بتاريخ ٢٩ أبريل (نسيان) عام ١٩٤٩ إلى وزارة الخارجية البريطانية ، من أجل الموافقة على فتح قنصلية للولايات المتحدة فى الكويت ، ورغم إدراك وزارة الخارجية البريطانية لقوة الحجج التى تبرز إقامة تمثيل قنصلى لحكومة الولايات المتحدة فى الكويت وتقديرها لمصاعب إدارة العمل القنصلى من البصرة ورغبتها فى تلبية الاحتياجات العملية للحكومة الأمريكية إلا أن وزارة الخارجية البريطانية مهتمة من ناحية أخرى بشأن الارتباكات السياسية المتوقعة إذ طلب العراقيون فعلاً تعيين قنصل لهم فى الكويت وأنه إذا عين قنصل عراقى فمن المتوقع أن تحذو مصر حذو العراق .

---

(1) From Political Agency, Kuwait, to Jackson, Political Resident, Persian Gulf, Bahrain, No. C/200 (13/8), August 3, 1949.

وقد طلب العراق فعلاً تعيين قنصل عراقى فى كل من الكويت والبحرين " وقد أبلغنا حكومة الهند بأننا نوافق على تعيين وكلاء تجاريين يعملون بمقتضى شروط دقيقة " وأردفت الخارجية البريطانية بأنه إذا فتح الطريق " لتسلل " مصرى وعراقى فسيكون هناك خطر حقيقى بأن تصاب الكويت بسرعة بعدوى مرض التطرف ، الذى تعانى منه هاتان الدولتان (مصر والعراق)(*) كما سوف تتورط الكويت فى مشكلات الجامعة العربية والمنافسات التى قسمت الدول العربية وكانت الخارجية البريطانية ترى أن تورط الكويت فى سياسات الشرق الأوسط " لن يكون مفيداً لا للولايات المتحدة ولا لأنفسنا – أى بريطانيا " .

كما أنه إذا عين قناصل من دول خارجية فى الكويت فستكون هناك طلبات مماثلة لتمثيل قنصلى لهذه الدول فى البحرين وعلى ذلك اعتبرت الخارجية البريطانية أن طلب الحكومة الأمريكية يضعها فى مركز حرج ولذلك فعلى الخارجية الأمريكية أن تزن هذه الاعتبارات بدقة وعناية قبل أن تتخذ قرراً نهائياً بفتح قنصلية أمريكية فى الكويت وأنه إذا ما قررت الخارجية الأمريكية فى النهاية التمسك بفكرة تعيين قنصل أمريكى فى الكويت رغم الصعوبات التى نبهنا إليها "فعلينا ألا نعارض ، ولكن علينا أن نقلل بقدر الإمكان من الأخطار التى نعتقد أنها ستنشأ نتيجة هذا التعيين " .

ولما كان هذا يعنى أن الخارجية البريطانية سوف توافق على الطلب الأمريكى إذا أصرت عليه الخارجية الأمريكية فقد وضعت الخارجية

(*) كانت مصر والعراق فى ذلك الوقت يسعيان بشدة من أجل استكمال استقلالهما عن بريطانيا ، وهو ما اعتبرته الخارجية البريطانية مرضاً .

البريطانية بعض الأسس التى يجب أن تراعى عند تعيين موظف قنصلى أمريكى فى الكويت ، وهذه الأسس هى :

١ - أن يصدر قبول أوراق اعتماد القنصل الأمريكىفى الكويت عن الحكومة البريطانية وليس عن شيخ الكويت ، حيث أنه نظرا للوضع الدولى للكويت فإن الحكومة البريطانية هى التى تتولى مسئولية علاقات الكويت الخارجية ومعنى هذا أن القناصل الأجانب الذين يعينون فى الكويت ، سوف يتعاملون مع السلطات الكويتية من خلال الوكيل السياسى البريطانى فى كل شئ ما عدا ، الأمور الروتينية البحتة .

٢ - هذا التعيين لن يغير من الترتيبات القضائية الحالية فى الكويت والتى بمقتضاها يتولى الوكيل السياسى البريطانى مسئولية التعامل مع القضايا (المسائل) القانونية التى يكون طرفاً فيها أجانب غير عرب .

٣ - لن يؤثر هذا التعيين فى الترتيبات القائمة والممثلة فى اتفاقيات سياسية مع شركة نفط الكويت وشركة النفط الأمريكية المستقلة والتى بموجبها يتم إجراء العلاقات بين الشركة والشيخ من خلال الوكيل السياسى ما عدا الأمور الروتينية(١) .

وإذا كانت هذه الشروط التى على أساسها أبدت الحكومة البريطانية استعدادها للموافقة على فتح قنصلية أمريكية فى الكويت ، فماذا كان موقف وزراة الخارجية الأمريكية من هذه الشروط ؟ وكيف حاولت تفنيد الذرائع التى ساقتها الحكومة البريطانية ؟ .

(1) From F.O. to Palmer, U.S. Embassy, London, E 7746 / 1902 / 91, Secret, August 16, 1949.

ذكرت الخارجية الأمريكية فى ديباجة ردها ، أنها لاحظت أن وزارة الخارجية البريطانية يستبد بها القلق من أن تؤدى إقامة قنصلية للولايات المتحدة فى الكويت إلى تقدم أطراف ثالثة بطلبات لمنحها تسهيلات مماثلة وأنها لاحظت أيضاً أن وزارة الخارجية البيرطانية ترى أنه إذا أقيمت سفارة (قنصلية) مصرية وعراقية فى الكويت ، فإنه سيترتب على ذلك خلق اتجاهات وطنية متطرفة فى المشيخة ، مع تورط الكويت فى سياسات الجامعة العربية ، الأمر الذى لن يكون فى صالح المملكة المتحدة أو الولايات المتحدة .

ثم ساقت خارجية الولايات المتحدة الرد على هذه الذرائع ، فذكرت أنها فى مذكرة لها بتاريخ ٢٩ أبريل (نسيان) عام ١٩٤٩ عبرت عن رأيها فى :

(أ) أن طلبات من دول أخرى لإقامة قنصليات لها فى الكويت يمكن أن ترفض على أساس معقول وعادل ، وهو افتقار هذه الدول إلى مصالح ملموسة فى المشيخة بالمقارنة بالمصالح الخاصة بالولايات المتحدة .

(ب) كما أنه طبقاً للاتفاقية القنصلية فإن الخارجية الأمريكية تعتقد أنه من الممكن أن تطلب بريطانيا من الدول التى تريد إقامة قنصليات لها فى الكويت ، تقديم تأكيدات بخصوص احترام العلاقة الخاصة القائمة بين بريطانيا وشيخ الكويت طبقاً للمعاهدة بينهما .

(جـ) ويلاحظ أنه يوجد فى الكويت من قبل مصريون وعراقيون وغيرهم من دول الشرق الأوسط الأخرى كتجار ومعلمين وعمال ، وبالتالى فإن وجود ممثلين رسميين لتلك الدول فى الكويت لن يترتب عليه أية دعاية متطرفة للجامعة العربية .

(د) تشعر الخارجيـة الأمريكيـة بالامتنـان لقول الخارجيـة البريطانيـة بأنه إذا تمسكت الولايات المتحـدة بفكرة إنشـاء قنصليـة أمريكيـة فـى الكويـت فإنها (أى الخارجية البريطانية) لن تعترض ولذلك فإن الخارجيـة الأمريكيـة تأمل التعجيل بالإجراءات المتصلة بهذا الشأن وفيما يختص بالتحفظات الثلاثـة التى طلبت بريطانيا الموافقة عليها كشرط للسماح بإنشاء القنصليـة الأمريكيـة فى الكويت ، فقد ساقت الخارجية الأمريكيـة الرد علـى هـذه التحفظـات علـى النحو التالى :

١ - تستفسر الحكومة الأمريكية عما إذا كانت ترتيبات إقامـة القنصليـة الأمريكية فى الكويت ستجرى بين الحكومة البريطانيـة وشيخ الكويـت بحيث يصدر الاعتراف بأوراق المسئول القنصلى الأمريكى مـن شـيخ الكويـت والحكومة البريطانية معاً أم من شيخ الكويـت ويصـدق عليهـا ممثـل الحكومـة البريطانية للتثبت من مطابقتها لمعاهدة العلاقة الخاصـة القائمـة بيـن بريطانيـا والكويـت ، وسـوف يقوم المسئول القنصلى بطبيعـة الحـال بإعطـاء الرعايـة الواجبة لمعاهدة العلاقة الخاصة هذه فى أثناء أدائه لواجباته .

٢ - أما التحفظ الخاص بأن تعيين مسئول قنصلى أمريكى فى الكويـت لن يغير الترتيبات القضائية القائمة ، والتـى بموجبهـا يتولـى الوكيـل السياسـى البريطانى مسئولية التعامل مع القضايا التى تضم أطرافها أجانب غير عـرب فإن الحكومة الأمريكية سبق وذكـرت فـى مذكـرة ٢٩ أبريـل (نسيان) أنهـا توافق فى ذلك الوقت على محاكمة المواطنين الأمريكيين أمام محكمة الوكالـة البريطانية فى الكويت بمقتضى النظام القـانونى المقـرر بتعليمـات مـن مجلـس الوزراء البريطانى .

٣ – توافق الخارجية الأمريكية على أنه إذا عين مسئول قنصلى أمريكى فى الكويت فإن هذا التعيين لن يؤثر فى الترتيبات القائمة طبقاً لاتفاقيات سياسية عقدت فى الماضى أو تعقد فى المستقبل بين الحكومة البريطانية وأصحاب امتيازات النفط فى المناطق الواقعة تحت سيطرة وسيادة الكويت حيث أن العلاقات بين أصحاب الامتيازات وشيخ الكويت تدار من خلال الوكيل السياسى البريطانى ماعدا الأمور الروتينية وفى نفس الوقت " ترغب الخارجية الأمريكية فى أن تحدد فهمها بأن هذه الترتيبات لن تعمل على تقييد حرية وصول أصحاب الامتيازات هؤلاء إلى شيخ الكويت حول كل الأمور الملائمة " .

٤ – وإذا كان المدير الإدارى لشركة نفط الكويت قد ذكر فى تقريره أن حجم العمل القنصلى للأمريكيين قد تناقص فى السنة الأخيرة ، وسوف يتناقص ، مستقبلاً ، فإنه مهما كانت معانى هذه الأرقام " فإننا لن نتراجع عن طلب الموافقة على السماح بوجود قنصل أمريكى "(١) .

وإذا كانت الحكومة البريطانية هى التى تبحث مسألة تعيين قنصل أمريكى فى الكويت ، وتضع الشروط لهذا التعيين فماذا كان موقف شيخ الكويت نفسه ؟

لقد أبلغ الوكيل السياسى البريطانى فى الكويت وزارة الخارجية البريطانية أنه تحدث مع شيخ الكويت بشأن رغبة حكومة الولايات المتحدة فى تعيين قنصل لها فى الكويت وأن الوكيل السياسى شرح لشيخ الكويت أن هذا

(1) From Palmer, Second Secretary of American Embassy, London To Geoffrey Furlonge, Eastern Dept., F.O., London January 23, 1950: Records of Kuwait, VII, pp. 667, 668.

التعيين سيترتب عليه قبول قناصل من الدول الأخرى وخاصة من العراق سواء كان ذكر العراق من أجل تخويف شيخ الكويت ، أو لأن العراق كان قد تقدم فعلاً بطلب تعيين قنصل عراقى فى الكويت .

وكثيراً ما كان الوكيل السياسىالبريطانى فى الكويت يردد أنه ينظر إلىإحتمال تعيين قنصل عراقى فى الكويت بقدر كبير من القلق نظراً لضآلة المصالح العراقية فى الكويت والمجال الفسيح أمام الدعاية العراقية " والتآمرالعراقى ضدنا "(١)

وبطبيعة الحال لقد كان فى ذهن الوكيل السياسى البريطانى فى الكويت النشاط الذى كان يبذله ملك العراق غازى الأول ضد الكويت فى أواخر الثلاثينيات.

كما أبلغ الوكيل السياسىالبريطانى شيخ الكويت بالشروط التى ستفرض على تعيين القناصل وعملهم ، وكذلك صورة خطاب التفويض الذى سيصدره شيخ الكويت للحكومة البريطانية بتعيينها للقناصل الأجانب فى مشيخته .

ويذكر الوكيل السياسى البريطانى أن حاكم الكويت لم يبد أى اعتراض على كل ذلك ، وأنه " وضع نفسه تماماً فى أيدى الحكومة البريطانية فيما يختص بهذا الموضوع وأكد أن الاتصال بينه وبين القنصل سيكون من خلال الوكالة السياسية البريطانية "(٢)

---

(1) From Kuwait to F.O. (Jakins) Cipher No. 59, March 29, 1951, Addressed to Bahrain, tel No 69, same date.

(2) From Kuwait to F.O. (Jakins) Cipher No. 43, March 6, 1951, Addressed to Bahrain, tel. No. 50, same date.

ومما تجدر ملاحظته أنه من بين التحفظات التى وضعتها بريطانيا ووافقت عليها حكومة الولايات المتحدة أن خطاب قبول الأوراق الدبلوماسية للموظفين القنصليين فى المنطقة المحايدة فقط يجب أن يتضمن شرط موافقة ملك المملكة العربية السعودية(١) .

وأخيراً تم تعيين قنصل للولايات المتحدة فى الكويت ، ووصل مستر دنكان Duncan إلى الكويت فى ٢٨ يونيو (حزيران) عام ١٩٥١ " بغير رغبتنا "(٢) ليباشر مهامه كأول قنصل أمريكى هناك كما استخدم القنصل المدعو سالم غرابة كمترجم وهو عراقى الجنسية ومن أصل تركى وكان فى السابق عضواً فى الكنيسة اليعقوبية ولكنه انضم إلى الإرسالية الأمريكية البروتستانتية التى كان يعمل معها فى العراق وعرف عنه أن علاقاته ودية مع الأسرة المالكة العراقية ورئيس وزراء العراق ووزراء عراقيين أخرين ويعتقد أنه كان على صلة بالجيش الأمريكى خلال الحرب العالمية الثانية وكان زميل دراسة مع الشيخ فهد فى بيروت .

وقد حل الشيخ فهد - كما يقول تقرير بريطانى - مشكلة سكن القنصل الأمريكى ، بأن وضع تحت تصرفه منزلاً مملوكاً لإحدى زوجاته(٣) .

---

(1) From American Embassy, London (Palmer), to Geoffrey Furlonge, Eastern Dept., F.O. London, Confidential, June 25, 1951.

(2) From F.O. to Tehran, Secret, No. 1248, NOV. 20, 1954: Records of Kuwait, VolVI., p. 671.

(3) From Political Agency, Kuwait (Jakins), to Acting Political Resident, Bahrain, No. 6 - 90 / 33 / 51, Confidential, Sept. 17, 1951.

وعلى الرغم من أن وجود قنصل أمريكى فى الكويت - وبموافقة بريطانيا طبعاً - أصبح حقيقة واقعة فقد استمرت المخاوف البريطانية من وجود القنصل الأمريكى ، فقد كان الخوف ينتاب المسئولين البريطانيين فى الكويت والخليج من أن يستبدل حكام الكويت النفوذ الأمريكى بالنفوذ البريطانى ، إذا لم يشعر هؤلاء الحكام أن البريطانيين قادرون على تأييدهم كما قد يفكر الكويت فى إيداع بعض الفائض من موارده المالية فى الولايات المتحدة(1) والخوف من أن تحاول بعض العناصر الكويتية استغلال تعيين قنصل أمريكى فى الكويت " للعب بالأمريكيين ضد البريطانيين " حيث تردد أن الشيخ فهد السالم " أخذ دنكان القنصل الأمريكى تحت جناحه " والشيخ فهد هو العضو الوحيد فى الأسرة الحاكمة فى الكويت الذى زار الولايات المتحدة وهى الدولة المفضلة لديه ، ولذلك كان من المتوقع أن ينحاز للأمريكيين ، مما قد يتيح له فرصة للتألق فى الكويت .

ولذلك فقد طلب مستر ماكفرسون Mac Pherson المدير العام لشركة البترول من المستر جونز Lewis Jones من وزارة الخارجية الأمريكية عدم تعيين أى شخص معاد للبريطانيين ، وهذا ما دفع دنكان القنصل الأمريكى الأول فى الكويت لأن يعلن بعد وصوله مباشرة أنه من الخطأ الاعتقاد بأن أى شخص سوف يتبع أو يتبنى خطاً معادياً للبريطانيين فى الكويت ولو أن الوكيل السياسى البريطانى فى الكويت ذكر أن شيخ الكويت نفسه لا يرغب فى التعرض لنقد من جانب حكومة الولايات المتحدة الأمريكية حيث أن نصف الامتيازات النفطية فى بلاده مملوكة لشركة أمريكية وتوقع الوكيل

(1) From British Residency, Bahrain (Hay), to F.O., London, (Confidential) No. 107 (1902 / 54), Sept. 27, 1951.

السياسى البريطانى فى الكويت أن وصول قنصل أمريكى إلى الكويت يعتبر فى نظر البريطانيين خطوة نحو توطيد المصالح الأمريكية فى الخليج(١) وهذا ما تحقق بالفعل وبخاصة بعد انسحاب بريطانيا من المنطقة شرقى السويس ، وهو ما أوضحته الأحداث فى العقود التالية من القرن العشرين .

(1) From Political Agency, kuwait (Jakins), to Acting Political Resident, Bahrain No. 6 - 90 / 33 / 51, Confidential, Sept. 17, 1951.

الأبعاد التاريخية لرحلة هاملتون فى الجزيرة العربية

(عام ١٩١٧)

د. عبد الوهاب بن صالح بابعير
الأستاذ المشارك بقسم التاريخ
وعميد كلية التربية
فرع جامعة الملك سعود بأبها

مقدمة :

حفلت الجزيرة العربية فى الربع الأول من القرن العشرين بأحداث على جانب كبير من الأهمية ، وكان لها أثرها البعيد فيما آلت إليه حياة الشعوب فى هذه المنطقة ، أضيف إلى ذلك تطور الأحداث السياسية المتلاحقة ، التى شكلت مستقبلاً باهراً كان ينتظرها ، فتبلورت تلك الأحداث على أهميتها وأبعادها حتى نجحت فى النهاية إلى تكوين الوحدات السياسية التى قادت إلى تطور المنطقة تطوراً هائلاً فى كافة المجالات ، تعيشها الجزيرة العربية حتى وقتنا الحاضر .

وكان شعب الجزيرة منذ ظهور ابن سعود فى نشاطاته البشرية وفى بيئته الطبيعية - كما لا يزال - عاملاً مشتركاً فى تواريخ شعوب منطقة الخليج . وتاريخ الجزيرة العربية ، وأحداثها المتلاحقة التى أدت إلى تكوين وحدتها العظيمة ، هى المرآة التى تبين على صفحتها الأحداث العالمية ، والسياسات الدولية ، والتيارات الفكرية والعقائدية التى نشطت فى المنطقة خلال تلك الفترة .

وتتمتع المنطقة منذ القدم بأهميـة اقتصاديـة وسياسـية واسـتراتيجية وعسكرية ، وكانت هذه الأهمية التـى تمتـاز بهـا المنطقـة سـبباً فـى اسـتقطاب القوى العالميـة للسيطرة عليهـا علـى امتـداد القـرون العـابرة وحتـى وقتنـا الحاضر. وجاء اكتشاف النفط فى منطقة الخليج العربى هـذا القـرن ليغطـى على الأهمية التقليدية التى كان يتمتع بها الخليج فى السـابق ، وأصبح تسابق الدول الكبرى للتوغل فى هذا الشريان أمراً ملحاً يرتبط بمستقبل صناعتها التى اعتمدت على النفط فى تحريك جميع مفاصلها . وكانت بريطانيا أكثر الدول نفوذاً وسيطرة على الخليج العربى ، وهى كانت دائماً تحاول المحافظة على هذا النفوذ الذى سعت لترسيخه منذ القرن الثامن عشر ، وأصبح لزاماً عليها منذ مطلع القرن العشرين ، مواجهة محاولات الدول الكبرى للتوغل فى هذه المنطقة .

ولقد تناول المؤرخون على اختلاف مذاهبهم وألوانهم وجنسياتهم تـاريخ منطقة الخليج من زوايا مختلفة ، فكتبوا المؤلفات العديدة بلغات أوروبية وغير عربية ، إلاَّ أن الرحالة هاملتون الذى زار المنطقة بأسرها ، كتب فصلاً هاماً ومفيداً ، ألقى الضوء على كثير من المعلومات الهامة أثناء تنقله فى أجزاء دول الخليج المختلفة ، ومنها الكويت ونجد ، وشهد جهود ابن سعود العظيمة ومحاولاته المضنية من أجل توحيد الجزيرة ، ونضاله وجهاده مع الأمراء مثل ابن الرشيد والشريف حسين وغيرهم . كما زار بعض المدن المنتشرة فى المنطقة مثل بريدة وعنيزة ، ووقف على أحوالها الاجتماعية والاقتصادية والدينية والثقافية . وما كتبه هاملتون يعتبر وصفاً لرحلاته وتجاربه ومشاهداته ، وهو كتاب سياحة ومعرفة وتاريخ وجغرافيا وعمران وعلم

وسياسة . لذلك يعتبر مرجع هام فى تاريخ وجغرافية الجزيرة ومدنها وأحوالها الاجتماعية والاقتصادية .

اكتسبت الرحلات لشبه الجزيرة العربية أهمية مزدوجة علمية وسياسية، فالجانب العلمى يتمثل فى التحقيق العلمى لمناطق شبه الجزيرة التى كادت أن تكون مجهولة بالنسبة للأوربيين اللهم إلاً معرفتهم بوجود الأماكن المقدسة للمسلمين فيها . أما الجانب السياسى فلا يقل أهمية عن الجانب العلمى ، فكان عدد من الرحالة بمثابة رسل سياسة لخدمة بلادهم بالدرجة الأولى . ثم إن اتصال البعض بزعماء أقاليم شبه الجزيرة قد أتاح لنا فرصة التعرف على مدى النضج السياسى ومدى السيطرة لهؤلاء سواء كانت سياسية أو دينية مما يشكل فى مجموعة بعض جوانب تاريخ المنطقة .

كذلك فإن النجاح الذى حققته الدعوة الإصلاحية التى تزعمها الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وما ترتب عليها من ظهور سلطة سياسية ودينية قوية بزعامة آل سعود كانت مثار اهتمام الرحالة خاصة الإنجليز منهم منذ البداية وذلك بغية خطب ود ابن سعود ومحاولة مصادقته(١) .

لقد تعددت الرحلات كما تباينت فتميزت كل رحلة بمزية خاصة ، وأكتسبت كل رحلة شهرة معينة لا سيما وأن روح المغامرة كانت سمة تدفع هؤلاء جميعاً لاجتياز المجهول فى الغالب الأعم ، كما اندفع بعض الرحالة للتستر وراء اعتناق الإسلام أو التظاهر بالإسلام لتسهيل تعاملهم ، بما فى

(١) جمال زكريا قاسم (الدكتور) : الدوافع السياسية لرحلات الأوربيين إلى نجد والحجاز خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بحث منشور فى دراسات تاريخ الجزيرة العربية جـ٢ ، الرياض ، ص٩ .

ذلك ارتداء الزى العربى كاملاً . وبالتالى أصبح قلب شبه الجزيرة العربية منطقة ليس من الصعب اقتحامها(١) .

إلاّ أن الأحداث المضطربة فيها بين آل سعود وآل الرشيد كانت بمثابة عائق دون قيام الرحالة بارتيادها خلال الفترة من أواخر القرن التاسع عشر وحتى السنوات الأولى من القرن العشرين . غير أنه مع اندلاع الحرب العالمية الأولى نشطت بريطانيا مرة أخرى لاكتساب عبد العزيز آل سعود ، حاكم نجد ، إلى جانبها خصوصاً بعد إطلالته على ساحل الخليج العربى وطرده للأتراك من الإحساء(٢) .

فبدأت البعثات تفد اليمن ، فأوفدت فى نهاية ١٩١٤م وليم شكسبير من لندن وعين " ضابطاً سياسياً لواجب خاص " ، بغية التمهيد لكسبه جانب ابن سعود إلى جانب بريطانيا خاصة بعد أن أعلنت تركيا انضمامها فى الحرب العالمية الأولى إلى جانب الألمان . فكان شكسبير يميل إلى عقد معاهدة مع ابن سعود وذلك على عكس جهة نظر الوكيل البريطانى السياسى فى الكويت، الكولونيل جراى ، (١٩١٥ – ١٩١٧) إذا كانت رؤيته ضيقة لم يرضى عنها ابن سعود . وبلغ من حماسة شكسبير لابن سعود أن اشترك معه فى معركة جراب فى ٢٤ يناير ١٩١٥ إلاّ أن لقى مصرعه رافضاً نصيحته ، ورفضه تبديل ثيابه الأوربية(٣) .

---

(١) **أحمد العنانى :** رحلات الكابتن وليم إيرفن شكسبير فى شبه الجزيرة العربية ، بحث منشور فى دراسات تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الأول ، مصادر تاريخ الجزيرة العربية جـ٢ ، الرياض ، ص٤٧٠ .

(٢) **جمال زكريا قاسم :** المرجع السابق ، ص٢٢ .

(٣) **أحمد العنانى :** مرجع سبق ذكره ص٤٨٣ – ٤٨٤ .

ونتيجة لمقتل شكسبير تعطل إبرام الاتفاقية بين الطرفين بضعة أشهر وفى شهر ديمبر من نفس العام توجه ابن سعود إلى " دارين " ، بالقرب من "القطيف" ، حيث التقى مع كوكس ، المندوب السامى البريطانى فى الخليج ، ووقع معه الاتفاقية لأنه لم يكن هناك مناص من إجراء اتصالات مباشرة معه حول نقل الأسلحة ، والتجارة البريطانية ، وتعامله مع البلاد العربية المجاورة كالكويت وقطر وزعماء الأقطار المرتبطة مع بريطانيا باتفاقات(١) . كما قدمت بريطانيا تسهيلات لتسليح ابن سعود لكى يتمكن من مجابهة العجمان الذين ولوا وجوههم شطر الكويت فى سبتمبر ١٩١٥(٢) ، ثم استطاعت بريطانيا أن تؤثر على الشيخ جابر ، حاكم الكويت ، لكى يستضيف ابن سعود والشيخ خزعل ورؤساء العشائر الموالية لبريطانيا لكى يعلنوا فى مؤتمر الكويت الثانى فى أكتوبر ١٩١٦ تأييدهم لحركة الشريف حسين التى قامت ضد تركيا فى أثناء الحرب ، ووصف هذا المؤتمر بأنه كان مظاهرة سياسية استهدفت بريطانيا منها تأمين قوة جيشهم المقاتل فى العراق بمساندة رؤساء العرب لا سيما وأنه قد وصلت تقارير مختلفة عن محاولات الدولة العثمانية الاتصال ببعض أولئك الرؤساء(٣) .

إلاً أن العلاقات بين ابن سعود والشيخ جابر قد تدهورت إذ أن هذا الأخير لم يكن مهتماً بشئون الصحراء فخرجت من دائرة نفوذه بعض القبائل

---

(1) F.O. 371/ 3390: Memorandum on British Commitments to Brn Saud, Nov 18, 1918.

(2) Philby, H.St, John: Saudi Arabia P. 272.

(٣) إيمان محمد عبد المنعم عامر : سياسة بريطانيا فى الخليج العربى سنة ١٩١٤/١٩٣٩، ص٣٠ (رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة القاهرة – كلية الآداب) .

ودخلت تحت حماية ابن سعود كما قام بجباية الزكاة منها . كذلك كان السبب الأساسى للخلاف بين الجانبين هو السماح لقبيلة عجمان باللجوء إلى الكويت مما كان مثار غضب ابن سعود فأخذ بضغط على الشيخ جابر لإخراجهم من المنطقة المجاورة للكويت . واضطر جابر تحت ضغط بريطانى أيضاً الموافقة على إخراجهم تهدئة لابن سعود . لكن خروجهم لم يستمر طويلاً إذ سرعان ما مات الشيخ جابر وتولى سالم مقاليد السلطة وكان على عكس أخيه مهتماً بأمراء الصحراء ، والقبائل فشرع فى إقامة الصدامات فى الصحراء فتوجه نحو شمر وعجمان وهما على خلاف مع ابن سعود ، وعلى الفور انتقلت عجمان إلى المنطقة المجاورة للكويت . فأصبح ابن سعود ، وعلى الفور انتقلت عجمان إلى المنطقة المجاورة للكويت . فأصبح ابن سعود يواجه صعوبة فى الدفاع عن مواقعه فى القصيم بالرغم من الهدنة المعترف بها ضمناً مع حائل ، ولم يجد مناصاً من التوصل إلى تسوية مع " شمر " وأذن لهم بالدخول إلى أراضيه على شرط أن يضربوا خيامهم حول جدران الأرطاوية . وفى نفس الوقت عين ابنه " تركى " حاكماً على القصيم ، وسمح لشمر بالعبود إلى الكويت للحصول على الإمدادات . فكانت شمر تحصل على الإمدادات من القصيم ومن الكويت معاً(١) .

وكانت بريطانيا قد فرضت حصاراً محكماً لكى لا تتسرب المواد الغذائية إلى القبائل المعادية لها والتى تتعامل مع الدولة العثمانية فخصصت مراكز ثلاث هى " الخميسية " ، و " الزبير " و " الكويت " بشرط حمل

---

(١) **فتوح عبد المحسن الخترش** : تاريخ العلاقات السياسية البريطانية الكويتية ١٨٩٠-١٩٢١، منشورات دار ذات السلاسل ، ط١ ، ١٩٨٤ ، ص ص ٩١ – ٩٢ .

تصاريح خاصة معتمدة وإلاّ تعرضت المواد للمصادرة(١) . وعلى الرغم من ذلك تم ضبط أعداداً كبيرة من الأكياس الفارغة التى كانت تصل بها الأطعمة إلى أعدائها وقد وضعت عليها علامة الكويت ، مما كان يعنى تراخى الشيخ سالم فى عملية المراقبة(٢) .

هكذا تشابكت عدد من الأمور الشائكة والمعقدة ، كان طرفها ابن سعود وسالم من جهة ، وابن سعود والشريف الحسين من جهة أخرى ، فخشيت بريطانيا من رد فعل سيء لذلك على العمليات السعكرية فى العراق من ناحية وعلى ثورة الشريف حسين من ناحية أخرى ، وأن الواجب التعاضد بين العرب وطرد الترك تماماً من بلادهم . فأرسل السير " ريجنالدوينجت " ، المندوب السامى البريطانى فى مصر ، كل من الكولونيل " لورانس " ومستر ستورز (السكرتير الشرقى للمندوب السامى فى مصر) أولهما إلى " جدة " لزيادة حركة مد الثورة العربية ، وثانيهما إلى بغداد للاتفاق مع مستر "كوكس" لكى يبعثه إلى نجد . إلاّ أن " ستورز " أصيب بضربة شمس أجبرته على العودة أدراجه إلى القاهرة . وتأثر كوكس من جراء ذلك فمن قبل فقدشكسبير. وعلى الرغم من ذلك اتفق على إرسال بعثة صغيرة إلى الرياض حتى يتمكن " ستورز " من اللحاق بها عبر الحجاز ، ولكن الشريف حسين عرقل هذا المسعى إذ رفض قبول أدنى مسئولية تجاه سلامة " ستورز " نظراً للاضطرابات فى الصحراء وفقاً لتبريره(٣) وإن كنا نرى أنه أراد التباعد بين بريطانيا وابن سعود حتى ينفرد بمعاملة أفضل ووضع أقوى فيما لو دخل ابن

---

(١) حسين خلف الشيخ خزعل : تاريخ الكويت السياسى ، جـ٤ ، ص١٠٦ .

(٢) نفس المرجع ، ص١٢٩ .

(3) Philby, JohnL: Saudi Arabia, pp. 274-275.

سعود كطرف ثالث . وفى سبتمبر ١٩١٧ استدعى " كوكس " الكلونيل "هاملتون" الوكيل السياسى البريطانى فى الكويت إليه فى بغداد وطلب منه التحقق من مسألة اكتيال قافلة " شمر سنجارة " ثم أوحى إليه بعزم الحكومة على ايفاد بعثة إلى الرياض وأن من المحتمل أن يعهد به إليها إلاّ أن هاملتون لم يتريث حتى تأتيه الموافقة وإنما قصد قلب شبه الجزيرة العربية مبرقاً إلى "كوكس" بأمر تحركه مقترحاً عليه أن يلحق به أعضاء البعثة المختارة كأنه كان مطمئناً إلى أن الاختيار قد وقع عليه . بينما كان اختيار بريطانيا قد استقر على مستر " فلبى " سكرتير " كوكس " خاصة وأنه يجيد التحدث باللغة العربية ، وألحق معه اللفتنانت " كنليف أوين " مفوضاً عن السلطات العسكرية بهدف تحديد حجم الدعم العسكرى اللازم لابن سعود . أما هاملتون فقد وضعه كوكس أمام أحد خيارين : إما أن يكون ممثلاً لآراء شيخ الكويت فى مفاوضاته مع ابن سعود ، وإما أن يقترح على ابن سعود أن يلتحق لديه كضابط سياسى ، وفى أى من الحالتين فإن عليه الالتزام برغبات مستر "فلبى". لكن هاملتون بعد وصوله للرياض ومحادثاته مع ابن سعود آثر العافية وقفل راجعاً إلى الكويت(١) .

بقيت لنا يوميات رحلته وملاحظاته السياسية تنطق بأمور لعلنا نكون فى أمس الحاجة للوقوف عليها لنتبين أبعاد قد تكون خافية لبعد الفترة الزمنية، ولأن قلب شبه الجزيرة العربية كان مقبلاً على تحولات سياسية كبرى . فأمكن الوقوف على أفكار ابن سعود إزاء ما كان يجابهه من أزمات كبيرة وتحديات أكبر .

---

(١) Q.R. 15/5/100: No 3822 Enc. No3822 Enc. No91, dated Kuwait, the 1st February 1918. From- lientenant- Colonel R. E. A Hamilton, Political Agent, Kuwait To. The Hon'ble Magor-General Sir P.Z. Cox Cuiil Commissioner.

أما عن الرحلة فكانت بهدف الاتصال السياسى فى المقام الأول وإشباع روح المعرفة فى المقام الثانى ، فلقد انطلقت من الكويت فى ٩أكتوبر ١٩١٧ بعد لقاء هاملتون مع أمير الكويت الشيخ سالم الصباح . وقد ضمت مجموعة الإبل المسلحة تسعة أشخاص من قبائل " عنيزة " و " مطير " و " ظفير " و "عجمان" بالإضافة إلى خمسة أشخاص أوفدهم من لدنه الشيخ سالم كما انضم إليهم فى أثناء المسير عبد العزيز رباحى أرسله ابن سعود ، وعلى الضويحى شيخ " الظفير " . ومن الواضح أن ابن سعود قد حرص على تأمين رحلة هاملتون فلم يكن على استعداد لأن يلقى مصير شكسبير من قبل .

كانت الرحلة شاقة تبعاً لوعورة الإقليم فما تقطعه الجمل لا يزيد عن ميلين ونصف إلى ميلين وثلاثة أرباع الميل فى الساعة ، وإن كان التحرك ما بين الصباح حتى قبيل الظهر يكون أسرع إذ أن السرعة تصبح بطيئة بعد الظهر . وإن قلت السرعة إلى ميل فى الساعة قبل الوصول " للزلفى " حيث واجهت القافلة متحدراً عميقاً وممراً ضيقاً حجرياً ، وكذلك الحال بالنسبة للطريق من " عنيزة " إلى " المذنب " حيث سارت القافلة على أرض وعرة صخرية قليلة النبات فى معظم أجزائها .

وإن قلة موارد المياه فى الجزيرة العربية جعلت هاملتون حريصاً بشكل ملحوظ على تقصى مدى صلاحية وعمق المياه فى كل من الآبار التى مرت بها رحلته فمنذ الانطلاق من الكويت لم يصادف آباراً عذبة إلا فى " سيرا " ثم آبار " القاعية " بعد مسيرة ثلاثة عشر يوماً تقريباً فما صادفهم من آبار من قبل لم تكن على نفس المستوى لا من حيث اللون ولا الطعم ، وأن المياه فى الغالب الأعم كانت تسحب بواسطة ماشية صغيرة أو عن طريق الجمال .

ومما جذب انتباهه عن الحياة الطبيعية الحدائق فى المرتفعات عند "الزلفى" وكذلك المساحة الخضراء بين " الزلفى " و " بريدة " ، ثم تسجيله بعد مغادرته " البرة " حتى وصوله إلى " وادى الحسى " ، شديد الانحدار ، وجود أشجار ضخمة لم يسبق له مشاهدة مثيلاً لها فى شبه الجزيرة العربية إذ بلغ ارتفاعها ما بين ٢٥ إلى ٣٠ قدماً .

أيضاً حينما حلوا بواد ضيق فى " النفود " قادهم إلى منخفض عميق فتوجد سلسلة طويلة من القرى والحدائق المسورة . أما الحيوانات التى رصدها فكانت الغزلان والأرانب البرية والدجاج البرى ، وطيور القطا .

سجل هاملتون تحفظاً على ما جاء من مقارنة بين " بريدة " وعنيزة " فى " دليل شبه الجزيرة العربية " فهو شخصيًا قد جذبته " عنيزة " وما يحيط بها من مزارع وأشجار الفاكهة فتجعل القادم من الصحراء مفتوناً برؤياها على عكس " بريدة " التى قال عن أسواقها أنها قد أصابته بخيبة أمل لتأخرها، بينما أسواق " عنيزة " أفضل من كل النواحى فالمحلات أكبر وتحتفظ بمخزون طيب من السلع . كذلك قال عن السكان بأنه لا وجه للمقارنة فاعتبر سكان " عنيزة " متمدنيون لحد كبير بحكم أسفارهم ولم يلاحظ فيها معوزين ومع ذلك أشاد بسكان " بريدة " وعدهم أكثر صراحة من سكان الزلفى "وانعكس تمدين سكان" عنيزة " على أسلوب حياتهم فنراه يشيد بفن العمارة فيها إذ اعتبره رائعاً وامتاز بالذوق الرفيع خصوصاً قصور كبار القوم التى نقش بداخلها نصوص من آيات قرآنية(١) .

---

(1) Ibid: 1Nov, 2Nov 1917.

كذلك عند مرور القافلة علـى " الزلفى " حرص هاملتون على رصد حالتها إذ كان هناك مدينة قديمـة تبعد أقل من ميلين عن المدينـة الجديـدة ، وكان ابن الرشيد قد دمرها قبل ذلك بسنوات ، بينما المدينة الجديدة يحيط بها جدار ارتفاعه ١٥ متراً وتربط بينها عدة أبراج مربعـة الشكل تطل على الجوانب الشرقية والغربية منها ، فضلاً عن أبراج مستديرة باتجاه الواجهات الشمالية والجنوبية(١) .

أما " الأرطاوية " فعلق عليها بقوله أنها أصبحت معقلاً قوياً من معاقل الإسلام بما تدعو إليه من ضرورة التمسك بالعقيدة الإسلامية والأخلاق الفاضلة ، وأن الأجنبى والغريب عنها يحجزا فى عزلة الزاوية لفترات متباينة حتى يتم التحقق من معتقداتهم . ومـن الواضح أنـه لم يدخلها فلقد اعترض الجميع على الذهاب إليها(٢) فقد أبدى البعـض اعتراضهم وتخوفهم من هذه الزيارة .

وإن تلك الرواية قد بلغت إليه عندما صادف من " الإخوان " مروره بالزلفى فوصف ملامحهم بالصرامة وعدم ارتياحهم لطبيعة الكويت المرحـة . تماماً مثلما سمع من المحيطين بـه عن سكان " بريدة " أنهم ميالهم للتشدد الدينى . وإنا نرى أن سريان الدعوة السلفية والتمسك بها كان محل دهشة من جانب هاملتون ورفاق رحلته فوردت هذه التعليقات تبعاً لذلك .

وتوكيداً على حرص ابن سعود على توفير الحماية والرعاية لهاملتون ما يمكن رصده من مواقف أمراء المدن التى مرت رحلته بها فإنهم كانوا

(1) Ibid: 25: Oct, 1917.

(2) Ibid: 17: Oct, 1917.

يلقونه بترحاب كأمير " بريدة ، عبد العزيز بن جلوى ، وأمير " عنيزة " ، عبد الله الخالد العبد الله بن زامل . وأشاد هاملتون بآل زامل وقال عنهم أنهم من " بنى سليم " وهى عشيرة مثالية أكثر دماثة وتهذيباً وبلغوا درجة عالية من التمدين(١) . وأوعز هاملتون ترحاب السكان به لكونه ضيف ابن سعود فكانت الابتسامة تعلو وجوههم ولم يلمس فظاظة فى سلوكياتهم(٢) .

ولما حل " بالمذنب " أخبره أميرها ، فهد بن عبد الكريم ، أن ابن سعود جعل منها نقطة استراحة فى ذهابه وإيابه من القصيم ، وإنها تبعد عن المدينة ميل ونصف الميل ، وأن البئر الذى فى قصره تمتاز مياهه بعزوبتها وهى أفض ما تم شربه منذ مغادرته الكويت .

وقال هاملتون بأن " المذنب " تشبه إلى حد كبير القرية الهندية نظراً لأن التربة طينية كلها ومستوية تماماً فلا أثر للرمال فى أى مكان وإنما حقول الذرة والشعير والحدائق فى كل مكان ، فالقرى تحيط بالمدينة لمسافة ميلين وقدر عدد سكانها بثلاثة آلاف نسمة . واشار بدوره بشخصية أمير "المذنب" الذى ظل ٢٥ عاماً فى منصبه وبشدة ولائه لابن سعود ، فحينما قدم إليه هدية عبارة عن عباءة أنيقة وسبعين دولاراً رفض قبولها جميعاً فقال أنه بوصفه خادماً مخلصاً لابن سعود فإنه لا يستطيع قبول ذلك بدون موافقة منه(٣) .

ولما عبر هاملتون " النفود " ليهبط على " شقاء " و " أشيقر " قال أن هذه الأخيرة فرع من هضبة شقراء ، وإن كانت مدينة كبيرة فهى أكبر من

---

(1) Ibid: 2 [illegible] 1917.

(2) Ibid: 4 Nov, 1917.

(3) Ibid: 4 Nov, 1917.

"المذنب" . أما " شقاء " فقال عنها أنها مدينة كبيرة تحيط بها الحدائق ووصفها بأنها " عنيزة " مصغرة وأن سوقها صغير كسوق " الزلفى " وقدر عدد سكانها ما بين خمسة آلاف وستة آلاف نسمة(١) .

وفى " ثرمداء " استقبله أميرها، عبدالرحمن العنقرى ، فوصفه هاملتون بأنه ودود إلى حد بعيد ، ولفت نظره وجود عدد كبير من "الإخوان" فيها ، وقال عنها إن حدائقها بهيجة وتنمو بوفرة فيها الذرة وأشجار الليمون الحامض والبطيخ والخضروات ، وأن المياه فى البترين بها على مسافة ستين قدماً(٢) .

أما أمير " البرة " فكان ترحابه بها ملتون ساخناً حينما رفع غترته وطبع قبلتين على وجنتيه فرد عليه قائلاً " الله يحفظ " . ولقد جذبت طبيعة الهضاب الصخرية الشاهقة عند جبل " طويق " من ناحية " البرة " انتباه هاملتون(٣) ، فمن المعلوم أن هناك ثلاثة وستون آنفاً من آنوف العار وأكثرها شهرة(٤) .

كذلك رصد هاملتون عندما حل بوادى حنيفة أطلال مدينة " العينية " المهيبة التى كان يمتد طولها أقل من ثلاثة أميال ، والمياه فى بئها على عمق ٩٦ قدماً ، وبداخل تلك المدينة توجد أيضاً أطلال قرية " الجبيلة " والمقبرة الشهيرة فيها التى ضمت فى الأصل رفات شهداء حملة خالد بن الوليد حينما قاتل المرتدين فى عصر الإسلام الأول(٥) .

---

(1) Ibid: 9 Nov, 1917.

(2) Ibid: 10 Nov, 1917.

(3) Ibid: 11 Nov, 1917.

(٤) عبد الله بن خميس : معجم اليمامة ، جـ١ ، ص٣٤٨ – ٣٥٣ .

(5) Opict: 12 Nov, 1917.

وقبل أن ننتقل إلى دخول هاملتون إلى الرياض واللقاء مع ابن سعود حرى بنا أن نتوقف عندما التقى والأمير تركى بن عبد العزيز حينما حل ببريدة حيث ركز على وصفه ، وعلى الحوار بينهما . أما عن ملامحه فقال إن قوامه رفيع ويبدو على نحو متماثل مع ملامح أبيه وأن اختلف عنه فى بنيان جسده ، وله عينان سوداوتان صغيرتان ، دقيق الملامح ، وأنه يجمع فى خصاله ما بين الأشراق والرقة ، وتعلو وجهه تعابير السرور ، ودود فى أحاديثه ، كريم فى ضيافته ، وأضاف أن مكانته كبيرة عند والده .

أما الحديث فتمحور حول نقطتين أساسيتين :

النقطة الأولى : وصول قافلة كبيرة من ٣ آلاف جمل إلى الكويت تخص " شمر سنجارة " وبرفقتها شيخان يحملان خطابات من الأمير تركى تقول بأن هؤلاء المشربين من أولئك الفريق الذى انضم إلى جانبه ابن سعود وقد خشيت السلطات البريطانية من أن تتسرب بعض البضائع إلى حائل أو إلى الترك خصوصاً أنهم كانوا تابعين فى الأصل لابن الرشيد . فأوضح تركى أنه حينما أعطى قافلة شمر تصريحاً بالمرور فكان ذلك بقصد أن تكون سبيلاً للأمان بين قبائله خصوصاً أن والده طلب إليه احتذاب شمر ومنهم من العودة لابن الرشيد ، وأنه لم يقصد إعطاءهم جوازاً للمرور فى الطريق إلى الكويت ، وفيما يبدو فإنهم استغلوا هذا التصريح وقدموه بدورهم إلى الشيخ سالم فاعتمده بحكم أنه صادر من تركى بن عبد العزيز ومنحهم حق المسابلة، فلقد جنى البعض فوائد كثيرة من الاتجار فى ظل وجود الحصار البريطانى .

النقطة الثانية : لما أثيرت مسألة احتمال الاستيلاء على حايل حينما يكون ابن الرشيد فى موقف ضعيف للغاية ، أوضح تركى بأن من المتعذر

مباغته ابن الرشيد على وجه السرعة لوجود حامية تركية محصنة تحصيناً قوياً(١) .

وفى ١٣ نوفمبر ١٩١٧ بلغت القافلة " الرياض " ، ومن المدهش أن هاملتون اعتبرها صغيرة نسبياً لدرجة أن اعتبر " شقراء " أكبر منها . وفيما يبدو اعتبر قرية " منفوحة " خارج نطاق الرياض . ومع ذلك أشاد بحدائق الرياض وقال عنها أنها بهيجة كما سجل ملاحظة جديرة بالاعتبار حول التعمير الذى بدأ يتعهده ابن سعود فقال أن الخرائب الواسعة والأسوار القديمة من المدينة السابقة أخذة فى الانحسار بالتدريج(٢) .

حرص هاملتون على اللقاء مع الإمام عبد الرحمن آل سعود وقال عنه بأن له شخصية جذابة وعيناه تنطقان بالصدق والحكمة ، وتناولا أطراف الحديث فى الأمور السياسية ولمس هاملتون وده القوى نحو الإنجليز(٣) .

أما اللقاءات مع ابن سعود فاتسمت بصراحة الموقف السياسى وإلقائه اللائمة على بريطانيا لوقوفها إلى جانب خصومه بالدعم والتأييد وتأثر مناطقه من جراء الحرب بارتفاع أثمان كل شيء فيها . ويمكننا تركيز المناقشات فى ثلاثة محاور هى على النحو التالى :

(أ) وضع ابن الرشيد .

(ب) وضع العجمان .

(جـ) الموقف تجاه الحسين .

(1) Ibid: 30 Oct, 31 Oct, 1917.

(2) Ibid: 19 Nov, 20 Nov, 1917.

(3) Ibid: 13 Nov, 1917.

أما بالنسبة للنقطة الأولى : فأوضح ابن سعود أن الاتفاق مع بريطانيا كان يقضى بالحفاظ على سيطرته الكاملة على القصيم ، فهو يحتفظ فيها بقوة قوامها أربعة آلاف رجل تكلفتها لا تقل عن ٥٦ ألف دولار ، وممارسة ضغط حقيقى على شمر ، وأنه شكل تهديداً مستمراً لابن الرشيد . إلاّ أنه أوضح أن هناك صعوبة فى الاستيلاء على " حايل " فلقد قاتل وأسلافه منذ أربعين عاماً لهذا الهدف وكانت النتيجة غير حسامة . فأوعز قوة شمر إلى عدة عوامل : أنها قبيلة متحدة ، وأن شمر مقاتلون مهيبون وأنه من المشكوك فيه لأى قبائل متحدة أن يكون بوسعها هزيمتهم على الأقل فى جبل شمر أو بالقرب منه ، وأن ابن الرشيد نفسه شيخ شمرى ، ثم أن من الممكن أن تعتمد حايل دائماً على دعم الحكومة التركية، فلقد تلقى ابن الرشيد مزيداً من التشجيع من الترك خلال الحرب سواء فىصورة مال أو أسلحة أو جنود لحامية حايل، كما بوسع الترك أن يردوا بنجدة حربية عند الضرورة ، وطالما أن الترك يحتفظون بالمدينة المنورة وخط السكة الحديد فإن مركز ابن الرشيد سيكون قوياً .

لذلك يعتقد ابن سعود أن الإجراءات الاقتصادية المطبقة عن طريق وسائل الحصار الصارم ستكون من أفضل النتائج لاجتذاب شمر . والواجب التعامل مع شمر ككيان واحد ورفض أى علاقات أكثر مع " ابن طوالة " والأقسام الأخرى أولئك الذين يتظاهرون بالصداقة فى القوت الراهن حتى يتم إخضاع القبيلة كلها فإنه ليس هناك أدنى شك فى ان شمر سوف تكون معزولة إلى الحد الذى ليس معه خيار آخر غير التسليم .. وتبعاً لذلك يطالب ابن سعود بالتحكم أكثر فى مواصلات وسط شبه الجزيرة العربية والسيطرة عن طريق وكلاء له فى كل الأسواق الرئيسية للمدن حتى تلك

التى تحت السيادة البريطانية(١) . ويقصد بذلك كربلاء والزبير والكويت وقطر وغيرهم.

(ب) وضع العجمان فى الكويت ، فأوضح ابن سعود أن العجمان لم يلتزموا بالشروط التى تم الاتفاق عليها فى الكويت فى نوفمبر ١٩١٦ والتى صادق ووفق عليها بدوره . وألقى باللائمة على الشيخ سالم الذى سمح لهم بالدخول إلى أقاليمه مرة أخرى مما ينطوى على عمل غير ودى . ويعتقد هاملتون أن سبب الخلافات بين ابن سعود وسالم الغيرة المتبادلة والتى يقول عنها بأنه شعر بها أكثر من سالم إذ سأله مراراً لماذا تمد بريطانيا ابن سعود بمدد شهرى"مما ينطوى بداهة بأننا لا نفعل شيئاً معه". ويرى ابن سعود أنه إذا ما جهز العشائر نحو ابن الرشيد فإن شيوخ عجمان تحت قيادة ابن حثلين حتماً سيتوجهون إلى ابن الرشيد ويتخذون موقعاً اتجاه جناح جيشه ويشلون حركة قطاع كبيرة من قواته، وبالتالى سيساهمون فى الإخفاق العام للهجوم المقصود.

كان من الجلى أن ابن سعود قد عانى الأمرّين من تمرد العجمان ، الذين يفضلون التنقل دوماً فى الديار الغربية ، والذين لا يطيعون شيوخهم فى الأوقات العادية وإن كانوا على استعداد كاف لاتباعهم وإطاعتهم فى أوقات الحرب . لذلك لمس هاملتون لم يلن إزاء هذه المسألة المعقدة ، فهو لا يريد أن يسمح بإعادتهم إلى الإحساء كما أنه لا يريد الموافقة على تحركهم نحو القصيم حيث ديرة " عتيبة " حتى ولو حضر عدد من شيوخهم إلى الرياض وتعهدوا بالسلوك الطيب فى المستقبل .

---

(1) I.O.R. 13286: Ibn Saud, Notes by Colonl Hamilton, Political Agent, Kuweit, based on Conversations at Riyadh in Nov, 1917.

لذلك فإن هاملتون كان على اقتناع بضرورة إجبار بريطانيا شيخ الكويت لإبعادهم ، أو تقليم أظافرهم بطريقة فعالة ، وأنه من الأوفق استدعاء زعماء قبيلتهم إلى البصرة أو الكويت لسماع قرار الحكومة ، وعليهم أن يختاروا بين الخضوع لابن سعود أو أن ينزحوا عن كل أقاليم القبائل الصديقة للحكومة البريطانية حتى يمكن تحقيق نشاط أكبر من جانب ابن سعود فى مهمة تحطيم ابن الرشيد ومساعدة الشريف لطرد الترك من الجزيرة العربية وسوريا الجنوبية . كذلك كان من رأى هاملتون أن العجمان يزدادون ضعفاً نتيجة لكثرة تجوالهم وأنهم سوف يتوقفوا عن مقاومة ابن سعود ، لذلك ألمح لحكومة الهند بأنه إذا لم تمنحهم شمر ملتجأ أمن فإن على بريطانيا أن تأخذ على عاتقها المسئولية مرة أخرى حيالهم بنقلهم إلى الزبير أو أى مكان آخر(١).

(جـ) الموقف تجاه الملك حسين : من المسلم به أن ابن سعود قد استثار إلى حد الانفعال الشديد لاتخاذ الشريف لقلب ملك بلاد العرب(٢) . واستمراره فى إثارة دعاوية بالملكية على العرب(٣) . والواضح أن بريطانيا تفهمت إلى حد كبير صعوبة الاعتراف باللقب الجديد خشية تفكيك اتحاد الحكام العرب ، وعرقلة تنظيم جزيرة العرب على أساس متين ، فضلاً عن صعوبة تسوية قضية اللقب بدون موافقة عامة من قبل الحكام العرب(٤) .

---

(1) Ibid.

(2) Ibid.

(3) Philby: Arablanxlays. London 1948 p. 153.

(٤) **طالب محمد وهيم :** مملكة الحجاز (١٩١٦ - ١٩٢٥) دراسة فى الأوضاع السياسية . منشورات مركز دراسات الخليج العربى - جامعة البصرة ، ط-١ ، عام ١٩٨٢ ، ص٧٤ .

وإننا نرى أن الحسين كان ولا شك قلقاً من ابن سعود خاصة بعد توسع دائرة الدعوة السلفية وإمكان نشرها مرة أخرى على الحجاز ، لذلك فإنه لم يأل جهداً فى مقاومة هذا التيار ببذله الكثير من المال الذى كان يتلقاه من الإنجليز مما أكسبه مكانة كبيرة وقتية .

ففى ثنايا الحديث بين هاملتون وابن سعود أكد الأول على تلقى الشريف حسين إعانات كبيرة من الإنجليز فتمكن معها من أن يجمع حوله ليس فقط كل عشائر الحجاز والمناطق المجاورة ولكن سحب إلى جانبه كل قبائل " عتيبة " و " حرب " التى يعتبرها ابن سعود تابعين له ، بل إنه جذب من أبناء القصيم وحدها ما لا يقل عن أربعة آلاف عدا البدو(١) . فالشريف كان يعطى رواتب بمقدار ستة جنيهات شهرية لبعض الأفراد من العرب فيتعامل معهم كأنهم جنود مرتزقة وأن ابن سعود ضد هذا المنهج إذ قال أن رجال قبائله من المجاهدين الذين يخدمون ويحاربون فى سبيل العقيدة وليس لقاء أجر . فيرى ابن سعود أن القبائل التى تؤيد الحسين سوف تعود أدراجها لولائها السابق ، وأكد بأن الشريف على علاقات سيئة مع جماعة من "حرب" كما أن قسماً من " عتيبة " قد تحولوا على نحو جماعى للإخوان ، فهم ينظرون إلى " نجد " كمصدر للحرية والدين والدنيا . وأنه عقد الآمال على الدعوة السلفية كى يعيد أمجاد أجداده ثم يؤكد ابن سعود أنه لولا تهديده لابن الرشيد المستمر وتحجيم قوته لما تمكن الحسين من القيام فى وجه الترك ، فابن الرشيد كان سيقف للحيلولة دون أى نشاط للحسين .

وأوضح ابن سعود لهاملتون أنه قاوم العديد من عروض الترك لمحاولة إعادة المفاوضات معه ، وتوكيداً على ذلك أطلعه على رسالة من فخرى باشا،

---

(1) I.O.R: B 286: IbN Saud, Notes by Colonel Hamilton. Based on Conversation at Riyadh in Nov. 1917.

قائد المدينة المنورة ، تساءل فيها عن عدم الإجابة على رسالته الودية فى العام الماضى . كذلك أطلعه على الرسالة الأخرى المشار إليها ويؤكد هاملتون أنها رسالتان حقيقيتان(١) .

وفى الواقع أراد الملك حسين استغلال هذه الرسائل لعلمه بها فاتهم ابن سعود بالتواطؤ مع العثمانيين(٢) .

لذلك فإننا نرى أن الحين كان من وراء الشائعات التى تحاول الإيهام بعلاقة ابن سعود بالترك فىمحاولة لدق أسفين فى العلاقة بينه وبين الإنجليز.

فهاملتون يقول أن ثمة شائعة واعتقاد عام بأن ابن سعود يتلقى مساعدات من الترك ، بل وإنه أثناء رحلته عبر " الوشم " أُخبر بأن جماعة من تسعة أتراك وضباط ألمان قد انصرفوا من الرياض وعبروا بالقرب من "شقرا" فى الاتجاه المعاكس لرحلته ، ولكن هاملتون بعد اللقاء مع ابن سعود قال إن من الصعوبة بمكان تصديق ذلك ، وهو أمر بعيد الاحتمال ، ولو أن بعض المحيطين بابن سعود ميالون للترك ، أو ميالون لسياسة حذرة فى مواجهة احتمال عودة العثمانيين(٣) .

ويرى هاملتون أن الحذر نابع من عدم وضوح مصير الحرب العالمية الأولى ، هل هى لصالح الحلفاء أم دول الوسط ؟ فأى من الجانبين سوف ينتصر ففى حالة فوز الحلفاء وطرد الترك من شبه الجزيرة العربية فإن مشاعره سوف تجرح حينما يجد الحسين قد أسس ملكية قوية ولها نفوذ قادرة

(1) Ibid.

(2) Philby: Arabian Days p. 161.

(3) I.Q.R. B286: IBN Saud.

على الحصول على دعم بريطانيا ومعها العالم الإسلامى بينما ابن سعود فلن يطرأ على مركزه تغيير فيبقى كما كان الحال قبل الحرب . أما فى حالة فوز دول الوسط فإنه من الطبيعى أن يسقط الحسين ويبقى الموقف بعد ذلك لصالح ابن سعود فبوسعه أن يظفر بنوع من الاتفاق مع الترك معتمداً على فطنته السياسية . وأضاف هاملتون أن ذلك لا يعنى أن ابن سعود محب للترك فإنه كاره لهم كما فعل أجداده ، ولكنه يميل للتعامل مع الإنجليز "ولو أنهم كافرون". ولكن تلك مسألة سياسية فعليه النظر للمسألة كاملة من وجهة نظر المصلحة سواء مصلحة سلالته الحاكمة أو وفاءً بالعهد للسلفية . لذلك فليس بوسع أحد أن يستميله لأى موقف ما لم يمكن الهدف متمشياً مع مصالحه . ومن هذا المنطلق يفسر هاملتون السبب فى أن ابن سعود لم يحاول جدياً الاستيلاء على " حايل " أو أن يفى بأى عمل بطولى جدير بالاعتبار خلال الحرب ، وفى النهاية طرح هاملتون عدداً من الوصايا أمام حكومته عن كيفية التعامل مع ابن سعود فى تلك المرحلة يمكن إبرازها على النحو التالى :

١ - الالتزام نحوه بنفس السياسة القائمة على الثقة والأمانة كتلك التى يتم اتباعها مع الشريف .

٢ - التعامل مع ابن سعود على قدم المساواة مع الشريف والاعتراف بسيطرته فى المناطق الخاضعة له وملحقاتها .

٣ - أن كل حصص القبائل التى تعطيها بريطانيا لقبائل وسط شبه الجزيرة لا بد أن تدفع من خلال ابن سعود والمقيم البريطانى المفوض لديه .

٤ - أن يمثل الحكومة البريطانية المقيم السياسى .

٥ – التحكم فى حركة القوافل من الداخل من كربلاء ، وسماوة ، وخميسين ، والزبير ، والكويت ، وقطر والأسواق الأخرى عن طريق ابن سعود ، الذى يحتفظ بوكلاء له فى كل من هذه الأسواق ، فضلاً عن المقيم البريطانى .

٦ – تمنح المساعدات له مع المعدات العسكرية وإعارة المهندسين والمعلمين بنسبة مقدار العمليات المتوقعة منه أو القوات المسلحة التى يتطلبها وتجعله فى حالة جيدة .

٧ – أن على بريطانيا مساعدته فى إعادة توطيد التجارة فى موانىء الإحساء وذلك عن طريق خدمة منتظمة للسفن البخارية مع الهند .

على أن يتم بلورة كل هذه الأمور فى وثيقة رسمية أو معاهدة مشابهة للمعاهدة القائمة بينه وبين بريطانيا .

هكذا كان ابن سعود فى موقف حرج فى فترة الحرب وسياسة بريطانيا جعلته متحيراً لذلك فإنه أكد " لفلبى " بعد ذلك عند قدومه بعد مغادرة هاملتون بأن لا يستطيع الإبقاء على يديه مغلولتين إلى ما لا نهاية . بينما هو مهاجم من الجانبين (الحسين ، والعجمان) الذين يتمتعون بحماية بريطانيا . ويعترف " فلبى " بأن نفوذ بريطانيا قد يعانى من التدهور الخطير فى وسط شبه الجزيرة العربية وأن ابن سعود بوسعه إيذاء المصالح البريطانية ، وأن من شأن هذه التعقيدات أن تؤخر بشكل خطير العمليات ضد " شمر " التى احتلت المركز الرابع فى لائحة خصوم ابن سعود(١) .

---

(١) وذلك بعد الشريف الحسين والعجمان والكويت .

F.Q. 3713390: Telegram No. 6489, 7 August, 1918.

فبريطانيا كانت تعلم أن سقوط حايل سوف يعنى سقوط العثمانيين من "المدنية المنورة" لذلك فإنها عقدت الآمال الكبيرة على ابن سعود وذلك على الرغم من قيام عبد الله بن الحسين بضرب الحصار على المدينة .

وفى الواقع قدّر " كوكس " توصيات هاملتون وقال له أن اقتراحه بشأن إعطاء المزيد من الدعم لابن سعود قد أخذ فى اعتبار الحكومة البريطانية(١). ثم أن رؤية هاملتون فى مسألة العجمان التى وقف عليها جيداً من ابن سعود قد أسهمت فى تذليل مشكلة العجمان ، وذلك على الرغم من أن هاملتون قد غادر الكويت وقفل راجعاً إلى لندن بعد ذلك إلاَّ أنه أعطى الضوء الأخضر للكابتن – " لاخ " – الذى حل محله فىالكويت لكى يطلب من شيوخ العجمان الرحيل عن الكويت إلى أطياف الزبير وعقد اتفاقية معهم بهذا الشأن . وكان ذلك انفراجاً فىالعلاقات بين ابن سعود والشيخ سالم فتبادلا الرسائل الودية(٢).

على العموم قفل هاملتون راجعاً إلى الكويت بعد أن مكث فى الرياض واحداً وعشرين يوماً حينما أرسل كوكس ، مستر فلبى ، ليتولى أمر البعثة . ولا شك أن هاملتون قد تأثر من موقف قيادته فلقد لاذ بالصمت فى يومياته عن أمر المناقشات التى شارك فيها ممثلاً عن الكويت ، ولم يستطع الاستمرار فقال لكوكس إنه وجد الموقف معقد لدرجة لا تسمح له بالبقاء(٣) . وغادر الرياض فى ٥ ديسمبر ١٩١٧ قاصداً الكويت التى بلغها فى٢٨ ديسمبر حيث سلك طريقاً باتجاه شمال غربى . وكان على غير العادة فهو لا يسهب

(1) I.Q.R. 15/15/100: No 3822 Tel from Sir from Sir P.z Cox to the Colonel Hamilton.

(٢) حسين خلف الشيخ خزعل : تاريخ الكويت السياسى ، جـ٤ ، ص٢٠٦ .

(3) I.Q.R. 15/5/100 No. 3822 Tel from Sir P.z Cox to the Colonel Hamilton.

فى تفاصيل الرحلة مثلما الحال عند قدومه . فبعد خروجه من الرياض تحدث عن " الروضة " حيث تل رملى قرنفلى اللون عند سفح " العرمة " وقال عن جبل " العرمة " بأن لونه نفس لون جبل طويق أى طفلى رمادى بينما التلال الرملية أو النفود فهى دون اللون القرنفلى . ثم انتقل للحديث عن وادى شعب عرق بنبات حيث مرت الرحلة " بالمحمل " و " ملهم" و " الخفس " حيث قال عن الأخيرة بأنها مستقر للسيول وتظل تفيض بالمياه لمدة خمسة أشهر وأن ابن سعود يعتبرها منتجعاً مفضلاً(١) ، وحينما وصف الدهناء فإنه أشاد بتنوع أعشابها وجعل فى مقدمتها العرفج والنهى والأرقة حيث توجد مراع مدهشة ووصف اجتياز حبال الدهناء الرملية البالغة سبعة أحبل فى عرضها مؤكداً على أن الحبال الرملية عميقة الانحدار فى جانبها الشمالى ، وأن حبال الدهناء الشمالية أكثر ميلاً عن الجنوبية وأن حبل " جهام " يعد أعرض الحبال السبعة جميعاً . وبعد أن انتهت الرحلة من اجتياز الدهناء دخلوا إلى " الصمات " غير الممتع حيث التلال الصخرية ذات منخفضات . وأن الرمال ذات لون أصفر فاتح ووصف المنطقة بأنها موحشة وانعكس ذلك حتى على كلاب الصيد فجرحت الصخور أقدامها وحتى الصقر فقال عنه أنه لم يعجبه الطقس فكان متألماً من البرودة ومكتئباً . وأضاف أن حاجتهم للوقود كانت أكثر من حاجتهم إلى الماء . كما أصيب بحمى شديدة وأرسل إلى الكويت طالباً المساعدة الطبية . ولما وصلها فى ٢٨ ديسمبر قال أنه التزم الراحة(٢) .

---

(١) I.Q.R. 15/5/100. No. 3822 Enc in No. 91. Kuwait 1st. Feb. 1918. From Hamilton.

(2) Ibid.

فى الواقع أن رحلة هاملتون لم تحظ كغيرها من رحلات السابقين لشبه الجزيرة العربية بسمة ذائعة ، وحتى " فلبى " الذى حل محله طغى برحلته عليه ، على الرغم من أن هاملتون كان له اهتمامات لا تقل عن الرحالة السابقين فهو يقف عند تفاصيل دقيقة عن التضاريس والمناخ والمواقع فى شبه الجزيرة العربية وحال المدن والمستوى الحضارة الذى انت عليه . ولو أن الباعث السياسى كان طاغياً بفعل التحولات السياسية التى كانت تنتظر المنطقة ، بل العالم فى خضم الحرب العالمية الأولى . فكان من المفيد رصد الأوضاع القبلية ووقوف بريطانيا على أمور قلب جزيرة العرب بعد تنامى قوة ابن سعود ، فيما كانت عازفة من قبل عن التورط بشأنها وكيفية مواجهة ابن سعود للتحديات بعد أن تعدد الخصوم من حوله .

الخاتمـة

مما لا شك فيه أن الرحلة التى قام بها هاملتون أظهرت الدور الحضارى والثقافى والدينى الذى ينتظر البلاد وهو امتداد للتراث الإسلامى العظيم الذى شمل المنطقة منذ فجر الإسلام ، فتواصلت الصحوة على يد ابن سعود ، الذى بنى دولة ورفع علماً ، وأقام نظاماً إسلامياً فريداً فى المنطقة بأسرها ، وهى من حركات البعث الإسلامى الحديث ، ويكفى أن الدولة طبقت الشرع الإسلامى ، وأخذت من مبادىء العقيدة الإسلامية منهاجاً لها ، وتوحدت البلاد ، وانتشر الأمن وعم الرخاء ، ونتج عن كل ذلك مؤشرات حضارية إسلامية لم تشهدها المنطقة ردحاً من الزمن .

وكما سبق القول ، فرغم أن الرحلة هامة من وجهة النظر التاريخية والاجتماعية ، إلا أنها لم تحظ كغيرها من الرحلات ، لكنها ألقت الضوء على كثير من المعارف الهامة فى بعض المجالات ، خاصة فى مجال البيئة البشرية والطبيعية ، وقد قصدت إبراز هذه الرحلة ، لأنها تصور الحياة فى شتى صورها فى منطقة الجزيرة والخليج ، وتساعد الدارسين كثيراً ، كما هى سجل يوضح جوانب هامة من الصعب إغفالها وإهمالها .

سلطنة أوفات الإسلامية فى العصور الوسطى

(٦٠٠ - ٩٠٠هـ / ١٢٠٠ - ١٥٠٠م)

الدكتور / غيثان بن على بن جريس

أستاذ التاريخ الإسلامى المشارك

ورئيس قسم التاريخ - كلية التربية

جامعة الملك سعود - فرع أبها

أدت الهجرات العربية الإسلامية إلى شرق أفريقيا دوراً مُهمّاً فى تشكيل تاريخ تلك المنطقة اقتصادياً وسياسياً ودينياً ، وغير ذلك من الجوانب الأخرى المرتبطة بالعامل التاريخى . ذلك أن الإمارات والمراكز التى أنشأها العرب المسلمون في تلك المنطقة ساهمت إسهاماً إيجابياً فى نقل الحضارة والفكر الإسلامى إلى الساحل الأفريقى ، وعلى الأخص أثيوبيا والصومال ، ومن ثم إلى الداخل(١) . والواقع أن سواحل منطقة القرن الأفريقى كانت دائماً مراكز مهمة للمواصلات ، ومنطقة لاستقبال الهجرات منذ أقدم العصور ، وهى

---

(١) محمد بن حبيب . كتاب المنمق فى أخبار قريش . تحقيق خورشيد أحمد فاروق (بيروت ١٤٠٤هـ/١٩٨٥م) ص٣٢ وما بعدها ؛ أبو محمد بن عبد الملك بن هشام . السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين (القاهرة : د . ت) جـ١ ، ص٣٢١ - ٣٢٢ ؛ السر سيد أحمد العراقى ." الإسلام ومراكز الثقافة الإسلامية فى أثيوبيا والصومال " . (ندوة العلماء الأفارقة ومساهماتهم فى الحضارة العربية الإسلامية - الخرطوم٢٨ / ٣٠ يوليو ١٩٨٣م) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، معهد البحوث والدراسات العربية (بغداد ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ص١٥٩ - ١٦٠ ، غيثان ابن على بن جريس . بحوث فى التاريخ والحضارة الإسلامية . تقديم ومراجعة سعيد عبد الفتاح عاشور (الأسكندرية ، ١٩٩٤م) جـ١ ، ص٩ - ٣٧ .

الهجرات التى لعبت دوراً كبيراً فى تشكيل الحياة الاجتماعية والثقافية والفكرية فى منطقة حيوية هاجر إليها المسلمون ، وانتشروا فيها ، مما أدى إلى قيام ممالك إسلامية عرفت باسم " دول الطراز الإسلامى " وأهمها مملكة (أوفات) الإسلامية التى بلغت درجة كبيرة من التقدم والرفاهية فى العصور الوسطى فضلاً على ما أسهمت به فى نشر الإسلام والحضارة الإسلامية، كما تزعمت حركة جهاد إسلامى ضد أباطرة الحبشة وبطارقتها .

والاهتمام بدراسة منطقة تعتبر من المناطق الإسلامية المهمة التى أدت دورها كاملاً فى نشر الإسلام والثقافة الإسلامية ، جدير بالعناية والاهتمام وذلك اعتزازاً بالتراث الإسلامى وحفاظاً له من الضياع ، وعملاً على تسجيله فى صفحات التاريخ ، فضلاً على إبراز الجهود الرائعة التى بذلت فى مجال نشر العقيدة الإسلامية فى تلك الحقبة . ومن هنا كان اهتمامنا بدراسة موضوع " مملكة أوفات الإسلامية " بوصفه من الموضوعات المهمة الجديرة بالبحث والتقصى ، إذ تمثل الفترة التي شغلتها تلك الدولة الإسلامية ، حلقة من حلقات تاريخ منطقة مهمة لم تحظ بنصيبها الكافي من الدراسة . وقد شملت مملكة (أوفات) الإسلامية سواحل وداخلية شمال وشرق جمهورية الصومال ، وجمهورية جيبوتى ، وبعض مناطق الصومال الغربى (أوجادين) حتى أطراف هضبة شوا الحالية وبعض مناطقها الشرقية ، كما امتدت فى بعض فترات سيادتها إلى معظم أجزاء أثيوبيا الحالية(١) .

(١) للمزيد من التفصيلات انظر ، أنطونى سلرى . الجغرافية الاجتماعية لأفريقيا . ترجمة إبراهيم رزقانة ومحمد جمال الدين رزقانة(الإسكندرية ، ١٩٨١م) ص٢٥٦ -٢٥٨ ؛ غيثان بن على بن جريس . " الهجرات العربية إلى ساحل شرقى أفريقية فى =

لم تكن سواحل أثيوبيا والصومال مجهولة لدى شعوب العالم الخارجى منذ أقدم العصور ، إذ كشفت البحوث التاريخية والأثرية عن وجود صلات قديمة ومستمرة بين هذه السواحل وشعوب العالم الخارجي . وقد اهتم العرب بالدراسات الجغرافية والفلكية والطبيعية والتجارية المتعلقة بتلك البلاد. وأشهر الرواد العرب الذين تحدثوا عن بلاد أفريقيا الشرقية،وخاصةأثيوبيا والصومال هم: المسعودى وابن حوقل والإصطخرى والأدريسى وأبو الفداء وغيرهم(١).

وهكذا كان العرب من أهم الشعوب التى اتصلت بأثيوبيا والصومال منذ القدم ، وقد نشطوا فى الاتصال بتلك المناطق منذ زمن دول معين وسبأ وحمير فى اليمن وكان لهذه الدول نشاط كبير فى الحركة التجارية البحرية والبرية إذ تمكنت من السيطرة على تجارة العالم القديم فى المحيط الهندى وسواحل شرق أفريقيا . كذلك كان لعرب الحجاز دور كبير فىهذا المضمار، بعد أن تمكنوا من السيطرة على ناصية التجارة عقب تدهور دول الجنوب منذ

= العصور الوسطى وآثارها الاجتماعية والثقافية والتجارية حتى القرن الرابع الهجرى " (بحث منشور بمركز بحوث كلية التربية بأبها - جامعة الملك سعود ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م) ص ١ - ٨ .

(١) للمزيد من التفصيلات انظر ، على بن الحسين المسعودى . مروج الذهب ومعادن الجوهر (بيروت ، ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤م) جـ٢ ، ص٣٤ وما بعدها ، أبو القاسم ابن حوقل ، كتاب صورة الأرض ، تحقيق ام . دى غوى (ليدن ، ١٩٣٨ م) ص٣٤ وما بعدها ؛ إبراهيم بن محمد الإصطخرى . مسالك الممالك . تحقيق ام .دى غوى (ليدن، ١٩٢٧م) ص٧-٨ ؛ محمد بن عبد الله الإدريسى . كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق (بيروت ، ١٤٠٩ هـ/١٩٨٩م) جـ١ ، ص١٠٩ - ١٣١ ؛ عماد الدين إسماعيل أبو الفداء . تقويم البلدان (باريس ، ١٨٤٠م) ص١٥٢ - ١٦٣ ؛ السر العراقى " الإسلام ومراكز الثقافة الإسلامية ...ص١٥٩ - ١٦١ .

القرن السادس الميلادى(١) ثم تدفقت مجموعات العرب والمسلمين بعد ازدهار الإسلام ديناً ودولة ، فأنشأوا المراكز والإمارات العربية ، ونشروا الإسلام بين القبائل الأفريقية التى كان من أهمها : الصوماليون والأحباش والدناقل والجالا والبانتو والبجة ، ومن بينهم الأريتريون وغيرهم وقد حمل دعاة الإسلام إلى هذه البلاد حضارة ذات مظاهر ثلاثة :

١ – طابع الحضارة العربية من حرية العقيدة وحرية الفكر وعدم الجمود.

٢ – ثقافة عربية إسلامية جامعة شاملة لمختلف الفنون والعلوم .

٣ – الدين الإسلامى نفسه الذى يتلائم مع كل زمان ومكان .

وهكذا كان المهاجرون يحملون طابعاً جديداً بالإضافة إلى نشاطهم التجارى القديم وهذا الطابع الجديد يتمثل فى عقائدهم ومذاهبهم التى سادت فى بلادهم نتيجة لظهور الإسلام وماتلاه من نشوء الفرق والمذاهب الواحدة تلو الأخرى لنشر الدعوة ، وتحكمت فى ذلك عوامل اقتصادية أو سياسية أو دينية أو اجتماعية ، إذ إنها جميعاً لم تصل فى وقت واحد .

وقد قامت الدعوة للدين الإسلامى فى أثيوبيا منذ ظهور الإسلام ، ويُؤَرَّخ لدخول الإسلام فى أثيوبيا بهجرة المسلمين الأولى للحبشة ، ثم كثر

---

(١) أحمد بن واضح اليعقوبى . تاريخ اليعقوبى ، تحقيق هوتسمان (ليدن ، ١٨٨٣م) جـ٢ ، ص١٧٧ ، أحمد بن يحيى البلاذرى . فتوح البلدان ، تحقيق صلاح الدين المنجد . (القاهرة ، د .ت) ص١٥٣، ٧٠٣ ، جواد على . المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط٢ (بغداد ، ١٩٧٧م) جـ٢ ، ص٣٠١ – ٣٠٢

R . Coupland . East Africa and its Invaders (Oxford , 1938) pp . 15 - 16, A . Z . March & G. W. Kingsnorth. An Introduction to History of East Africa (London, 1966) pp. 8 - 9 ; P - Crone . Meccan Trade and the Rise of Islam (Oxford, 1987) pp. 124 - 5; M . J . Kister " Some Reports Concerning Mecca from Jahiliyya to Islam " Studies in Jahiliyya and Early Islam .(London, 1980) pp. 61 - 62 .

توافد المسلمين بعد ذلك للأهداف التجارية بعد أن دانت لهم بلاد العرب ، حتى اضحوا يتحكمون فى طرق القوافل داخل الجزيرة العربية . كما أسهموا بنشاط كبير فى التجارة الشرقية بين مصر والهند عن طريق البحر الأحمر ، كذلك اخترق عدد منهم الحدود الحبشية وأسسوا مراكز استقرار بالتدريج ، وتحكموا فى ثغور الحبشة المهمة التي كان من أهمها ميناء عدوليس(Adulis) مما أدى فى نهاية الأمر إلىالقضاء على تجارة الحبشة الخارجية(١) . ونتيجة لذلك انحطت مملكة أكسوم الحبشية ، وهى المملكة المسيطرة على ذلك الجزء ردحاً طويلاً قبل ظهور الإسلام . وقد أخذ الإسلام بعد أفول أكسوم الحبشية يتقدم بخطى واسعة من الساحل إلى الداخل ، فاعتنقته القبائل التى تسكن شواطئ أرتيريا ،ثم انتشر بين بعض القبائل الناطقة بلغة التيجرى وفى جزء من قبيلة البلين فى معظم البجه ، وكذلك بين القبائل المتفرقة المسماة الجبرتة وقبيلة الدناقل (الدناكل) ، وتكونت على أثر ذلك مراكز استقرار على طول الساحل الشرقى لأفريقيا ، امتدت من سواكن على ساحل البحر الأحمر إلى مقديشو ومركة وبراوة وممبسة وزنجبار وكلوة . وفى الداخل من أثيوبيا امتزج المسلمون بالوطنيين وصاهروهم ، فأخذ الإسلام ينتشر تدريجياً

(١) انظر ، جلال الدين السيوطى . أزهار العروش فى أخبار الحبوش . مخطوط ومصور عن نسخة بالأسكوريال ، ميكروفلم رقم (٢٧) تاريخ (دار الكتب بالقاهرة) ورقة ٣٦ وما بعدها ؛ إبراهيم على طرخان . الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة فى العصور الوسطى .(القاهرة ، ١٩٥٩) ص ٢٩ - ٣٠ . غيثان بن على بن جريس . "تطور العلاقات السياسية والتجارية بين الحبشة وبلاد النوبة وبين الحجاز فى صدر الإسلام " مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية . العدد (٨) رجب ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م) ص٤١٢ - ٤٣٣ ؛ وللمؤلف نفسه .الهجرات العربية وانتشار الإسلام فى بلاد شرق أفريقية " مجلة المؤرخ العربى . (القاهرة ، ١٩٩٥) العدد (٣) المجلد (١) ص٦٧ - ٨٥ .

Sir E. A. W. Budge .
A History of Ethiopia & Abassinia . (London, 1928) Vol . I . pp. 120 -122 .

واعتنقته عناصر الساهو والعفر فى شرق الحبشة ، كما امتد إلى مناطق السيدامو الشرقية وجنوب الحبشة(١) . وكثر المسلمون فى أرض البجة ، وشجعهم على ذلك غنى المنطقة بمعادن الذهب والزمرد والفضة والنحاس والرصاص والحديد ، وامتزج المسلمون بالبجاويين وصاهروهم ، وكان من نتيجة ذلك دخول كثير من أهل البجة فى الإسلام . وأشهر القبائل العربية التى استقرت بها قوم من ربيعة وقحطان ، إلا أن قبائل ربيعة كانت أقوى العناصر التى سادت وغلبت على من جاورها من العرب القحطانيين(٢).

ومن المراكز التى تأسست فى منطقة شوا الشرقية بالحبشة مملكة يحتمل أنها قامت حوالى نهاية القرن الثالث الهجرى (نهاية القرن التاسع

---

(١) المسعودى ، مروج الذهب ، جـ١ ، ص ٥١ - ٥٢ ؛ يوسف فضل " انتشار الإسلام فى سودان وداى النيل " ندوة العلماء الأفارقة ومساهماتهم فى الحضارة الإسلامية (الخرطوم ٢٨/٣٠ يوليو تموز ١٩٨٣) (بغداد ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥ م) ص٢٥ - ٢٦؛ توماس أرنولد .الدعوة إلى الإسلام . ترجمة حسن إبراهيم حسن ، وعبد المجيد عابدين (القاهرة ، ١٩٤٧م) ص ٢٨٧ وما بعدها .

J. S. Trimingham Islam in Ethiopia (London, 1962) pp. 5 - 7, 32; Kamerer, Abyssinie et la mer Rauge (Le Cairo, 1929) p. 58; C. N. Stigand . The Land of Zing (London, 1913) pp. 104, 107; R . Reusch . History of East Africa (New York, 1961) pp . 18- 20 .

(٢) أحمد بن على المقريزى - الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام (القاهرة د. ت.) ص٢٢ وما بعدها ؛ أحمد الحفنى القنائى . الجواهر الحسان فى تاريخ الحبشان (القاهرة ١٣٢١هـ/١٩٠٣م) ص١٥ - ١٦ ؛ عبدالشافى غنيم عبدالقادر " البحر الأحمر طريقاً للدعوة الإسلامية " البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة المعاصرة . أبحاث الأسبوع العلمى ١٠ - ١٥ مارس ١٩٧٩م .(القاهرة ، ١٩٨٠م) ص٧٨ وما بعدها .

Yusul Fadl Hassan .
The Arabs and the Sudan (Khartoum, 1973) pp. 59 - 66 .

الميلادى) (٢٨٢هـ - ٨٩٦م) بزعامة أسرة عربية تنسب إلى قبيلة مخزوم القرشية ، وهى التى ينسب إليها خالد بن الوليد ويقال أن أفراد هذه الأسرة هاجروا عبر البحر الأحمر على عهد خلافة عمر بن الخطاب بزعامة ود بن هشام لتستقر هناك فى منطقة من أخصب مناطقها وهى منطقة شوا(١) .

كذلك قامت مشيخات إسلامية أخرى فى تلك المنطقة ومايليها شرقاً فى عدل (Adel) ومورا (Mora) وهوبات (Hobat) وجيدايا (Jidaya) غير أن هذه جميعاً لم تعمر طويلاً نظراً للخلافات والتنافس فيما بينها ، فضلاً على أن عنايتها كانت منصبة على شئون التجارة ، ولاسيما تجارة الرقيق ، فسرعان ما طوتها أقوى الإمارات الإسلامية فى بلاد الحبشة وهى إمارة أوفات(٢).

ولعل الفترة البارزة فى التوسع الإسلامى فى أثيوبيا ، تقع بين القرنين (الرابع والسادس الهجريين) (العاشر والثانى عشر الميلادى) ، فهذه هى فترة التوسع المنظم للإسلام ديناً ودولة ، من ناحية نشر العقيدة الإسلامية ، وتدعيم سلطان الممالك الإسلامية ، ولو على حساب بعضها البعض داخل الوطن الحبشى، فمثلاً تحولت منطقة نهر جوبا للإسلام حوالى عام(١١٠٨م)، وامتد سلطان المسلمين حتى منطقة البحيرات العظمى(٣) .

---

(١) للمزيد من التفصيلات انظر حمدى السيد .الصومال (القاهرة ، ١٩٥٠م) ص٣٥٠ - ٣٥١ ، غيثان بن على بن جريس " الهجرات العربية وانتشار الإسلام فى بلاد شرق أفريقية ..." ص٧١ ، Trimingham, Islam in Ethiopia . pp . 50 ff .

(٢) أبو العباس أحمد القلقشندى . صبح الأعشى فى صناعة الأنشاء (القاهرة ، ١٩٠٦ م) جـ٥ ، ص٣٢٤ وما بعدها ؛ غيثان بن على بن جريس . بحوث فى التاريخ والحضارة الإسلامية ، جـ١ ، ص١١ ، ٢٦٠ .

(٣) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص٣٢٢ - ٣٢٣، غيثان بن على بن جريس ، الهجرات العربية وانتشار الإسلام فى بلاد شرق أفريقية ... " ص٧١ - ٧٢ ، Trimingham, Islam in Ethiopia, pp . 62 ff

فأصبحت هذه الرقعة الإسلامية الممتدة في جزء من أفريقيا الشرقية تحيط بالحبشة من الناحية الشرقية ، وتقابل اليمن فى الجزيرة العربية ، ومن أجل هذا الوضع الجغرافى نعتها المؤرخون بمنطقة " الطراز الإسلامى " لأنها على جانب البحر كالطراز له(١) . واشتهر فى هذا الطراز إمارات سبع أو ممالك سبع وهى : أوفات ، دوارو ، أرابينى ، هدية ، شرخا ، بالى ، دارة(٢) . وقد اتسم تكوين هذه الممالك بالطابع السلمى التجارى أو الاقتصادى بصفة عامة ؛ إذ امتلك المسلمون ناصية التجارة الداخلية والخارجية ، ولم تكن فى نشأتها وتوسعها عسكرية أو سياسية - فى أول أمرها على الأقل - ويرجع ذلك إلى أن الحبشة هى موطن الهجرة الإسلامية الأولى " حيث أصاب المسلمون الدار والقرار " فلم تكن دار جهاد .

ثم إن هذه الممالك ارتبطت بالعالم الإسلامى الخارجى ، وتوطدت صلتها به عن طريق التجارة والحج ، وانتقال طلاب العلم للدراسة فى المدينة المنورة ودمشق والقاهرة ، وصار لرواد الثقافة الإسلامية أروقة خاصة بهذه المراكز ، فهناك رواق أهل الزيلع بالمسجد الأموى بدمشق ، وكذلك أفرد رواق لهؤلاء بالأزهر يعرف برواق الجبرية(٣) .

---

(١) القلشندى ، صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص٣٢٣ - ٣٢٥ ، عبد الرحمن زكى . الإسلام والمسلمون فى شرق أفريقية (القاهرة ، ١٩٦٥م) جـ١ ، ص٧٧ - ٨٠ .

(٢) ابن فضل الله العمرى . مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار (القاهرة ، ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م) جـ١ ، ص١١ - ١٢ ، ١٨٤ - ١٨٥ ؛ إبراهيم طرخان . الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة فى العصور الوسطى ، ص٩٥ وما بعدها .

(٣) للمزيد من التفصيلات انظر ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتى ، المعروف بابن بطوطة تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (القاهرة ، ١٣٢٢هـ) جـ٢ ، ص٧٣ وما بعدها ؛ غيثان بن على بن جريس " الهجرات العربية وانتشار الإسلام فى بلاد شرق أفريقية ..."ص٧٢ .

وتعتبر سلطنة أوفات أقوى سلطنة إسلامية قامت فى أثيوبيا بسبب تحكمها فى الطريق التجارى الذى يربط الداخل بميناء زيلع ، وقد أسسها قوم من قريش من بنى عبد الدار أو من بنى هاشم من ولد عقيل بن أبى طالب ، وسلطنة أوفات هى التى تزعمت حركة الجهاد ضد الحبشة المسيحية(١) . أما الوضع السياسى لتلك الممالك الإسلامية فإنها كانت خاضعة لملك الحبشة ، وعليها أن تدفع ضرائب معينة فى كل سنة لملك الحبشة ، من القماش والحرير والكتان مما يجلب إليها من مصر واليمن والعراق(٢) .

وهكذا نجم عن انتشار الإسلام فى أثيوبيا قيام عدة إمارات ومراكز أهمها سلطنة أوفات الإسلامية ، وهىجميعاً مستقلة داخلياً وتدفع الجزية أحياناً لملك الحبشة ، وكانت الكنيسة القبطية فى مصر تكلف مبعوثيها فى بعض الأوقات، بمراعاة مصالح المسلمين فىالحبشة، فمثلاً تدخل بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر الفاطمى (٤٢٧-٤٨٧هـ/ ١٠٣٥-١٠٩٤م) فىاختيار أسقف معين للحبشة هو الأب ساويرس، وذلك عام ٤٧٣هـ/١٠٨٠م، واشترط عليه رعاية جانب المسلمين، والاهتمام ببناء المساجد، والإكثار منها(٣) .

---

(١) ابن بطوطة ، تحفة النظار ... ، جـ٢ ، ص٧٣ - ٧٥ ، القلقشندى ، صبح الأعشى، جـ٥ ، ص٣٣٢ .

(٢) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص٣٣ ؛ غيثان بن على بن جريس ." العرب فى مقديشو وأثرهم فى الحياتين السياسية والثقافية فى ظل الإسلام " مجلة المؤرخ العربى بالقاهرة (١٩٩٣) العدد (١) ص ١٢٨ وما بعدها .

(٣) للمزيد من التفصيلات ، انظر . " الإسلام ومراكز الثقافة الإسلامية فى أثيوبيا والصومال " ص١٦٣ وما بعدها .

وقد سيطرت على ملوك الحبشة عدة عوامل فى صراعهم ضد المسلمين ، أهمها العامل السياسى والاقتصادى للحد من نشاط المسلمين التجارى ، والاستيلاء على مواطنهم لتوسيع مملكتهم . ويأتى بعد ذلك العامل الدينى ، فالحبشة مسيحية متعصبة لمسيحيتها ، لكن ربما كان أساس النزاع سياسياً أكثر منه دينياً . وليس بغريب إذا علمنا أن الأرض التى سيطر عليها المسلمون فى الحبشة فاقت فى مساحتها أرض مملكة الحبشة المسيحية ، وأن هذه الرقعة الإسلامية كانت تحيط الأقاليم المسيحية من الجنوب والشرق ، فضلاً على إحاطة الإسلام بها من ناحية السودان في الشمال والغرب . وقد أدى هذا إلى عزل مملكة الحبشة عزلاً تاماً عن العالم الخارجى ، ولاسيما بعد استيلاء المسلمين على ميناء عدل قرب مصوع (ميناء أرتيريا الحالى على البحر الأحمر) ، وعدل هو ثغر دولة أكسوم ومخرج أثيوبيا الوحيد إلى البحر الأحمر ، مما أدى إلى تدهور أحوال الحبشة(١) .

غير أنه حدث لما وليت الأسرة السليمانية عرش الحبشة عام١٢٧٠م ، وأول ملوكها هو يكونو أملاك (Yekuno Amlak) (١٢٧٠ – ١٢٨٥) ، أن اتخذت هذه الأسرة خطة حاسمة لدعم سلطان الحبشة وتوسيع ملكها على حساب جيرانها المسلمين . ذلك أن السليمانيين وجدوا المسلمين يسيطرون سيطرة تامة على التجارة والموانئ ، مما جعل أثيوبيا فى علاقاتها الخارجية تحت رحمة المسلمين ، فذبلت المدن الأثيوبية التى كانت مزدهرة ومنها مدينة أكسوم العاصمة التى فقدت أهميتها وحلت بالبلاد أزمات اقتصادية نتج عنها

(١) انظر ابن بطوطة ، تحفة النظار ... ، جـ٢ ، ص٧٣ وما بعدها ، إبراهيم طرخان ، الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة ... ، ص٣٥ – ٤٠ .

Budge, A History of Ethiopia. Vol. I, pp 373 ff; Trimingham, Islam in Ethiopia, pp . ff .

قحط(١) . وعلى ذلك بدأ الصراع بين المسلمين فى أثيوبيا والحبشة المسيحية ردحاً من الزمن ، وتزعمت أوفات أقوى الممالك الإسلامية بالحبشة حركة الجهاد ، وانضوى تحت لوائها بعض الولايات الإسلامية المجاورة ، واستمر هذا الصراع بين المسليمن والحبشة المسيحية حتى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر ، حيث ظهرت فى الأفق قوى جديدة تتمثل فى ظهور الأتراك العثمانيين وقيام حركة الكشف الجغرافى ، فتقدم العثمانيون ، والبرتغاليون الذين قادوا حركة الكشف الجغرافى فسيطروا على سواحل زنجبار الشرقية فى المحيط الهندى ، كل يناصر الفريق الذى التمس العون منه . كذلك دخلت أسلحة جديدة لم يعرفها مسلمو الحبشة أو الأحباش فى نضالهمم السابق ، ووجد المسلمون فى أثيوبيا عاملاً مهماً للارتباط بالعثمانيين الذين بسطوا سيطرتهم على سواكن وجزيرة زيلع ، وأنشأوا علاقات مع المسلمين فى مصوع التى يحتلها البرتغاليون ، وهو عامل الاتفاق فى الدين ، فضلاً على ترحيب العثمانيين بهذا الارتباط الدينى بجانب الأهداف التجارية . وقد تحملت سلطنة أوفات الإسلامية عبء الجهاد الدينى مع الأتراك العثمانيين فى منطقة القرن الأفريقى ضد الحبشة المسيحية التى يساندها البرتغاليون(٢).

---

(١) انظر ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص١٣٠ .

(٢) الشاطر البوصيلى عبد الجليل .معالم تاريخ السودان ووادى النيل (القاهرة ، ١٩٥٧م) ص٦ وما بعدها . وللمزيد من التفصيلات عن دول الطراز الإسلامى السبع وعلى رأسها مملكة أوفات الإسلامية انظر ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص٣٢٤ - ٣٣٠ ؛ المقريزى : الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ص١٢٥ وما بعدها.

كانت الهجرة المخزومية (هجرة بنى مخزوم) هى أولى الهجرات العربية الإسلامية إلى منطقة القرن الأفريقى ، ونجح أحفاد ود بن هشام فى تكوين أول مملكة إسلامية فى منطقة القرن الأفريقى ، عرفت باسم مملكة شوا الإسلامية ، وكان ذلك فى عام ٢٨٣هـ/٨٩٦م ، وحكمت المنطقة لمدة أربعة قرون ، واضطلعت بمسئولية نشر الإسلام فى الحبشة والصومال ، ولكنها لم تلبث أن تدهورت أحوالها واضمحل نشاطها ، وكانت مرحلة احتضارها فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى عندما مزقتها الخلافات الداخلية والصراع الخارجى ، حتى سقطت فى عام ١٢٨٥م على أيدى سلطنة أوفات الإسلامية التى توسعت نحو الداخل والساحل لنشر نفوذ الإسلام فى تلك المنطقة(١) ، وإن دل هذا على شئ ، فإنما يدل على مدى تغلغل النفوذ الإسلامى وسيطرته السياسية حتى بلغ منطقة " شوا " و " السيدامو " والواقع أن سلطنة أوفات الإسلامية التى تأسست فى القرن الثالث عشر الميلادى أدت خدمات جليلة للإسلام والمسلمين ، واضطلعت بالدور الأكبر فى نشر الفكر والثقافة الإسلامية ، والحفاظ على التراث الإسلامى الكبير الذى تركته المسلمون فى منطقة القرن الأفريقى ومنطقة أفريقيا على وجه العموم(٢) .

وقد وصفت سلطنة أوفات الإسلامية بأن أبعادها بلغت خمسة عشر يوماً طولاً ، وعرضها عشرون يوماً بالسير المعتاد ، وكلها عامرة آهلة بقرى

---

(١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص٣٢٤ ؛ حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا (القاهرة ، ١٩٦٣م) ص٤٣٢ – ٤٣٣ ؛ السر أحمد العراقى " الإسلام ومراكز الثقافة ..."ص١٥٨ – ١٦١

Trimingham, Islam in Ethiopia, pp. 62 -3.

(٢) السر العراقى " الإسلام ومراكز الثقافة ... " ص١٦٠ وما بعدها ؛

Trimingham, Islam in Ethiopia, pp. 58 ff.

متصلة ، وبها نهر جار ، وهى أقرب أخواتها إلى الديار المصرية وإلى سواحل اليمن ، كما أنها أوسع هذه الممالك أرضاً ، ويحكم ملكها على الزيلع، ويبلغ جيشها خمسة عشر ألفا من الفرسان ، ويتبعهم عشرون ألفا أو أكثر من الرجالة ، وخيلهم عِرَابٌ ، ما يركبون البغال(١) ومن مدنها المهمة الأخرى ، بلقلزر ، وكلجور ، وسمق ، وسوا ، وعدل ، وحنا ، ولاو(٢) .

ويعتبر ابن فضل الله العمرى أول من وصف مملكة أوفات الإسلامية وأخواتها من ممالك الإسلام فى قرن أفريقيا ، وصفًا دقيقًا ، اعتمد عليه اللاحقون اعتمادًا يكاد يكون حرفيًا ، واستمد معلوماته من فقهاء زيلعيين برئاسة الفقيه عبد الله الزيلعى ، قد وفدوا على مصر المملوكية وسلطانها "الناصر محمد بن قلاوون" مابين (٧٣٣ - ٧٣٩هـ) لأداء مهمة تتعلق بأمور ممالك المسلمين فى منطقة القرن الأفريقى ، ونقل عنهم العمرى أخبار هذه الممالك السبع (الطراز الإسلامى) ، وسجل أخبارهم فى كتابه الذى شمل أخبار جميع ممالك الإسلام فى أنحاء العالم الإسلامى . ويذكر العمرى فى بداية كتابه أنه لم ينقل إلا عن أعيان الثقات ، من ذوى التدقيق فى النظر ، والتحقيق للرواية(٣) .

وفى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) كتب المقريزى رسالة " الإلمام " ، ونقلها من أفواه رواة قادمين من بلاد الزيلع أثناء موسم الحج سنة ٨٣٩هـ/١٤٣٥م ، وأطلق على ممالك المسلمين فى منطقة القرن

---

(١) للمزيد من التفصيلات عن طبيعة سلطنة أوفات ، انظر ، أبو الفداء . تقويم البلدان ، ص ١٦٠ -١٦١ ؛ العمرى . مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، جـ٢ ، ورقة ١٨٣ وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه ، جـ٢ ، ورقة ١٨٥ .

(٣) المصدر نفسه ، جـ١ ، ص٢ وما بعدها .

الأفريقى اسم " بلاد الزيلع " وطول أرضها براً وبحراً حوالى مسيرة شهرين وعرضها أكثر من شهرين ، إلا أن غالبها قفار غير مسكونة ، ومقدار العمارة مسافة ثلاثة وأربعين يوماً طولاً فى عرض أربعين يوماً ، وتنقسم إلى سبع ممالك ، ولكل مملكة من الممالك السبع ملك ، وطول مملكة أوفات خمسة عشر يوماً فى عرض عشرين يوماً كلها عامرة بالقرى ، وملك أوفات يحكم على الزيلع ، وهى بلاد حارة(١) .

لقد غطت مملكة أوفات على كل سهل زيلع وشرق شوا والمنحدرات المؤدية إلى أودية هواش ، وإلى خليج عدن والمحيط الهندى . وبمعنى آخر ، فقد سيطرت على أجزاء هامة من سواحل جمهورية الصومال الشمالية والشمالية الشرقية ، وجمهورية جيبوتى ، وإقليم هرر فى الصومال الغربى (أوجادين فى الحبشة حالياً) ، كما أن قبائل العفر (الدناكل أو الدناقل) حول بحيرة أوسا كانوا يدينون لحكامها بنوع من الولاء ، وحينئذ كانت تسيطر على طرق التجارة المتجهة إلى زيلع ، وهى الأولى من بين الممالك الإسلامية التى تتمتع بأهمية سياسية وعسكرية كبيرة(٢) .

وقد وصف الرحالة الطنجى " ابن بطوطة " سنة ١٣٣١ مدينة زيلع فذكر أنها للبربر السودان " ومذاهبهم شافعية " وبلادهم صحراء مسيرة شهرين،أولها زيلع وأخرها مقدشو، ومواشيهم الجمال ولهم أغنام مشهورة(٣).

---

(١) انظر ، المقريزى ، الإلمام ، ص٦ – ٧ .

(٢) انظر ،

Ullendorff, Ency off Islam, art " Habashs " Vol . 3, Taddesse Tamrat . Church and State in Ethiopia 1270 - 1527 . (Oxford, 1972) pp . 134 - 5 .

(٣) للمزيد انظر ، ابن بطوطة ، تحفة النظار... (طبعة بيروت ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) جـ١ ، ص٢٧٩ – ٢٨٣ .

وهناك إشارة أخرى أوردها الجغرافى المشهور بالدمشقى أكثر تفصيلاً للمناطق الساحلية ، إذ سمى كل منطقة باسم سكانها ، وأطلق على خليج عدن اسم بحيرة بربرة ، وأشار إلى بلاد الحبشة وأرض باضع وجبرة (على ساحل البحر الأحمر الغربى) (١) ، وساحل زنجبار وأرض الزيلع ، وأرض أوتل . ويقصد بأرض جبرة بلاد مملكة أوفات ، كما أن اسم " أوتل " تحريف اسم عدل أو أودل الصومالى(٢) .

وهكذا تدفقت الهجرات العربية الإسلامية إلى هذه الأماكن الداخلية فى سهول زيلع وهضبة هرر ومنحدرات شوا ، وإقليم وادى الصدع الكبير ، وبالى وسيدامو ، وامتزجوا بالوطنيين ، وأخذت الأسلحة تنتشر تدريجياً ، حتى تأسست ممالك إسلامية فى تلك البقعة ، وأقدمها مملكة شوا الإسلامية حوالى(٢٨٣هـ/٨٩٦م) بزعامة أسرة عربية مخزومية،سبقت الإشارة إليها(٣).

كذلك قامت بعد ذلك عدة مشيخات إسلامية فى المناطق الداخلية والساحلية ، منها سلطنة " عدل وموراً وهوبات وجيدايا ، إلا أنها لم تعمر طويلاً نظراً للخلافات فيما بينها ، وسرعان ماطوتها إحدى أقوى الممالك الإسلامية فى منطقة القرن الأفريقى وهى مملكة أوفات الإسلامية .

---

(١) شمس الدين محمد الأنصارى الدمشقى . نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر . (بطرس بورغ ، ١٨٦٥م) ص ١٥١ - ١٥٣ .

(٢) أودل (Awadel) اسم محلى أطلقه الصوماليون على مدينة زيلع وما يجاورها من البلاد . وهو مركب من (Aw) أى الشيخ . ودل (Dal) تعنى الوطن ، ويكون وطن الشيخ أو العلماء . ويعتقد أنه تحريف لكلمة عدل التى اشتهرت بها مملكة عدل الإسلامية التابعة لمملكة أوفات .

(3) Trimingham. Islam In Ethiopia. pp . 58 ff .

وقد أسس مملكة أوفات قوم من قريش ، فمنهم من يقول هم من بنى عبد الدار ، ومنهم من يقول إنهم من بنى هاشم ، ثم من ولد عقيل بن أبى طالب ، قدم أولهم من الحجاز ونزلوا أرض جبرة التى اشتهرت بجبرت ، وهما من أراضى الزيلع ، واستوطنوا بها وأقاموا بمملكة " أوفات " . وعرف جماعة منهم بالخير ، واشتهروا بالصلاح إلى أن كان منهم " عمر ولشمع " . حكم عمر هذا مدينة أوفات وأعمالها لمدة طويلة ، وصارت له بها شوكة قوية حتى مات ، وترك أربعة أولاد أو خمسة ، ملكوا أوفات من بعده واحد منهم بزو ، ومنهم حق الدين الأول ، حتى كان آخرهم صبر الدين محمد الذى ملك أوفات سنة ٧٠٠هـ (١٣٠٠م) وطالت مدته(١) .

وإذا كانت المصادر قد أجمعت على أن عمر ولشمع هو مؤسس مملكة أوفات، إلا أن تاريخ تأسيسها يكتنفه الغموض ، فعلى حسب رواية المقريزى، حكم عمر أوفات مدة طويلة ، ثم خلفه أبناؤه الأربعة أو الخمسة ، حتى آلت السلطنة إلى آخرهم " صبر الدين محمد " فى حوالى سنة ٧٠٠هـ (١٣٠٠م) . ومن هنا يرجح أن تأسيس هذه المملكة يرجع إلى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى وتشير الرواية إلى أن نسبه يصل إلى الحسن بن على ابن أبى طالب(٢) ، إلا أن هذا الإدعاء لم يسلم من نقد المؤرخين الذين ذكروا

---

(١) للمزيد من التفصيلات انظر : القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص٣٢٤-٣٣٠، المقريزى ، الإلمام ، ص٩ وما بعدها ، إبراهيم طرخان ، الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة ... ص٣٢ - ٣٨ .

(٢) المقريزى ، الإلمام ، ص١١ وما بعدها ، الشيخ أحمد عبد الله زيراش . كشف السدول عن تاريخ الصومال وممالكهم السبعة .(مقديشو ، ١٩٧١م) ص٦٩ - ٧٣ ؛ الحسين بن يحى بن الحسين بن القاسم . غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور (القاهرة ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م) جـ٢ ، ص٤ -٧ .

أنهم مثل كثير من الأسر الإسلامية التى حكمت بلاداً إسلامية ، ادعت نسبها إلى الرسول ﷺ ، أو آل البيت ، أو النسب القرشى ، أو الأصول العربية عامة.

ومهما يكن من أمر ، فقد شرع عمر ولشمع فى توسيع نفوذ مملكته على حساب ممالك ومشايخ إسلامية فى المنطقة ، ويبدو أنه بدأ توسعه على حساب مملكة شوا الإسلامية ، ثم أرسل حملات متعددة بعد ذلك إلى جيدايا وعدل ومورا وهوبات وزنجبار ، وتمكن من إخضاعها جميعاً . ثم امتد نفوذ هذه المملكة إلى شواطئ النيل الأزرق ، وامتد غرباً إلى أقليم نهر " أنكوى ". وكما بسطت أوفات نفوذها شرقاً إلى ساحل البحر الأحمر فى منطقة الزيلع وسهل أوسا ، فقد وصلت سيطرتها جنوباً إلى شبه جزيرة حافون فى المحيط الهندى ، وبالتالى أصبحت مملكة أوفات تتحكم فى مساحة واسعة من أراضى متنوعة الموارد ، وسيطرت على كثير من الطرق التجارية البحرية منها والبرية ، فأصبح لها مركز الزعامة والصدارة على جميع الممالك التى قامت فى المنطقة(١) .

وفى ظل هذا المركز السياسى والدينى والاقتصادى ، حفل تاريخ هذه المملكة الإسلامية بالصراع من أجل البقاء ونشر الدين الإسلامى بين سكان منطقة القرن الأفريقى . ذلك أنه ما كاد يكتمل نموها وقوتها حتى خاضت غمار حروب طال أمدها ، استنزفت كثيراً من مواردها ، وأضحت شغلها الشاغل ، ودمرت كثيراً من المدن والقرى والمساجد ودور العبادة الأخرى . وقد أضعفت هذه الحروب نشاط مملكة أوفات الثقافى والحضارى . ومن جهة

---

(١) للمزيد ، انظر : إبراهيم طرخان ، الإسلام والممالك الإسلامية ... ، ص٣٢ - ٣٧ ؛ حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا ، ص٤٥٢ - ٤٥٦ ؛
Trimingham , Islam in Ethiopia, pp . 67 - 8 .

أخرى ، توقف نشاط الدعوة من أجل نشر الإسلام وحضارته وثقافته وبقائه فى منطقة القرن الأفريقى ، وذلك بسبب الصراع الدموى بين المسلمين والمسيحيين فى تلك البقعة الأفريقية(١) .

ومع ذلك فإن مملكة أوفات الإسلامية ظلت على جانب كبير من القوة والعظمة منذ أيام مؤسسها " عمر ولشمع " ، نظراً لسيطرتها على منطقة استراتيجية واسعة . ويقال إنها خضعت فترة من الزمن لمملكة داموت الوثنية(٢) التى حكمت الجزء الجنوبى الشرقى لهضبة شوا ، إلا أن هذا الخضوع لم يدم طويلاً فسرعان ما تمكن عمر ولشمع فى بداية تأسيس دولته من القضاء عليها وضمها إلى مملكته(٣) .

---

(١) انظر : حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا ، ص٤٣٩ – ٤٤١ ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور " بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى ".مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية،عدد (١٤) (١٩٦٨م).

F. F AL-Varis . (A Portuguese) Narrative of the Portuguse Embassy to Abyssinia During the Year 1520 - 1527 Trans by Lord Stanley (London, 1881) pp . 311 - 314, 393 ff .

(٢) تقع بلاد داموت عند منابع نهر هواش فى الجزء الجنوبى الشرقى من هضبة شوا ، ومازالت وثنية حتى فتحها الوزير عدلى (Adli) فى أيام الأمير أحمد بن إبراهيم ، وللمزيد ، انظر : شهاب الدين أحمد عرب فقية . تحفة الزمان أو فتوح الحبشة ، تحقيق فهيم محمد شلتوت(القاهرة ، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م) ص١٧، ١١٣ ، ١١٥ ، ١٦٥ ، ٣٠٨.

(٣) شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلانى ، الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة . تحقيق محمد سيد جاد الحق (القاهرة ، ١٩٦٦م) جـ٣ ، ص٤٣٢ – ٤٣٣ ؛ المقريزى ، الإلمام ص١٠ – ١٢ .

ويعتبر حق الدين محمد الثانى المؤسس الثانى لمملكة أوفات الإسلامية، واستمر حكمه لمدة عشر سنوات (٧٦٦ - ٧٧٦هـ / ١٣٦٤ - ١٣٧٤م) . وتولى السلطنة بعده أخوه السلطان سعد الدين أبو البركات ، واتسعت المملكة وازدهرت فى عهده ، وكثرت عساكرها ، وذلك لما اتصف به من الحنكة السياسية ، وحسن تدبير أمور المملكة ، وفتح كثيراً من البلاد مثل بلاد زلان ، وبالى ، وامحرة ، وروعت أعماله وجهاده مملكة الحبشة المسيحية(١) .

على أن مملكة أوفات الإسلامية لم تسلم مما كان يحدث فى غيرها من الممالك من تنافس بين الأمراء ، وحروب على السلطة ، كما أنها كانت مطمعاً لكثير من ملوك الحبشة المسيحيين ، فشنوا عليها الغارات ، إلا أنها صمدت وخاضت المعارك الحربية العديدة صوناً للعقيدة الإسلامية ، ويدل بقاؤها على مسرح الحوادث وخوضها لحروب الجهاد (النصف الثانى من القرن العاشر للهجرة / النصف الثانى من القرن السادس عشر للميلادى) على أنها كانت على جانب كبير من القوة التى مكنتها من المحافظة على استقلالها طوال تلك الفترة . وكان شهاب الدين بن سعد الدين من ملوك تلك الفترة فى أوفات ، ممن ساروا فى طريق الجهاد ، وتوسيع نطاق نفوذ المملكة ، ونشر العدالة فى ربوعها ، كما تطلع إلى استعادة الممالك الإسلامية التى وقعت فى أيدى النصارى ، فتمكن من استعادة هدية ، وبالى(٢) .

---

(١) انظر ، المقريزى ، الإلمام ، ص١٩ - ٢٠ .

(٢) شوقى عطا الله الجمل . سياسة مصر فى البحر الأحمر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر (القاهرة ، ١٩٧٤م) ص١٩٥ ؛ محمد محمد أمين . تطور العلاقات العربية الأفريقية فى العصور الوسطى (القاهرة ، ١٩٧٧م) ص٥٠ - ٥١ .

وقد أظهر أبناؤه من بعده حزماً ، وبذلوا مجهودات جبارة لإعادة فتح البلاد والتوغل إلى داخل مملكة الحبشة المسيحية نفسها ، واسترجاع مملكة أسلافهم ، وأعادوا الأمن والاستقرار إلى ممالك بالى ، وهدية ، ودوارو ، التى نجحوا فى استعادتها من ملك الحبشة المسيحى فازدهرت مملكتهم فى القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر الميلادى ، وذلك لسيطرتهم على الموانئ المشهورة : زيلع ، وبربرة ، وتاجورة ، كما سيطروا على منطقة هرر الغنية بمحاصيلها الزراعية ، فضلاً على الطرق التجارية من والى مدينة هرر التى تقع على رأس مثلث قاعدته زيلع وبربرة . وكان ازدهار مملكة أوفات التجارى نتيجة لازدهارها السياسى ، وموقعها على البحر الأحمر والمحيط الهندى ، وبعدها عن مركز القوة الذى تسيطر عليه الحبشة المسيحية على الهضبة الأثيوبية فانتظمت طرق القوافل التجارية بين الساحل والظهير القارى ، فضلاً عن انتظام التجارة الخارجية وازداد انتشار الإسلام فى المنطقة بازدياد قوته السياسية متمثلة فى مملكة أوفات الإسلامية(١) .

يذكر الفاريز Al - Varis مُرَافِقُ رحلة البرتغال إلى الحبشة سنة ١٥٢٠ - ١٥٢٦م ، أن مملكة أوفات كانت ممتدة الأرجاء ، وتسيطر على الأراضى التى تطل على رأس قرن أفريقيا " رأس جاردافوى " كما كانت تمتلك زيلع وبربرة ، وأنه كانت لهذه المملكة علاقات وطيدة وقديمة مع

(١) انظر :

F. F. AL Varis . (Father from Cisco) Narrative of the Portuguse Embassy to Abyssinia During thhe Years 1520 - 1527 . trans and edited by Lord Stantey (London . 1881) pp . 346 - 349 .

السلاطين والملوك المسلمين ، وخاصة فى اليمن ومصر ، وكذلك أشراف مكة ، وكان هؤلاء الحكام يرسلون إليها الأسلحة والخيول لمعاونتهم فى حروبهم ضد أباطرة الحبشة(١) .ومنذ نهاية القرن الخامس عشر الميلادى ظهر فى أوفات أمراء متحمسون للإسلام ونشر العقيدة الإسلامية يساعدهم الفقهاء والعلماء ، وقد نقل السلطان " أبو بكر بن محمد " عاصمة السلطنة إلى مدينة هرر سنة ٩٢٨هـ/١٥١٢م ، وذلك لأسباب محلية وعالمية ، ومنذ ذلك الحين تظهر أهمية مدينة هرر ، التى برزت فيها قوة المسلمين ، فاتسعت رقعة المملكة ، وضمت إلى أملاكها نحو ثلاثة أرباع مملكة الحبشة ، فضلاً على جميع مناطق ممالك المسلمين فى القرن الأفريقى ، وانهارت قوى الأحباش التى التزمت جانب الدفاع(٢) .

وقد واجهت مملكة أوفات الإسلامية منذ قيامها مشاكل عديدة ، من أهمها : تلك التى جاءتها من الحبشة المسيحية وكانت الديانات السماوية ، اليهودية ، والنصرانية ، والإسلام تعيش جنباً إلى جنب ، بطريقة سلمية لعدة قرون فى منطقة قرن أفريقيا ، فتركز النصرانية واليهودية على المرتفعات ، ويتركز الإسلام فى المنخفضات الشمالية والشرقية والجنوبية . ومنذ أن عادت الأسرة السليمانية إلى عرش الحبشة ، وتحرك مركز المسيحية نحو أمهرا (أمحرا) فى الجنوب ، تطلعت هذه الأسرة إلى السيطرة على مملكة أوفات الإسلامية ، لأن أوفات كانت تسيطر على بلاد واسعة ذات إمكانات

---

(١) إبراهيم طرخان . الإسلام والممالك الإسلامية ....، ص٦٦ وما بعدها .

(٢) انظر : الشاطر البوصيلى ، معالم تاريخ السودان ....، ص١٠ - ١٢ ؛ حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية ... ، ص٤٤١ - ٤٤٣ ؛

Roland Oliver and Antony & Atomore . The African Middle Ages 1400 - 1800 (Cambridge, Univ. Press,) pp . 45 - 46 .

هائلة ، كما تسيطر على طرق التجارة بحزم . هذا ، بالإضافة إلى أن أوفات كانت تمتلك جيشاً قوياً، وتنظيماً إدارياً محلياً ومتقناً ، فاستطاعت أوفات بهذه القدرات الهائلة أن تجابه الحبشة المسيحية التى تحاول القضاء على هذه المملكة الإسلامية العظيمة ، وهذا وحده عمق الصراع الطويل بين المملكتين الذى امتد إلى بعض العصور الحديثة ، مما يثبت دون شك أن المنطقة صارت مسرحاً لحروب صليبية واسعة النطاق استمدت أسبابها من قوى عالمية خارج الحبشة ، لها أهدافها المحلية والعالمية ، مخفية حيناً ومعلنة حيناً آخر ، تدفع الحبشة نحو التحامها بمملكة أوفات حتى تخضعها ، ويتسنى لها السيطرة على منافذ البحر الأحمر ، وبالتالى تستطيع أن تنفذ أهدافاً صليبية عامة ، ولايمنع ذلك امتزاج عوامل اقتصادية بأخرى دينية سياسية(١) .

وكان أن برزت الأخطار على مملكة أوفات الإسلامية فى زمن ملك الحبشة يجباصيون Yagba Seyon (١٢٨٥ - ١٢٩٤م) واستعدت أوفات لمواجهة هذه الأخطار ، وبدأ الصراع بينهما فى شكل مناوشات بسيطة ومحدودة على الحدود والتخوم التى تفصل بين مملكتى الفريقين ، إلا أن ذلك قد تطور فيما بعد ، مما أدى إلى نشوب قتال ومعارك طاحنة بينهما . وقد جرد ملك الحبشة حملة على مملكة عدل - إحدى ولايات أوفات - ويرجع ذلك إلى إلقاء سلطات عدل القبض على مبعوث حبشى قدم من بيت المقدس ، وأجبرته على الختان بعد أن رفض اعتناق الإسلام ، ويقال أن إمارتين إسلاميتين ، عاونتا ملك الحبشة فى هذا الهجوم الذى أدى إلى

---

(١) عبد الرحمن زكى ، الإسلام والمسلمون فى شرق أفريقيا، ص٤٣ - ٤٤ ،
Jean Doress. Ethiopia (London, 1959) p . 5 - 11 ; Trimingham, Islam in Ethiopia, pp . 68 - 70 .

نهب بلاد " عدل " ثم عقدت هدنة بين الطرفين ، فتحت بموجبها الحدود بين البلدين(١) ، ولكن رغم هذه الهدنة المعقودة ، فإن كلاً منهما كان يحاول الاستعداد والتقاط أنفاسه ، وانتهزت أوفات فرصة تصارع وتكالب أبناء يجباصيون على السلطة ، فشنت هجمات متتالية على الحبشة واتخذت الجهاد ديناً وعقيدة ، واستطاعوا خلالها تقوية مراكزهم فى المنطقة(٢) .

وفى عام٦٩٨هـ - ١٢٩٨/٩٩) قام الشيخ محمد أبو عبد الله أحد شيوخ مملكة أوفات ، بجمع جيش جرار لفتح الحبشة والقضاء عليها قضاءً مبرماً لاعتداءاتها المتكررة على المسلمين والديار الإسلامية ، وحشد حوله مائتى ألف مسلم من الصومال والجالا ، وأعدهم للجهاد ، وغزا الحبشة ، التى اضطر ملكها إلى التنازل للمسلمين عن بضع ولايات على الحدود الشرقية(٣) .

كذلك ازدادت قوة مملكة أوفات أيام السلطان " صبر الدين محمد بن عمر ولشمع (٧٠٠ - ٧١٦هـ/ ١٣٠٠ - ١٣١٦م) الذى لم يستطع ملك الحبشة ودم أرعد (Wedam Arad) (١٢٩٩/ ١٣١٤م) أن يرد هجماته القوية ،

---

(١) حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية... ص٤٥٤ - ٤٥٥ ، إبراهيم طرخان، الإسلام والممالك الإسلامية ، ص٥٠ ؛ عبد الرحمن زكى ، الإسلام والمسلمون ....، ص٣٣٢ ، توماس أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ص١٣٥ .

(٢) للمزيد ، انظر : عبد الرحمن زكى ، الإسلام والمسلمون ، ص٣٣٢ - ٣٣٤ ، توماس أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ص١٣٥ - ١٣٧ .

(٣) الشاطر البوصيلى ، معالم تاريخ السودان ...، ص١٣ - ١٤ ، إبراهيم طرخان ، الإسلام والممالك الإسلامية ، ص٥٠ - ٥١ .

ويقال إنه بعث رسالة إلى البابا كليمت الخامس فى أفنيون بفرنسا ، وربما كانت لغرض روحى بحت ، أو لطلب مساعدة مادية ضد مملكة أوفات الإسلامية(١) .

ثم كان أن تمتعت المنطقة بفترة هدوء نسبى حتى عهد السلطان جمال الدين الأول (٧٢١ - ٧٧٨هـ) وانتهجت السلطة فى عهده سياسة التوسع فى أملاك الحبشة على أن الحرب استؤنفت بين الجانبين خاصة فى عهد ملك الحبشة يجباصيون الذى أعد حملة تعتبر من أشد الحملات الحبشية ضد مملكة أوفات فى النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادى ، ومنذ ذلك الحين اتسمت الحروب بطابع القسوة والشدة والوحشية بينهما منذ عام ١٣٢٩م ، وتحمل الجانبان خسائر فادحة فى الأرواح والمعدات ، وأحرقت أماكن العبادة، وقتل رجال الدين ، وخرب المسلمون الكنائس والأديرة وقتلوا الرهبان رداً على أعمال الحبشة الوحشية ضد المسلمين ، كما دخلوا مدناً مسيحية ، فى أثناء زحفهم على الحبشة ، وقتل الأحباش الأبرياء وخربوا المساجد ، واستمرت الحروب على هذه الطريقة لمدة ثلاثة قرون ، تهدأ حيناً ، وتثور أحياناً أخرى حسب ظروف وقوة وضعف حكام الطرفين ، لكنها فى كل الأحوال جهاد بين الهلال والصليب ، وتوسعت مجالاتها وميادينها ، بل تحولت إلى نزاع عالمى اشتركت فيه قوى خارجية لمساعدة الطرفين مثل

---

(١) للمزيد ، انظر : حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية ...ص ٤٥٣ ؛ عبدالرحمن زكى ، الإسلام والمسلمون فى شرق أفريقيا ، ص٤٤ ؛ جمال زكريا قاسم، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، (القاهرة ، ١٩٧٥م) ص١٢٨ - ١٢٩ .

R. Burton . First Foot Steps in East Africa (London, 1966) pp . 1781 - 2 .

المماليك والعثمانيين ودولة البرتغال المسيحية . ويظهر واقع حملة (عمدا صيون) على مملكة أوفات ، مدى الصعوبات التى كانت تواجه مملكة أوفات بشأن توحيد الجبهة الإسلامية ضد الحبشة ، وذلك راجع إلى طبيعة تكوين الممالك الإسلامية المبعثرة فى مساحة أرضية شاسعة وسيئة المواصلات ، تتخللها قبائل بدوية وثنية ، وشعوب زراعية قلما تميل إلى الحروب كشعوب سيداما الزراعية ، فأدت هذه الظروف البشرية منها والطبيعية إلى أن أصبح أمر تنظيم الجيش وترحيله من منطقة إلى أخرى ، حسب متطلبات الجهاد ، أمراً فى غاية الصعوبة ، فحلّت الهزائم على أوفات وأخواتها على الرغم مما أبدوه من مقاومة باسلة وجهاد متصل(١) .

وهكذا تضافرت عدة عوامل لإضعاف مملكة أوفات الإسلامية وسقوطها فى النهاية فكانت هناك عوامل داخلية خاصة بمملكة أوفات وظروفها للداخلية كالحروب الطويلة الأمد التى خاضتها ، والتنافس على السلطة بين أمرائها . أما العوامل الأخرى الخارجية فتتمثل فى نجاح البرتغاليين فى الدوران حول قارة أفريقيا ، وتحول التجارة الشرقية إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، ومحاولة سيطرة البرتغاليين على منافذ البحر الأحمر ، والتحالف مع الحبشة ، مما أدى إلى صراع مملوكى برتغالى حول هذه التجارة ، وإنقاذ العالم الإسلامى من سيطرة صليبية ، فاشتدت ضراوة

---

(١) شهاب الدين عرب فقية ، فتوح الحبشة ، ص١٤٩ – ١٥٧ ، سعد بدير الحلوانى . " الاتصالات الأوربية الحبشية وأثرها على العالم العربى فى أواخر العصور الوسطى وفجر الحديثة " . الصراع بين العرب والاستعمار فى عصر التوسع الأوربى الأول (ندوة عقدها اتحاد المؤرخين العرب فى القاهرة ٢٥ – ٢٦ جمادى الآخرة (١٤١٥هـ) ٢٨- ٢٩ نوفمبر ١٩٩٤م (القاهرة ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م) ص٢٠٢ ومابعدها .

الحروب بين المسلمين والصليبيين فى القرن الأفريقى ، مما أدى فى النهاية إلى سقوط كل من اليمن ومصر على أيدى الأتراك العثمانيين الذين حملوا لواء الجهاد الإسلامى ضد البرتغاليين فامتدت سيطرتهم إلى شواطئ مملكة أوفات التى تأثرت بالكشوف البحرية . وكان الأحباش قد التفوا حول القوة البرتغالية التى أحرزت النصر على جيش المسلمين لوفرة الأسلحة النارية البرتغالية ، وكان الجيش الإسلامى يقوده المجاهد الكبير أحمد بن إبراهيم (الجران)(١) الذى طلب مساعدة العثمانيين باعتبارهم أقوى قوة إسلامية فى الشرق العربى آنذاك ، فأرسل إليه مصطفى باشا النشار أول ولاة العثمانيين فى اليمن (١٥٤٠ – ١٥٤٥م) حملة مكونة من خمسمائة جندى ، وقيل تسعمائة ، مزودين بالبنادق ، ومنذ ذلك الزمن اتخذ الصراع فى القرن الأفريقى صفة الصراع الدولى(٢) .

وكان انتصار البرتغاليين ومفاجأتهم للجيش الإسلامى عام ٩٤٩هـ / ١٥٤٣م واستشهاد الإمام أحمد بن إبراهيم (الجران) ، ضربة قاصمة للقوى الإسلامية ، فمنذ ذلك الحين نجح البرتغاليون فى تطويق العالم الإسلامى لسيطرتهم على مياه المحيط الهندى ، وتهديدهم المباشر لمنافذ الخليج العربى

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور . الحركة الصليبية (القاهرة ، ١٩٦٣م) جـ٢ ، ص١١٩٨، عبد المجيد عابدين . بين الحبشة والعرب (القاهرة ، د . ت) ص١٦٩ .

(٢) للمزيد من التفاصيل عن هذه الحروب ، انظر : حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية ... ، ص٤٠٩ ، شوقى الجمل . (تطور العلاقة بين الكنيستين المصرية والأثيوبية وانعكاساتها على العلاقة السياسية بين الدولتين) (الندوة الدولية للقرن الأفريقى ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، ١٩٨٧م ، جـ٢ ، ص٦٦٧ – ٦٦٩ .

والبحر الأحمر وتحويل طريق التجارة العالمية ، والقضاء على القائد الإسلامى المشهور فى قرن أفريقيا " أحمد بن إبراهيم " بتحالفهم مع مملكة القديس يوحنا ،ثم رجحت كفة الحروب بين المسلمين والمسيحيين بالتدخل الأوربى(١).

على أن سقوط مملكة أوفات ، لم يكن يعنى ضياع السلطة الإسلامية فى المنطقة ، فقد تحولت السلطة السياسية إلى " سلطنة هرر " المستقلة ، يحكمها أمراء مستقلون عن السلطة المسيحية التى نجحت فى الاستيلاء على معظم مملكة أوفات الإسلامية بمساعدة أوربية .

أما الأحوال العامة لمملكة أوفات الإسلامية ، فالثابت أنه دانت لها قبائل وممالك إسلامية بالطاعة والولاء ، فاستطاع آل ولشمع إدارة البلاد بمهارة فائقة ، وحكموا حكماً عادلاً ، وبسطوا الأمن والاستقرار ، وطبقوا الشرع الإسلامى ، وأسسوا نظاماً قضائياً مستمداً من الكتاب والسنة ، وأقاموا حضارة إسلامية شامخة ، وانتهج مؤسسوا مملكة أوفات (الولشمعيون) منهجاً وراثياً فى الحكم ، واتخذوا ألقاب سلاطين وملوك(٢) .

أما التنظيم الإدارى ، فقد قسم السلاطين مملكتهم إلى عدة أقسام إدارية، فقسموها إلى إمارات وأقاليم يحكمها أمراء أمصار يعينهم السلطان أو الملك ، ويوصيهم بالخير والصلاح ، وأن يحفظوا البلاد ، وأن لا يأتى من قبلهم مايؤذى المسلمين ، وأنهم ليسوا من الأسرة الحاكمة فقط ، وإنما من مختلف الأمم والشعوب التى تخضع لحكمهم(٣) .

---

(١) انظر : العمرى ، مسالك الأبصار ، جـ٢ ، ورقة ١٨٢ ، ١٨٨ ، المقريزى ، الإلمام، ص٥ - ١٢ ، أحمد شلبى. موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية (القاهرة ، ١٩٦٨م) ج٦ ، ص٧٠٩ - ٧١٠ .

(٢) المقريزى ، الإلمام ، ص١٠ - ١٦ ، عرب فقية ، فتوح الحبشة ، ص١٠٤ ، ٢٦٧.

(٣) المصدر نفسه ، ص٥٥ .

أما لقب الوزير فقد ظهر فى عهد السلطان " صبر الدين الثانى " ولم يوضح مخصصاته الإدارية والسياسية ، ولكن الظاهر أنهم استخدموا لقب الوزير كلقب الأمير ، سواء أمير الجيش أو الأمصار . وقد ذكر عرب فقية أن أحمد بن إبراهيم قائد الجيش الإسلامى فى أوفات عين عدداً من الوزراء يأتمرون بأمره كالوزير عدلى ، وعباس ، ومجاهد ، ونور بن إبراهيم ، ومناصبهم الإدارية والقيادية كالأمراء(١) .

ولما كانت الشورى فى الحكم الإسلامى ، تقوم مقام الرقابة الإدارية ، فإن مظاهرها تجلت فى مجالس حكم السلاطين والأمراء فى مملكة أوفات ، وكان السلطان يعقد مجلسه تحت شعائر وترتيبات مرعية ، ويجلس الملك على كرسى مطعم بالذهب ، ارتفاعه أربعة أذرع ، وأكابر الأمراء حوله على كراسى أخفض من كرسيه ، وبقية الأمراء وقوف ، ويحمل رجلان على رأسه السلاح ، ثم ينظر فى المظالم التى تعرض عليه(٢) .

وكانت الشورى من أكبر العوامل التى ساعدت أحمد بن إبراهيم فى انتصاراته العظيمة على الحبشة المسيحية ، وأعطى اهتماماً خاصاً باستشارة أمرائه وقواته(٣) ، وكان التشاور يجرى دائماً عند اختيار كل سلطان جديد ، وكان يشترك فى ذلك الأمراء والقضاة وأمراء الأمصار وقادة الجيش(٤) .

---

(١) المصدر نفسه،وللمزيد من التفصيلات العمرى:مسالك الأبصار،جـ٢،ورقة١٨٣-١٨٤؛ المقريزى ، الإلمام ، ص٧ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص٣٣٤ - ٣٣٥ .

(٢) انظر: تفصيلات أكثر . حسن جوهر . الصومال (القاهرة ، ١٩٤٧م) ص١٤-١٦.

(٣) عرب فقيه ، فتوح الحبشة ، ص٦٢ _ ٧٣ ، ١٠٣ ، ١٧٥ - ١٧٦ .

(٤) للمزيد ، انظر : المقريزى ، الإلمام ، ص٤ -٧ ، العمرى ، مسالك الأبصار ، جـ٢، ورقة ١٨٤ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص٣٣٤ ، عرب فقية ، فتوح الحبشة ، ص ٢٩ ، ٢٩٧ ، ٣٢٦ - ٣٢٧ .

وكان السلطان يقود الجيش بنفسه ، ويضرب عند خروجه للحرب بوق كبير مصنوع من خشب شجرة الحنبا ، وكانت الأبواق والطبول والطاسات والنقارات وسيلة إعلامية محلية ، استعملت لجمع أفراد الجيش وأمراء القبائل ، خصوصاً عندما تصل إلى العاصمة أو المعسكر أنباء انتصارات أحرزها الجيش الإسلامى فى جبهة من جبهات القتال ، أو لخبر أليم كنعى السلطان(١) . وعلى الرغم من أن قيادة الجيش من وظائف السلطان ، فإنه لتعدد جبهات القتال كان لكل أمير ولاية سلطة قيادة جيشه ، وشن الغارات ، وإنفاذ الجيش إلى وجهته ، كما كان السلطان يعهد لبعض الأمراء بقيادة السريا ، وجرت العادة أن يأمروا قوادهم أن لايقاتلوا الناس حتى يعرضوا عليهم الإسلام ، فإن أبوا ، فالجزية ، وإلاّ فالحرب(٢) .

وانقسم الجيش فى المعارك الحربية إلى قلب وميمنة وميسرة ، كل منها مقسم ، إلى فرق لها أمراء وأعلام مختلفة الألوان والأشكال ، وتحكمها قيادة عليا فى قلب الجيش ، وعندها علم المملكة ، حيث إن فيها السلطان أو القائد العام للجيش . وبما أن قبائل إسلامية دخلت الحروب مع الجيش النظامى ، فإن أمير الفرقة أو الميمنة أو الميسرة كلها ، قد يكون زعيم أقوى قبيلة فى تشكيل الفرقة أو الميمنة ، وتوزع فرقة رماة السهام بين الفرق المختلفة ، وتنقسم الخيول إلى هجوم واحتياطى يحمى وراء ظهورهم . وقد استخدم المسلمون الدفاعات والتحصينات ، وعرفوا حروب القلاع ، والاستخبارات العسكرية ، والاستعانة بالأدلاء فى المواقع المجهولة ، وإرسال قوات الاستطلاع إلى المواقع الأمامية ، وتنظيم حراسة معسكرات الجيش على شكل

(١) عرب فقية ، فتوح ،ص٢٧٣، ٢٩٨، الشيخ زيراش ، كشف السدول ... ،ص٣٦ - ٣٩ .

(٢) عرب فقية ، فتوح الحبشة ،ص٤٠ - ٤١ ، الشيخ زيراش ،كشف السدول ،ص٥٧ - ٥٩ .

الدوريات والورديات(١) ولمملكة أوفات راية خضراء مكتوب فى وسطها " لاإله إلا الله محمد رسول الله " وبدلها الإمام أحمد بأخرى بيضاء وأطرافها حمراء مكتوب عليها آيات قرآنية ، وأبيات من الشعر منسوبة إلى على بن أبى طالب ، وبعض الأوسمة(٢) .

وكان القضاء على مذهب الإمام أبىِ حنيفة ، وبعض الإمارات الأخرى تقوم بالإفتاء على مذهب الإمام الشافعى ، ووجد منصب الحسبة وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

أما النظام المالى فمن الواضح أن موارد الدولة الإسلامية التى تمول بيت المال متعددة وأن مصدر وأسلوب تطبيقها من الكتاب والسنة ، فالزكاة والجزية والغنائم والفئ نزلت بشأنها آيات قرآنية ، والخراج قرره الخليفة عمر بن الخطاب ، استنباطاً من القرآن ، كما قرر العشور بمبدأ المعاملة بالمثل بعد أن فُرِضَ على تجار المسلمين فى أراض أجنبية واستلزم الإسلام الاجتهاد فى تطبيقها بما لايخالف الكتاب والسنة ، فجاء تطبيقها على اختلاف الظروف المكانية والزمانية على الوجه الأكمل(٣) .

---

(١) عرب فقية ، فتوح الحبشة ، ص٤٠ -٤١ ، الشيخ زيراش ، كشف السدول ، ص٥٧-٥٩ .

(٢) انظر : عرب فقية ، فتوح الحبشة ، ص٤١ - ٤٣ ، حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية ...، ص٤٦١ - ٤٦٣ ، الشيخ زيراش ، كشف السدول ... ، ص٥٠ - ٥٢ .

(٣) العمرى ، مسالك الأبصار ، جـ٢ ، ورقة ١٨٣ - ١٨٤ ، عرب فقيه ، فتوح الحبشة، ص ٨٨ - ٨٩ ، المقريزى ، الإلمام ، ص٦ - ٨ ، قطب إبراهيم محمد ، النظم المالية فى الإسلام (القاهرة ، ١٩٨٢م) ص٢٦ ، ٢٨ - ٢٩ .

وكانت الزكاة مورداً من موارد مالية مملكة أوفات ، ونظمت أداءها بموافقة الدولة ، وأرسلت العاملين لجمعها من المسلمين ، وتصريفها على مصارفها المحددة فى قوله تعالى ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها ...﴾(١) وتشددوا فى طلبها لأن عند أهلها محافظة للدين(٢) .

أما الجزية فكانت مقررة ، ويقال إن السلطان سعد الدين رفض جزية سنوية من ملك وثنى يدعى ايلى بورى ، باعتبار أن الجزية تؤخذ من أهل الذمة(٣) كما نتج عن حروب الجهاد التى خاضتها مملكة أوفات مغانم كثيرة من أموال وأسلحة وأسرى ، مما يشكل مورداً من موارد الدولة . وقسمة الغنائم - بعد إخراج الخمس منها - راجعة إلى تقدير السلطان وما يراه مناسباً للمحاربين فى سبيل الله(٤) .

أما العملة ، فلم يكن لمملكة أوفات دار سك للنقود ، وكانوا يتعاملون بدنانير ودراهم مصر مما يدخل مع التجار إلى بلادهم ، كما تعاملت بالذهب الذى يجلب إليها من منطقتى دافوت وسخا في الحبشة، وكانت الأوقية من الذهب تساوى حوالى ثمانين إلى مائة وعشرين درهماً على قدر جودة الذهب ونقائه ، وكانت المقايضة خير وسيلة للتبادل التجارى ، وكانت الموازين

---

(١) سورة التوبة : آية (٦٠) ، وللمزيد انظر : عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير تفسير القرآن العظيم (بيروت ، ١٤١٢هـ/١٩٩١م) جـ٢ ، ص٣٧٨ - ٣٨٠ .

(٢) العمرى، مسالك الأبصار، جـ٢ ورقة ١٨٣ ؛ عرب فقية، فتوح الحبشة، ص٨٨-٨٩.

(٣) قطب إبراهيم ، النظم المالية ، ص٨٥ - ٨٧ ، عرب فقية ، فتوح الحبشة ، ص١٠٩، ١٤٢ ، ١٤٤- ١٥٥ ، ١٦٩ ، ١٨٩ ، ٢٧٣ ، المقريزى ، الإلمام ، ص١٢ وما بعدها .

(٤) عرب فقية ، فتوح الحبشة ، ص٢٧ ، قطب إبراهيم ، النظم المالية ، ص٨٥ .

موجودة ، ثم ظهرت فى القرن الخامس عشر عملة جديدة عرفت باسم ورقة أوفات ، ثم ظهرت فى القرن السادس عشر دراهم فىأوفات عرفت باسم الأشرفية والملحقية، إلا أن تاريخ سكها لم يحدد . وكانت قيمة الصاع من الذرة - فى أيام الرخاء - خمسة محلق - أما أيام الغلاء فهى اثنتا عشر اشرفية ، وصاع الملح خمس وعشرون اشرفية ، والبقرة حوالى ثلاثمائة أشرفية أو أكثر من ذلك(١) .

ونتج عن التركيبة الاجتماعية لمملكة أوفات ، أنه تعايشت فيها جماعات مختلفة الأعراف من عرب وهنود وفرس وأفارقة ، وذلك منذ بزوغ فجر الإسلام ، وحركة نشر العقيدة الإسلامية ، ويعيش هذا الخليط السكانى فى المدن الساحلية فى منطقة القرن الأفريقى ، حيث ظهرت فى أوساطهم لهجة زيلعية من كلمات عربية وصومالية وعفرية وهندية ، وربما فارسية ، ومازالت الرقصات الشعبية ، والأغانى الزيلعية ذات الطابع الخاص ، إلى اليوم ، تشير إلى ذلك التمازج اللغوى والعرقى .

وكانت الأسرة الحاكمة عربية الأصل ، وبجانبها التجار والزراع والجنود من العرب المهاجرين ، والهنود من أكبر الطبقات التجارية ، ويشكل الأفارقة أغلبية مجتمع أوفات ، وحسب موقع المملكة فإنهم كانوا بصفة

---

(١) للمزيد ، انظر : العمرى ، مسالك الأبصار ، جـ٢ ، ورقة ١٨٣ - ١٨٤ ، عرب فقية ، فتوح الحبشة ، ص٢٦٣ ، محمد بن على الشوكانى ، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (القاهرة ، ١٣٤٨هـ) جـ٢ ، ص١٤٢ - ١٤٣ ، نعيم زكى فهيم ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى) (القاهرة ، ١٩٧٣م) ص٣٦٣ - ٣٦٤ .

أساسية من الصوماليين والعفريين والجالين(١) ولم يكن للفوارق اللونية أي أثر فى المجتمع ، فامتزجت تلك العناصر امتزاجاً يكاد يكون تاماً(٢) .

وجملة القول ، أن مملكة أوفات عاشت فى قرن أفريقيا ردحاً من الزمن ، وساهمت إسهاماً إيجابياً فى نقل الحضارة والفكر الإسلامى إلى تلك المنطقة ، كما ساعدت على نشر التراث الإسلامى ، فضلاً على الدور الذى لعبته فى تاريخ المنطقة سياسياً واجتماعياً واقتصادياً ، فاستمر دفع الحضارة الإسلامية فى قرن أفريقيا فى الازدهار والانتشار حتى بلغ مداه فى أيامها ، وشجعت أوفات التعليم الإسلامي الذى هو جزء لايتجزأ من الدين كما أن أهلها كانوا يحافظون على دينهم ، وعندهم المساجد والجوامع التى تقام فيها الجُمَعُ والجماعات ، وظهرت المدارس القرآنية بظهور الإسلام ، فنظام التعليم عندهم يشبه ماعرف فى العالم الإسلامى قبل ظهور المدارس النظامية ، إذ بدأ من مرحلة الكتاتيب ، ثم مرحلة العلوم العقلية والنقلية ، واهتم السلاطين والفقهاء والعلماء بأن يحل الدين الإسلامى وثقافته محل الوثنية والمسيحية ، ونجحوا فى ذلك نجاحاً عظيماً ، وواكبت اللغة العربية وثقافتها حركة المد الإسلامى وانتشاره فى المنطقة وأصبحت لغة التسجيل فى دواوين الحكومة والمكاتبات الرسمية وفى القضاء حتى تركت بصماتها القوية فى اللغات المحلية ، كما كان السكان يجيدون اللغة العربية ، وهذا ما يقوله العمرى :

---

(١) حسن إبراهيم حسن ، انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية (القاهرة ، ١٩٦٣م) ص٣١ - ٣٣ ، إبراهيم طرخان ، الممالك الإسلامية فى الحبشة ، ص٤٤

I. M. Lewis, The Modern History of Somaliland from Nation to State (London, 1965) pp . 21- 22 .

(٢) عبد المجيد عابدين ، بين الحبشة والعرب ، ص١٥٤ - حسن جوهر ، الحبشة ، ص١٤٠ ، حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية ... ، ص٤٨١ .

" وكلام أهلها (يقصد أوفات) باللغة الحبشية ، ويتكلمون أيضاً بالعربية "(١)، وشيد أهل أوقات مدارس القرآن الكريم (الدوكس Dugs) فى كل مكان يوجد فيه مجتمع إسلامى ، واهتم المجتمع بها ، وأرسلوا إليها أولادهم وكانت الأدوات المستخدمة فى الدوكس : اللوح ، والقلم ، والدواة(٢) .

وازدهرت الحركة العلمية فى مدن مملكة أوفات ، وأصبحت زيلع وهرر وأوفات وبربرة مدناً جامعية مشهورة فى مملكة أوفات ، ودول الطراز الإسلامى ، وتنقل الطلاب بين هذه المدن التى اشتهرت باتقان علمائها علوماً معينة ، حيث اشتهرت هرر بدراسة علوم اللغة العربية والتفسير والحديث ، واشتهرت زيلع بفقة الشافعية ، وأعطى المجتمع الإسلامى العلم والعلماء منزلة عالية ، وتمنى كل طالب أن يكون عالماً من علماء الدين ، واندفعوا إلى مجالس الفقهاء والعلماء للنّهلِ من مواردهم العلمية ، وبذل العلماء مجهودات هائلة لأداء رسالتهم العلمية ، وساعد على ذلك قرب المنطقة من موطن الحضارة الإسلامية فى مكة والمدينة والقاهرة ودمشق(٣) ، ونزحت

---

(١) العمرى، مسالك الأبصار، جـ٢، ورقة ١٨٣-١٨٤، المقريزى ، الإلمام ، ص٧،جامع عمر عيسى ، تاريخ الصومال فى العصور الوسطى والحديثة (القاهرة ١٩٦٥م) ص١٦ ، ٣٥ .

(٢) كلمة دوكسى (Dugsi) الصومالية هى الخلاوى السودانية أو الكتاتيب العربية ، أما الكُتّابُ (Kutaab) فهو مفرد وجمع وهو طالب المدرسة القرآنية ، وتطابق الكلمة العربية فى المقصود والكتاب الصبيان . للمزيد انظر أحمد أمين ، ضحى الإسلام (القاهرة ، ١٩٧٩م) جـ٢ ، ص٥٠ ، عبد القادر شيخ عبد الله . تاريخ التعليم فى الصومال (مقديشو ، ١٩٧٨م) ص١٣ ، جامع عمر عيسى ، تاريخ الصومال، ص٣٨ .

(٣) للمزيد من التفصيلات انظر : عبد القادر شيخ عبد الله ،تاريخ التعليم فى الصومال ،ص٤٠ .

إليها جميع الفرق والمذاهب المعروفة - آنذاك - فى العالم الإسلامى، كما رحل كثير من أبنائها إلى تلك البلاد، فتنوعت الحياة الثقافية فيها، وأصبح العلماء طبقة ذات وجود مؤثر فى البلاط السلطانى وفى الحياة الثقافية والاجتماعية، وقادوا حركات الجهاد كالشيخ محمد أبو عبد الله، والشيخ حق الدين الثانى، وأحمد بن إبراهيم، كما تولى بعضهم مهمة السفارت كالشيخ عبد الله الزيلعى(١).

وأيّاما كان الأمر، فقد ازدهرت الحركة العلمية، وتعدد العلماء والفقهاء، الذين يقومون بأمور الدولة، وبتدريس الدين واللغة العربية التى تدون بها الدواوين على الطريقة الإسلامية، كما أن للمملكة قضاة ومحاكم شرعية، وأئمة للمساجد، وكتبة، مما يستدعى وجود طائفة متمكنة من الثقافة الإسلامية وساعد على ذلك استمرار هجرة علماء المسلمين إليها من الأقطار المجاورة، وكانت اشهرها هجرة الأربعة والأربعين شيخاً حضرمياً فى أيام السلطان جمال الدين الثانى، الذين نزلوا فى مدينة بربرة عام ٨٣٤هـ/١٤٣٠(٢).

وقد ارتبطت مملكة أوفات الإسلامية بعلاقات واسعة مع عدد من الدول الإسلامية فى المشرق العربى لنيل مساعداتهم المعنوية والمادية لمواصلة

---

(١) العمرى، مسالك الأبصار، جـ٢، ورقة ١٨٣-١٨٤؛ المقريزى، الإلمام، ص٦-٧، حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية ....، ص٤٨٤ - ٤٨٦.

(٢) انظر، عرب فقيه، فتوح الحبشة، ص١٣ - ١٤، المقريزى، الإلمام، ص٧، العمرى، مسالك الأبصار، جـ٢، ورقة ١٨٥ - ١٨٦، أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص٣٨٧؛ حمدى السيد، الصومال قديماً وحديثاً (مقدشو، ١٩٦٥م) جـ١، ص٣٥٢ - ٣٥٣.

الجهاد ونشر العقيدة الإسلامية فى المنطقة ، ومن أهم هذه الدول مصر واليمن ، وقد أضفى البحر الأحمر على مملكة أوفات أهمية كشريان تجارى بين الشرق والغرب ، واحتلت مدن زيلع وتاجورة وعيذاب وسواكن والسويس وغيرها مكانة مرموقة فى عالم تجارة العصر الوسيط وبعض العصور الحديثة ، وكان أهل أوفات حملة التجارة الشرقية مع إخوانهم الأريتريين والسودانيين واليمنيين ، وكونوا خطاً تجارياً ضخماً ، بنقل المتاجر بين موانئ البحر الأحمر الجنوبية والمحيط الهندى، وبين موانئ مصر الشمالية التى ينقل منها التجار الإيطاليون إلىأوربا. أما المصريون فقد أعطوا اهتماماً كبيراً لتجارة البحر الأحمر وخطا بيبرس خطوات واسعة نحو تأمين دولته المترامية الأطراف ، والملاحة فى البحر الأحمر ، إذ استنكر تعرض صاحبى سواكن ودهلك للتجارة فى عام٦٦٢هـ/١٢٦٤م وبعد عامين من ذلك سير حملة استولت على سواكن ، وأقرت الأمور فيها ، مما أدى إلى تقرب حكام دهلك إلى المماليك(١) .

وكانت اليمن من أهم الدول الإسلامية فى شرق البحر الأحمر التى ارتبطت بها مملكة أوفات بعلاقات سياسية اقتصادية وثقافية ، لأن معظم المستوطنين العرب فيها كانوا من أصل يمنى وكانت مملكة أوفات ملجأ الهاربين من دوامة الصراع فى اليمن .

وكان لأوفات - بجانب العلاقات السابقة - صلات ثقافية مع المشرق العربى ، وفى مراكزه الثقافية كالأزهر والجامع الأموى بدمشق والحرمين

---

(١) للمزيد انظر : محمد عبد العال أحمد . بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية فى عهدها ، (الأسكندرية ، ١٩٨٠م) ص٣٧٧ .

الشريفين ، وتنقل العلماء والطلاب على طول الإمبراطورية الإسلامية وعرضها بحرية وأمان ، وظهر فى هذا الجو العلمى الرائع علماء زيلعيون صاروا جهابذة العلم ، وحازوا على شهرة فى محيط الدولة الإسلامية ، حيث استقروا بصفة مستديمة فى مصر والشام واليمن والحجاز والعراق ، فاهتم بهم كتاب تراجم العلماء المسلمين والبارزين فى مجال العلوم الإسلامية ، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر ، الشيخ فخر الدين الزيلعى ، وجمال الدين أبو محمد الزيلعى ، وغيرُهما كثير(١) .

(١) جلال الدين السيوطى ، حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة (القاهرة د . ت) جـ١ ، ص١٥١ - ١٥٢ ، الشوكانى ، البدر الطالع ، جـ١ ، ص٤٠٢ - ٤٠٣ ، عبد الرحمن زكى ، أفريقيا الإسلامية (القاهرة ، ١٩٨٥م) جـ٢ ، ص٣٦ - ٣٧ .

الخلافة المذهبية فى أفريقية الأغلبية

د. محمد بركات البيلى

كلية الآداب - جامعة القاهرة

ما إن انتشر الإسلام فى أفريقية عقب فتح المسلمين إياها فى أواخر القرن الأول الهجرى أوائل القرن الثامن الميلادى(١) . حتى أصبحت مرتعاً خصباً للفرق والمذاهب الإسلامية التى توالى قدومها من المشرق الإسلامى لسبب أو لآخر ، بعضها فى أثر بعض ، لتبث آراءها فى أهل المغرب آملة أن تحقق بعضاً من النجاح الذى عجزت عن تحقيقه فى المشرق بسبب يقظة الخلافة الأموية فى الذب عن الجماعة(٢) فىالمشرق الإسلامى . ومن جانبهم أقبل أهل المغرب على تلك الفرق والمذاهب إقبالاً متفاوتاً يتأثر مداه بمدى ملائمة آرائها لظروف المغاربة السياسية ومقوماتها الذهنية والنفسية.

---

(١) واكبت الجهود المبذولة لنشر الإسلام فى أفريقية والمغرب مسيرة الفتح الإسلامى لها والذى امتد طويلاً لنحو سبعة عقود . لكن هذه الجهود نشطت عقب الفتح الإسلامى حتى قيل - (كما يفهم من الرقيق القيروانى : تاريخ أفريقية والمغرب ، تحقيق المنجى الكعبى ، تونس / ١٩٦٨ ، ص٦١) - إن بقية البربر قد أسلموا فى غضون عقد واحد فقط بعد الفتح الإسلامى وإن إسلامهم قد تم على يدى إسماعيل بن أبى المهاجر الذى تولى على أفريقية من قبل عمر بن عبد العزيز سنتى ١٠٠ - ١٠١هـ .

(٢) كان مفهوم الجماعة مفهوماً مجازياً بعد الفتنة الكبرى ومقتل عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين فلم يجتمع المسلمون بعده على خليفة واحد وما سمى بعام الجماعة الأول فى خلافة معاوية وعام الجماعة الثانى فى خلافة عبد الملك بن مروان كان على سبيل المجاز الذى لا يطابق واقع المسلمين وقتذاك .

اتبع أهل أفريقية أول إسلامهم مذهب جمهور السلف الذى أخذوه عمن دخل بلدهم من الصحابة[١] . والتابعين[٢] . ومنهم من أرسل إلى أفريقية خصيصاً لتعليم أهلها الإسلام وتفقيههم فيه مثل التابعين العشرة الذين أرسلهم إلى أفريقية الخليفة عمر بن عبد العزيز فى مستهل القرن الثانى الهجرى[٣] . وانخرط أهل أفريقية أول إسلامهم فى عداد الجماعة . فالخلافة الأموية التى فتحت أفريقية والمغرب كانت تمثل الجماعة الإسلامية ، وينظر إلى خلفائها فى أفريقية – وغيرها من بلدان العالم الإسلامى – على أنهم " أهل الجماعة " بينما تعد التيارات المعارضة لها خارجة على الجماعة[٤] . لكن تجاوزات الحكم الأموى ومساوئه أدت إلى تصاعد التيارات المعارضة للأمويين فى المشرق الإسلامى على الرغم من قلة محصولها السياسى ، وما لبثت أن حولت وجهتها شطر المغرب الإسلامى الذى مهدت ظروفه السياسية السبيل أمام الفرق المعارضة للحكم الأموى لتنفذ إلى بلاد المغرب ، لا سيما وأن الصلات الوثيقة بين مشرق العالم الإسلامى ومغربه ، ودوام الأسفار التى يقوم بها المشارقة والمغاربة بين جناحى العالم الإسلامى ذهاباً وإياباً لأسباب

(١) منهم على سبيل المثال : العبادلة السبعة الذين كانوا فى جيش عبد الله بن سعد بن أبى السرح ومعاوية بن حديج وبسر بن أبى أرطأة وغيرهم .

(٢) مثل : معبد بن العباس وعاصم بن عمر بن الخطاب ومروان بن الحكم وعقبة بن نافع وزهير بن قيس البلوى ومحمد بن أوس الأنصارى وغيرهم .

(٣) من هؤلاء التابعين العشرة إسماعيل بن أبى المهاجر وإلى أفريقية وإسماعيل بن عبيد الأنصارى المعروف بتاجر الله وعبد الرحمن بن رافع التنوخى الذى ولى قضاء أفريقية ، وغيرهم وكل هؤلاء ثقات عند المحدثين على حد قول أبى العرب تميم (طبقات علماء أفريقية ، تونس ، تحقيق محمد بن شنب (ب. ت) ص ص ٢٠-٢١).

(٤) شاكر مصطفى : دولة بنى العباس ، الكويت : ١٩٧٣ جـ١ ص ص٢٨ – ٢٩ .

شتى دينية أو تجارية أو علمية أو غيرها كانت تؤدى إلى انعكاس بعض التوجهات السياسية أو الدينية التى تظهر فى أحد الجناحين على الجناح الآخر، ومن ثم نفذت الفرق الإسلامية من المشرق وكان فى مقدمتها الخوارج الذين بدأوا نشاطهم فى المشرق الإسلامى لكنهم تلقوا ضربات عنيفة على أيدى الأمويين كادت أن تجهز عليهم فتداركوا أمرهم باللجوء إلى المغرب الإسلامى الذى كانت أحواله مهيأة لاستقبالهم .

كان البربر قد أسهموا بدور لا يمكن إنكاره فى فتح بلادهم بأنفسهم حتى أن بعض الباحثين يرى أنه لولا ما بذله البربر من جهود فى مساندة الفاتحين العرب لما تمكنوا من إحراز ما حققوه من نتائج فى فتوح بلاد المغرب[1] . ولقد تطلع البربر بعد هذا الإسهام وتلك المساندة التى بذلوها إلى أن يعاملهم العرب بعد الفتح كرفاق سلاح ووفقاً للمساواة التى ينادى بها الإسلام الذى اعتنقوه وآمنوا به آملين فى الإفادة من قيمه ومبادئه ، وأن يشركهم العرب فى حكم بلادهم . لكن الدولة الأموية المرتكزة على العنصر العربى تجاهلت الآمال التى جالت فى صدور البربر وحرمتهم من المشاركة فى السلطة السياسية فى بلادهم ، فاعتبر البربر ذلك الموقف من الدولة الأموية جحوداً بحقهم فى المشاركة السياسية ونكراناً للجهود التى بذلوها فى الفتح ، واعتبروا ذلك خروجاً على مبادىء الإسلام وتعاليمه التى آمنوا بها فباتوا على استعداد لقبول الدعوات الإصلاحية الدينية التى تمنيهم بالتحرر من جور الحكومة الأموية القائمة ، وتهيأوا لمسايرة القوى السياسية المعارضة

(١) حسين مؤنس : فجر الأندلس ، القاهرة : ١٩٥٩ ص١٤٧ .
ومحمد البيلى : البربر فى الأندلس منذ الفتح الإسلامى حتى نهاية عصر الأمارة رسالة دكتوراه ، آداب القاهرة / ١٩٨٢ ، ص١٠ .

للخلافة الأموية ، فانفتح بذلك المجال أمام دعاة الخوارج الذين تسللوا إلى المغرب بعد فشلهم فى تحقيق مآربهم فى المشرق فوجدوا فى أفريقية والمغرب تربة ملائمة لبذر أفكارهم المناوئة للخلافة الأموية التى طالما اتهموها بأنها تقوم على مبدأ جماعة فاسد ويعتقدون أنهم وحدهم هم "الجماعة" بالمعنى الحق(١) .

حقق الخوارج فى بلاد المغرب نجاحاً وتقبلاً لدعوتهم لم يجدوا مثيلاً له فى المشرق ، واعتنق المغاربة فكر الخوارج بحماس إذ لم يكونوا بعد على المستوى الفكرى الذى يؤهلهم لفهم التأملات النظرية والتدقيقات العقائدية ، لكنهم فهموا من فكر الخوارج قدراً يكفى لاعتناقهم آراءهم الثورية والديمقراطية ولمشاركتهم آمالهم فى المساواة بين الناس ، ولم يروا إثماً فى الخروج على المستبد بل كانت الثورة عليه - فى رأيهم - حقاً وواجباً ولما كان العرب قد أبعدوهم عن السلطة فقد اعتقد البربر أن مذهب سيادة الشعب هو مذهب إسلامى سنى وأن أقل بربرى يمكنه اعتلاء سدة الحكم بفضل الانتخاب العام(٢) . ويرى البعض أن البربر وجدوا تناقضاً بين تعاليم الإسلام فى العدل والمساواة وبين سياسة الأمويين الجائرة فأقبلوا على فكر الخوارج الذى كان واضحاً ومتسقاً مع أفكارهم ومتمشياً مع طموحاتهم السياسة(٣) وقد ذهب البعض إلى تشبيه ثورة الخوارج فى بلاد المغرب بالحركة الدوناتية

---

(١) فلهوزن : الدولة العربية ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ، القاهرة ١٩٥٨م ص٦١ ، وعلى الشابى : نشوء المذهب الخارجى بأفريقية والمغرب ، مجلة الفكر التونسية ٩ / ١٩٦٧ ص ص٢٨ - ٧٤ .

(2) Dozy; Histoire des Musulmans d'Espagne, Leyde, 932 Vol. I. p. L 49.

(٣) محمود إسماعيل عبد الرازق : الخوارج فى المغرب الإسلامى ، بيروت / سنة ١٩٧٦ ، ص ص ٣٤ - ٣٥ .

المسيحية - التى قادها دوناتوس فى العصر البيزنطى - من حيث التدين الشديد والالتزام بأصول العقيدة والتطرف واختلاط العامل الدينى بالعوامل السياسة والاجتماعية(١) .

وهكذا تهيأت بلاد المغرب لقبول دعوة الخوارج خاصة الصفرية منهم والأباضية ، ويتساءل البعض حول إقبال البربر على فكر الخوارج الصفرية والأباضية دون غيرهما لا سيما وأن مبادىء هذين المذهبين-خاصة الأباضية- أكثر مبادىء الخوارج مسالمة وتسامحاً مما لا يتناسب مع طبيعة البربر الذين لا يميلون إلى الاعتدال فى العقائد(٢) .

والواقع أن البربر لم يصل إليهم شىء عن فرق الخوارج الأخرى لأن الأزارقة كانوا قد اختفوا عن الساحة السياسية فى المشرق بعدما كيل لهم من ضربات على يد المهلب بن أبى صفرة ، والنجدات تضاءل شأنهم فى المشرق نتيجة ضربات مماثلة(٣) . لذلك لم ينفذ إلى المغرب إلا الدعاة الصفرية والأباضية وفى مقدمتهم سلمة بن سعيد الأباضى وعكرمة مولى ابن عباس الصفرى(٤) .

---

(1) Gautier; Le Passe de L'Afrique du Nord, Paris, 1942. P. 285 - Sqq.

(٢) حسين مؤنس : المرجع السابق ص١٤٩ . ومحمود إسماعيل عبد الرازق ، التفسير الاجتماعى لثورة المغاربة فى القرن الثانى الهجرى " المؤتمر الأول لتاريخ المغرب وحضارته " جـ١ تونس سنة ١٩٧٩ ص١٦٢ .

(٣) محمود إسماعيل عبد الرازق : الخوارج فى المغرب ، ص٣٧ .

(٤) أبو زكريا : كتاب السيرة وأخبار الأئمة ، تحقيق عبد الرحمن أيوب ، تونس / ١٩٨٥م. ص٤٢ ، وعلى الشابى : المرجع السابق ص٣١ . وحسن على حسن : الحياة الدينية فى المغرب ، القاهرة سنة ١٩٨٥ ، ص١٢٩ .

غير أننا لا نرى سبباً لنعت البربر بعد الاعتدال فى العقائد ، فليس معنى إقبال البربر على الدعوة الخارجية حيناً من الدهر أنهم كانوا بعيدون عن الاعتدال ، إذ كانت دعوة الخوارج هى المعارضة السياسية الوحيدة المعروضة عليهم حينذاك فلم يكن أمامهم إذن مجال للاختيار والمفاضلة بين الدعوات السياسية المعتدلة والدعوات المتطرفة ، بل إن انضمامهم إلى أكثر فرق الخوارج اعتدالاً ينفى عنهم فكرة عدم الاعتدال ، فقد كان الصفرية والأباضية يمثلون القعدة (المعتدلون) من فرق الخوارج ، وقد دخل هؤلاء القعدة فى دور الكتمان والسرية بعدما كيلت لهم من ضربات ساحقة فى المشرق وتمكنوا بعد ذلك من إعداد تنظيمات سرية لدعوتهم وإيفاد دعاتهم سراً إلى بلاد المغرب(١) . وكانت آراء الأباضية خاصة أقرب ما تكون إلى السنة التى مال البربر إليها منذ أول إسلامهم . وقد توغل دعاة الخوارج فى المناطق التى يتواجد فيها السواد الأعظم من البربر بعيداً عن مناطق التجمعات العربية المتمركزة فى المدن الكبرى كالقيروان ، ولم يبصر البربر فروقاً كبيرة بين مذهب أهل السنة والجماعة ومذاهب الخوارج المعتدلين لجهلهم بالكثير من دقائقها حتى أن المعلومات الأولية التى تلقاها عامة البربر من دعاة الخوارج المعتدلين قد هيأتهم لاعتناق مذهب أهل السنة حينما لم تقف العوامل السياسية عائقاً دون ذلك(٢) .

كان الخلاف المذهبى الأول فى العالم الإسلامى خلافاً سياسياً دينياً بمعنى أنه يوظف الدين فى خدمة الأهداف السياسية ، وكانت الإمامة أو

---

(١) عوض خليفات : النظم الاجتماعية والتربوية عند الأباضية فى شمال أفريقية فى مرحلة الكتمان ، عمان / ١٩٨٢ ، ص ص ١٥ - ١٦ .

(٢) ألفرديل : الفرق الإسلامية فى الشمال الأفريقى ترجمة عبد الرحمن بدوى ، بيروت: ١٩٨١م ص ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

الخلافة أولى المسائل التى فرقت بين المسلمين ومزقتهم شيعاً وأحزاباً(١) . وكان للخوارج رأى فى الخلافة يتوافق مع الطموحات السياسية البربرية لذلك كانت الثورة التى أشعلوها فى بلاد المغرب ثورة عنيفة كابدت الدولة الأموية كثيراً من المشقة فى التصدى لها وسقطت الخلافة الأموية دون أن تجهز تماماً على الخوارج فى المغرب مثلما أجهزت عليهم فى المشرق فاستكمل العباسيون المهمة من بعدهم حتى انحسمت المعركة فى أفريقية فى النهاية لصالح السنة والجماعة ، ويئس الخوارج من أن يكون لهم فيها نفوذ فاتجهوا بأنظارهم إلى خارج أفريقية السنية ، فأقاموا لهم كيانات سياسية فى مناطق محدودة فى جبل نفوسة جنوبى طرابلس وفى تاهرت وسجلماسة(٢) وكانت هذه الكيانات الصغيرة أشبه بجزر صغيرة وسط بحر زاخر من أهل السنة يشمل بلاد المغرب كلها من أفريقية إلى المغرب الأقصى لا سيما بعد أن برزت الوجهة المذهبية السنية لفاس الإدريسية(٣) .

وإذا كانت أفريقية قدخرجت من هذا المعترك بين الخلافة والخوارج سنية المذهب تماماً فإنها ما لبثت أن عانت من خلاف مذهبى من نوع جديد لم

---

(١) فان فلوتن : السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات ، ترجمة حسن إبراهيم ، القاهرة : سنة ١٩٦٥م ص٦٩ .

(٢) حسين مؤنس : تاريخ المغرب وحضارته ، جدة / سنة ١٩٩٠م ، ص٣٥٢ .

(٣) يذهب بعض المؤرخين إلى أن دولة الأدارسة العلوية كانت شيعية المذهب مستندين فى ذلك إلى علويتها من ناحية ومن ناحية أخرى إلى ترحيب إدريس الأول بن عبد الله بسليمان بن جرير المعروف بالشماخ الذى كان زيدياً . إلا أن ذلك لا يكفى لوصم دولة الأدارسة بالتشيع إذ لم يكن كل العلويين شيعة ولم يكن كل الشيعة علويين . وقد كان ترحيب إدريس الأول بالشماخ على سبيل الائتناس بمشرقى وفد إليه فى غربته الموحشة وفضلاً عن هذا فقد أظهر الأدارسة بعدهم التام عن التشيع وتمسكهم بالسنة حينما اتخذ إدريس الثانى المذهب المالكى مذهباً رسمياً لدولته .

يكن خلافاً بين الفرق الإسلامية من سنة وخوارج أو غيرها وإنما كان خلافاً بين أهل السنة أنفسهم من أصحاب المذاهب الفقهية السنية التى تنازعت على الساحة الأفريقية .

لقد واكب ظهور الخلافة العباسية نضوج الدراسات الفقهية ، وابتدأ ظهور المذاهب الفقهية السنية فى بداية العصر العباسى بالمذهب الحنفى فى العراق والمذهب المالكى فى الحجاز وقد عرف أولهما بمذهب أهل الرأى بينما عرف الآخر بمذهب أهل الحديث . ولم يتوان المذهبان عن الدخول إلى بلاد المغرب وإن كان قصب السبق فى ذلك من نصيب المذهب الحنفى الذى ينسب إلى الإمام أبى حنيفة النعمان بن ثابت .

يعلل السلاوى دخول المذهب الحنفى إلى بلاد المغرب فيقول : " ولما طهر الخلفاء من بنى العباس المغرب من هذه النزعة الشيطانية – يقصد الخوارج – أخذ أهلها بمذهب أهل العراق .... لأن ذلك المذهب يومئذ هو مذهب الخلفاء بالمشرق والناس على قدم إمامهم "(١) . لكن عبارة السلاوى قد تفسر ذيوع المذهب الحنفى فى بلاد المغرب أكثر من تبريرها لأسبقية دخوله إليها . وواقع الأمر أن المذهب الحنفى سبق فى الدخول إلى بلاد المغرب لأنه كان الأسبق ظهوراً على الساحة الفقهية قبل المذاهب الفقهية السنية الأخرى . وإذا كان المقدسى ينقل عن مغاربة مجهولين أن المذهب الحنفى دخل إلى بلاد المغرب لاحقاً على المذهب المالكى(٢) فمن الصعب الاعتماد على روايته

(١) الاستقصا لمعرفة دول المغرب الأقصى ، تحقيق جعفر ومحمد الناصرى ، الدار البيضاء / ١٩٥٥ جـ١ ص١٢٤ .

(٢) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، نشر دى خوية ، ليدون / ١٩٠٦م ، ص٢٣٧ .

المضطربة(١) بينما ثبت تاريخياً أن عبد الله بن فروخ كان يتردد على أبى حنيفة قبل تردده على مالك بن أنس(٢) . وقد ذكر المقريزى أن أفريقية كان يغلب عليها السنن والآثار إلى أن قدم عبد الله بن فروخ الفارسى بمذهب أبى حنيفة(٣) . وهناك من يؤكد أسبقية المذهب الحنفى فى الدخول إلى بلاد المغرب وأنه " كان الغالب على المغرب فى القديم مذهب الكوفيين إلى أن دخل على ابن زياد التونسى وابن أشرس والبهلول بن راشد وغيرهم من الحفاظ بمذهب مالك فأخذه كثير من الناس "(٤) .

---

(١) يروى المقدسى : " لما قدم وهب بن وهب من عند مالك حاز من الفقه والعلوم ما حاز استنكف أسد بن عبد الله أن يدرس عليه لجلالته وكبر نفسه فرحل إلى مالك فوجده عليلاً فلما طال مقامه عنده قال له ارجع إلى ابن وهب فقد أودعته علمى وكفيتكم به الرحلة فصعب ذلك على أسد وسأل هل يعرف لمالك نظير فقالوا فتى بالكوفة يقال له محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة ، قالوا فرحل إليه " . ويبدو اضطراب هذه الرواية فى النقاط التالية :

(أ) لا يوجد من يسمى وهب بن وهب وإذا كان المقصود هو عبد الله بن وهب فقيه مصر فإنه لم يدخل المغرب كما أن أسد بن عبد الله لا وجود له أيضاً وإذا كان المقصود هو أبو عبد الله أسد بن الفرات فإنه لم يأخذ عن عبد الله بن وهب وإنما أخذ عن عبد الرحمن بن القاسم .

(ب) كان استنكاف أسد بن الفرات أن يأخذ عن سحنون المدونة التى دونها عن ابن القاسم تعديلاً لما كان أسد قد دونه عن ابن القاسم نفسه فى الأسدية .

(٢) الدباغ : معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان ، تحقيق محمد الأحمدى أبو النور ، القاهرة / ١٩٦٨م جـ١ ص٢٣٨ .

(٣) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بولاق : سنة ١٢٧٠م ، جـ٢ ص٣٣٣ .

(٤) المكناسى : جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس ، الرباط / سنة ١٩٧٣م، جـ١ ص١٩٤ وعياض : ترتيب المدارك ، وتقريب المسالك ، تحقيق أحمد بكر محمود، بيروت / سنة ١٩٦٧م ، جـ١ ص٥٤ .

وبعد المذهب الحنفى ، دخل المذهب المالكى إلى بلاد المغرب وهو المذهب الذى أسسه مالك بن أنس أمام دار الهجرة ، وينسب إلى على بن زياد التونسى أنه أول من أدخل إلى بلاد المغرب موطأ مالك وفسر قوله للمغاربة(١) غير أنه من المحتمل أن يكون دخول المذهب المالكى إلى المغرب سابقاً على دخول الموطأ كاملاً ، فقد دخلت متفرقات من أقوال مالك ومسائل أخذت عنه إلى بلاد المغرب قبل دخول الموطأ ، والتقى بعض القرويين(*) بمالك بن أنس قبل أن يلقاه على بن زياد التونسى(٢) لكن على بن زياد كان بلا شك أول من أدخل الموطأ كاملاً إلى بلاد المغرب .

مال كثير من فقهاء المغاربة إلى مذهب مالك وتعلقت به أفئدتهم وتوافدوا تباعاً إلى المدينة المنورة للتتلمذ على الإمام مالك ، ويعلل ابن خلدون ميل المغاربة إلى المذهب المالكى فيقول " لما أن رحلتهم كانت غالباً إلى الحجاز وهو منتهى سفرهم والمدينة يومئذ دار العلم ومنها خرج إلى العراق ، ولم يكن العراق فى طريقهم ، فاقتصروا على الأخذ عن علماء المدينة وشيخهم يومئذ وإمامهم مالك ، وشيوخه من قبله وتلاميذه من بعده فرجع إليه أهل المغرب والأندلس وقلدوه دون غيره ممن لم تصل إليهم طريقته ، وأيضاً فالبداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس ولم يكونوا

---

(١) المالكى : رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وأفريقية ، تحقيق حسين مؤنس القاهرة / سنة ١٩٥١م ، جـ١ ص٢٣٤ . وحسن على حسن : المرجع السابق ، ص١٠١ .

(*) النسبة إلى القيروان : قروى وقيروانى .

(٢) الرقيق القيروانى : المصدر السابق ، ص ص ١٧٩ - ١٨٠ وأبو العرب تميم : المصدر السابق ، ص١٠٧.

يعانون الحضارة التى لأهل العراق فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة "(١) . وعلى الرغم مما على عبارة ابن خلدون من مآخذ فإنها تقدم عاملين صحيحين كانا وراء ميل المغاربة إلى مذهب مالك أولهما أنه كان أمام دار الهجرة التى يفد إليها المغاربة للحج ولطلب العلم ، وثانيهما توافق علم المدينيين مع عقلية المغاربة لما بين الحجاز والمغرب من تشابه حينذاك فى الظروف الحضارية ويرى بعض الباحثين أن حالة المغرب كانت تتطلب مذهباً فقهياً كالمذهب المالكى يجمع الناس فى حزم على رأى واحد فى القضية الواحدة دون أن يشتت أذهانهم حول المسائل الفقهية ، فضلاً عن أن سلوك مالك بن أنس كان مثالاً يحتذى وأسوة حسنة سواء فى تعامله مع السلطان أو فى طريقة تدريسه لتلاميذه وتنظيمه لدروسه وفقاً لخطة دقيقة ، فاكتسب بسلوكه العلمى والعملى محبة تلاميذه المغاربة وإعجابهم فحرصوا على القدوم إليه والاقتداء به(٢) .

ولقد كان تلاميذ مالك المغاربة أنفسهم قدوة حسنة لمواطنيهم مما زاد من إعجاب المغاربة بالمذهب المالكى وميلهم إليه(٣) . ويمكننا أن نضيف إلى ذلك حسن عناية الإمام مالك بتلاميذه وحسن إعداده لهم ، بل واختياره إياهم وفقاً لمواصفات خاصة أهمها ضرورة اقتدائهم به والتزامهم بفقهه ، يدل على

---

(١) العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بيروت / ١٩٩٢م ، جـ١ (المقدمة) ص ص ٤٨٠-٤٨١ وإبراهيم أحمد العدوى : بلاد الجزائر ، تكوينها فى العصر الإسلامى ، القاهرة/ ١٩٧٠م ، ص٢٣٥ .

(٢) حسين مؤنس:معالم تاريخ المغرب والأندلس،القاهرة:سنة ١٩٨٠م، ص ص٧٤-٧٥ .

(٣) السيد محمد أبو العزم ، الأثر السياسى والحضارى للمالكية فى شمال أفريقية القاهرة سنة ١٩٨٥ ، ص٦٣ .

ذلك أنه لمح فى أسد بن الفرات بجابة وذكاء لكنه وجده كثير السؤال أميل إلى أهل الرأى فوجهه إلى العراق كى يجد هناك ما يناسبه(١) . وفضلاً عما سبق فقد تزايد إقبال المغاربة على الإمام مالك ومذهبه إعجاباً منهم بموقفه المناهض للعباسيين ، ومهما كانت أسباب محنته التى تعرض فيها للضرب على أيدى العباسيين(٢) فقد كان موقفه منهم يعد لدى المغاربة تحدياً للسلطة المركزية التى طالما عارضوها ولذلك أصبح مالك بعد ذلك الضرب " فى رفعة من الناس وعلو وإعظام حتى كأنها تلك الأسواط حلياً حلى بها "(٣) .

كان فقهاء المغاربة الأوائل سواء المالكية منهم أو الأحناف على قدر من التسامح والبعد عن التشدد حتى كان منهم من يأخذ عن مالك وعن أبى حنيفة معاً دون تحرج ، فعلى سبيل المثال ، كان عبد الله بن فروخ يأخذ عن أبى حنيفة وعن مالك فى نفس الوقت(٤) . وكان عبد الله بن غانم الفقيه الورع وأحد القضاة الذين يفخر بهم أهل أفريقية يكتب إلى مالك ويكتب أيضاً إلى أبى يوسف تلميذ أبى حنيفة(٥) وكان أسد بن الفرات يأخذ عن مالك وعن

---

(١) المالكى ، المصدر السابق ، جـ١ ص١٧١ .

(٢) عن محنة مالك بن أنس وأسبابها ، انظر : ابن فرحون : الديباج المذهب فى أعيان علماء المذهب ، تحقيق محمد الأحمدى أبو النور ، القاهرة / ١٩٧٤م ، ص٢٨ وعياض : المصدر السابق جـ١ ص ص ٢٢٨ - ٢٣٠ .
- من أسباب محنة مالك أنه أفتى الناس عند قيام ذى النفس الذكية محمد بن حسن العلوى بأن بيعة أبى جعفر المنصور لا تلزم لأنها على الإكراه .

(٣) عياض : المصدر السابق ، جـ١ ص٢٢٨ .

(٤) أبو العرب تميم : المصدر السابق ، ص٣٤ .

(٥) الرقيق القيروانى : المصدر السابق ، ص ص ١٧٥ - ١٧٨ والمالكى : المصدر السابق جـ١ ص٢١٥ والدباغ : المصدر السابق ، جـ١ ص٢٢٨ .

تلاميذ أبى حنيفة فعده الأحناف منهم وعده المالكية منهم أيضاً(١) ، والواقع أن أسد ابن الفرات كان يتجه اتجاهاً توفيقياً بين المذهبين الحنفى والمالكى فكان ينظر فى القضايا التى ناقشها مالك من منظور حنفى وكان يقرأ على أهل أفريقية فقه أبى حنيفة حتى إذا فرغ منه طلبوا منه فقه مالك قائلين له : أوقد القنديل الثانى يا أبا عبد الله فقرأ عليهم فقه مالك(٢) مما يدل على أن أهل أفريقية كانوا حينذاك لا يتحرجون من سماع الفقه الحنفى مثلما يسمعون الفقه المالكى . وكان أبو يحيى أحمد بن قادم حافظاً لمذهب أهل العراق ومذهب أهل المدينة أيضاً(٣) . وغير هؤلاء كثيرون ممن يجمعون بين فقه العراقيين وفقه المدينيين إذ لم يكن التعصب المذهبى قد استفحل بعد فى أفريقية السنية .

لكن التسامح المذهبى لم يستمر طويلاً فى أفريقية فما لبث التعصب المذهبى لأحد المذاهب الفقهية دون سائر المذاهب الأخرى أن عرف طريقه إلى الساحة الأفريقية خاصة فى عهد الأغالبة ، وهو الأمر الذى دفعنا إلى محاولة التعرف على أسباب حدوثه وفهم دوافعه لا سيما وأن فقهاء السنة على اختلاف مذاهبهم الفقهية كانوا قد تكاتفوا من قبل وتضافرت جهودهم فى مواجهة الدعوة الخارجية وطلبوا من الخلافة أن تبذل ما فى وسعها للقضاء على تلك النزعة الخارجية(٤) ، وساندوا من جانبهم تلك الجهود التى بذلت

---

(١) المالكى : المصدر السابق جـ١ ص٢٧٤ والدباغ : المصدر السابق ، جـ٢ ص٢٩ .

(٢) عياض : المصدر السابق ، جـ١ ص ص ٤٧٤ - ٤٧٥ . وعبد العزيز المجدوب : الصراع المذهبى بأفريقية إلى قيام الدولة الزيرية،تونس/سنة ١٩٧٥م ، ص٥٠ -٥١ .

(٣) الدباغ : المصدر السابق ، جـ٢ ص١١١ .

(٤) نفس المصدر ، جـ١ ص٢٣١ والمالكى : المصدر السابق ، طـ١ ص١٠٢ .

للقضاء على ما أسموه " البدعة الخارجية " مما أكد الميول السنية لأهل أفريقية من ناحية ، ومن ناحية أخرى جعل الخلافة العباسية أول أمرها ، وبناء على وقفة الفقهاء الموحدة - رغم اختلاف مذاهبهم - فى دعم جهودها ضد الخوارج لا تميز ولا تفاضل بين الفقهاء حسب مذاهبهم حين تقليد أحدهم القضاء ، وإنما كانت تولى القضاء من يصلح له منهم ، حنفياً كان أو مالكياً على حد سواء ، فعلى سبيل المثال قلد الخليفة هارون الرشد عبد الله غانم قضاء أفريقية رغم أنه كان معدوداً فى أصحاب مالك(١) .

وقد ساعد هذا الموقف من قبل العباسيين الأوائل على إضفاء جو من التسامح وعدم التشدد المذهبى أول الأمر فى أفريقية لا سيما وأن كبار فقهائها كعبد الله بن فروخ وعبد الله بن غانم وأسد بن الفرات وأبو محرز محمد بن عبد الله بن قيس الكنانى لا يتحرجون من الأخذ بقول المدينيين أو بقول العراقيين - كما ذكرنا آنفاً - إذا رأوا الصواب فى هذا الرأى أو ذاك . لكن هذا التسامح المذهبى ما لبث أن حل محله التعصب المذهبى المقيت والذى يبدو أنه تسلل إلى أفريقية نتيجة عوامل منها .

أولاً : ما لبث الأغالبة - أمراء أفريقية من قبل العباسيين - أن أظهروا انحيازاً إلى جانب فقهاء الحنفية خاصة بعد أن اعتبر المذهب الحنفى بمثابة المذهب الرسمى للدولة العباسية فى خلافة المأمون(٢) ، فما أن توفى القاضى عبد الله بن غانم سنة ١٩٠هـ / ٨٠٦م بعد أن مكث فى القضاء أكثر من تسعة عشر عاماً حتى قام إبراهيم بن الأغلب بتولية أبى محرز - وهو حنفى

(١) الرقيق القيروانى : المصدر السابق ، ص١٩٢ وعياض : المصدر السابق ص٣١٨.

(٢) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ،الأسكندرية ١٩٧٩م ،جـ٢ ص٦٩.

- القضاء فى سنة ١٩١هـ / ٨٠٦م[١] . وأخذ الأغالبة منذئذ يقربون إليهم الأحناف ويتجاهلون المالكية الذين كانوا مصدر إزعاج للأغالبة لاقتدائهم بإمامهم مالك بن أنس فى عدم ممالأة الحكام كما أنهم مارسوا نوعاً من الرقابة الشعبية على الحكام الأغالبة ولم يترددوا فى توجيههم[٢] فضاق بهم الأغالبة ، ومن ناحية أخرى كان الأمير الأغلبى طموحاً إلى الاستقلال الفعلى عن العباسيين وكان تعيين القاضى من قبله عنواناً لهذا الاستقلال وتدعيماً له ولذلك لم يتوان إبراهيم بن الأغلب عن تعيين أبى محرز فى القضاء عقب وفاة عبد الله بن غانم الذى كان تقلده القضاء من قبل الخليفة العباسى مباشرة. وكان اختيار ابن الأغلب لأبى محرز محاولة لإرضاء كل الأطراف فهو حنفى يتمشى مع المذهب الرسمى للدولة العباسية كما أنه كان ممن لقى مالك وسمع منه[٣] فعسى أن يتقبله المالكية باعتباره ممن أخذ بآراء الأحناف[٤] واتهموه بالاعتزال[٥] واعتبره البهلول بن راشد الذى كان واحداً من كبار مالكية أفريقية فى وقته - اعتبره من أهل الأهواء والبدع ولا يجوز إلقاء السلام عليه[٦] وعلى الرغم من عدم رضاء المالكية عن تقلد أبى محرز القضاء فى أفريقية فإنه ظل قاضياً لها أكثر من أثنى عشر عاماً حتى تولى

---

(١) الرقيق القيروانى : المصدر السابق ص١٦٩ .

(٢) سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق جـ١ ص٣٦٩ .

(٣) المالكى : المصدر السابق ، جـ١ ص٢٧٤ .

والدباغ : المصدر السابق ، جـ٢ ص٢٩ .

(٤) المالكى : المصدر السابق ، جـ١ ص٢٣٦ .

(٥) أبو العرب تميم:المصدر السابق ص٨٤ وعياض: المصدر السابق ، جـ١ ص٣٣٧ .

(٦) المصدران السابقان ، نفس الصفحات .

إمارة الأغالبة زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب الذى اضطرته الثورات والاضطرابات التى أثارها الجند والعامة فى أيامه إلى التقرب من المالكية واسترضائهم واستمالتهم إليه تعزيزاً لموقفه فى مواجهة تلك الاضطرابات(١) وسعى الوزير على بن حميد الذى كان مالكى الهوى فى إقناع الأمير الأغلبى بعزل أبى محرز عن القضاء وتولية أسد بن الفرات بدلاً منه ، ويبدو أن على ابن حميد أشار بأسد بن الفرات دون غيره من المالكية كيلا يبدو انحيازه للمالكية سافراً فأشار بأسد الذى كان يجمع بين أقوال مالك وأبى حنيفة – كما ذكرنا آنفاً – لكن زيادة الله الأول بن إبراهيم بن الأغلب قرر أن يشرك أسد بن الفرات فى القضاء مع أبى محرز فى سابقة لم يكن لها مثيل من قبل فى قضاء القيروان(٢) ويوضح الدباغ أن كلاً من القاضيين كان يقضى فى موضعه طبقاً للقواعد التى قال بها الماوردى(٣) .

(١) السيد محمد أبو العزم : المرجع السابق ، ص١٢٥ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، نشر كولان وليفى بروفنسال ، بيروت / سنة ١٩٤٨م، جـ١ ص٩٧ ، وعياض : المصدر السابق جـ١ ص٤٧٦ .

(٣) معالم الإيمان جـ٢ ص١٩ .

– جاء فى النص المطبوع لمعالم الإيمان " وبهذا قال المازرى " والصواب هو الماوردى الذى ذكر فى كتابه الأحكام السلطانية جواز تقلد قاضيين فى وقت واحد فى بلد واحد أما المازرى فهو أبو عبد الله محمد بن عمر التميمى الفقيه الحافظ المالكى ، شرح صحيح مسلم وسماه كتاب المعلم بفوائد مسلم توفى فيما يبدو سنة ٥٣٦هـ بالمهدية عن ثلاث وثمانين سنة (ابن فضل الله العمرى ، مسالك الأبصار ، السفر الخامس (مخ) ص٣٠٨ .

وإذا كان إشراك أسد بن الفرات فى القضاء مع أبى محرز محاولة من جانب زيادة الله الأول لاسترضاء المالكية فإن ذلك لم يكن يعنى تحول الأغالبة عن سياستهم فى تفضيل الأحناف على المالكية ، فسرعان ما انفرد أبو محرز بالقضاء على أفريقية مرة أخرى بعد أن خرج أسد بن الفرات إلى صقلية على رأس جيش لفتحها سنة ٢١٢هـ / ٨٢٧م . فلما توفى أبو محرز قلد زيادة الله قضاء أفريقية أحمد بن أبى محرز وكان حنفياً مثل أبيه ، فلما توفى أحمد بن أبى محرز تقلد قضاء أفريقية رجل آخر من الأحناف يدعى عبد الله بن أبى الجواد(١) . وقد ساعد الأغالبة على تنفيذ سياستهم فى تفضيل الأحناف على المالكية فى تقلد القضاء عزوف كثير من المالكية أنفسهم عن تولى القضاء فكانوا لا يتقلدونه إلا مكرهين تأسياً بإمامهم مالك بن أنس من ناحية وزهداً وورعاً من ناحية أخرى ، لكن المالكية المغاربة لم يتوانوا عن نصح الأمراء الأغالبة مثلما كان يفعل أبو محمد بن أبى حسان اليحصبى المالكى الذى كان حريصاً على نصح زيادة الله الأغلبى ووعظه(٢) . وأدى انحياز الأغالبة إلى الأحناف إلى سخط المالكية واتهامهم الأحناف بممالأة الحكام ومنافقتهم على حساب الدين وهو اتهام أغضب الأحناف كثيراً ودفعهم إلى التحرش بالمالكية وتحريض الحكام الأغالبة ضدهم ومن ثم دب التعصب المذهبى بين الفريقين .

ثانياً : نظر المالكية إلى الأحناف على أنهم من أهل الأهواء والبدع وشنعوا عليهم ، فعلى سبيل المثال كان على بن زياد التونسى يخاشن أبا

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ١ ص١٠٦ .

(٢) المالكى : المصدر السابق ، جـ١ ص٢١٢ والدباغ : المصدر السابق ، جـ٢ ص٥٨ وابن عذارى : المصدر السابق ، جـ١ ص١٠٨ .

محرز ويعده من أهل البدع ويزجر التلاميذ الذين يجتمعون على بابه للأخذ عنه والدرس عليه ويعلن رأيه فى العراقيين مقلاً من شأنهم ويقول إنهم يزعمون أنهم يحسنون القياس وقد بنوا على غير أساس(١) وكان معاصره البهلول بن راشد لا يسلم على الأحناف ولا يصلى على موتاهم وقد تأسى به فى ذلك كثير من فقهاء المالكية مثل سحنون بن سعيد(٢) . وعبد الله بن عبيد الله المهرى(٣) وغيرهما .

ثالثاً : وكان من عوامل التباعد بين مالكة أفريقية وأحنافها اتهام المالكية للأحناف بالاعتزال الذى لم يكن مقبولاً لدى المالكية خاصة القول بخلق القرآن ، فعلى سبيل المثال ، أغلظ البهلول بن راشد القول – على غير عادته – لأحد المالكية لمجرد أنه مر بسقيفة العراقيين وهم يتناظرون فى الاعتزال فوقف يستمع لهم(٤) ، وكان ابن فروخ رغم سعة أفقه وأخذه عن مالك وأبى حنيفة معاً يلعن المعتزلة ويرفض أن يصلى على موتاهم مثلما رفض هو وعبد الله بن غانم والبهلول بن راشد أن صلوا الجنازة على رجل معتزلى يدعى ابن صخرة(٥) . وزاد الطين بلة أن الأغالبة أخذوا فى تأييد المعتزلة ممالأة للخلفاء العباسيين الذين حاولوا منذ خلافة المأمون فرض الاعتزال على الساحة الإسلامية ، ولما كان الأحناف هم أكثر من تأثر

---

(١) المالكى : المصدر السابق ، جـ١ ص٢٣٦ .

(٢) الدباغ : المصدر السابق ، جـ٢ ص٢٦٦ .

(٣) أبو العرب تميم : المصدر السابق ، ص١٢٣ .

(٤) نفس المصدر ص ٥٤ .

(٥) عياض : المصدر السابق ، جـ١ ص٣٤٦ .

بالاعتزال فى أفريقية ، فقد اتسعت الفجوة بينهم وبين المالكية خاصة منذ أن تولى القضاء عبد الله بن أبى الجواد الذى كان حنفياً معتزلياً يقول بخلق القرآن(١) فلم يدخر جهداً فى إيذاء المالكية وكان يتزعمهم وقتذاك أبو سعيد سحنون بن سعد التنوخى الذى لم يكن فى تعصبه ضد العراقيين بأقل من تعصب ابن أبى الجواد ضد المدنيين واحتدمت الخصومة بين الرجلين فسعى ابن أبى الجواد فى إلحاق الأذى بسحنون وحرص زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب على ضرب سحنون بالسياط وحلق رأسه ولحيته لامتناعه عن الصلاة فى جنازة خلف ابن أبى الجواد ، ولم ينج سحنون من ذلك إلا بتدخل الوزير على بن حميد الذى منع تنفيذ ما أمر به الأمير الأغلبى من عقاب لسحنون(٢).

واشتدت محنة المالكية فى إمارة أحمد بن الأغلب بتحريض القاضى الحنفى ابن أبى الجواد خاصة بعد تقلص نفوذ على بن حميد وإبعاده عن السلطة فخسر المالكية سنداً قوياً كان يدفع عنهم الأذى وأخذ أحمد بن الأغلب الناس بالمحنة بخلق القرآن فاضطر رأس المالكية سحنون بن سعيد إلى الفرار من وجهه إلى قصر زياد(*) لكن جند الأغالبة أمسكوا به وأعادوه إلى القيروان فامتحنه القاضى ابن أبى الجواد فأعلن سحنون أن القرآن كلام الله غير مخلوق فأفتى ابن أبى الجواد بتكفيره ووجوب قتله وكاد أن يفتك به لولا أن أشار البعض بتحديد إقامته ومنعه من الاتصال بالناس وإبعاده عن الفتوى

---

(١) الدباغ : المصدر السابق ، جـ٢ ص٩٣ .

(٢) نفس المصدر ، نفس الصفحة ، وعياض : المصدر السابق ، جـ١ ص٦٠٩ .

(*) قصر زياد من محارس ساحل أفريقية ، بناه عبد الرحيم بن عبد ربه الزاهد فكان يعرف أيضاً بقصر عبد الرحيم .

وهو ما أسموه " قتل الحياة " الذى يعد بالنسبة لشخص مثل سحنون أنكى وأشد من القتل بالسيف(١) .

كشف العداء والتعصب المذهبى بين الأحناف والمالكية عن وجهه القبيح وكانت الجولة لصالح الأحناف لكن المالكية كانت لهم الجولة التالية إذ استعاد محمد بن الأغلب سلطانه من أخيه أحمد وحبسه بمعونة أهل القيروان فأحسن صلاتهم وكافأهم بعزل ابن أبى الجواد عن القضاء مما أثلج صدور القرويين ولقى استحسانهم وأثنى عليه سحنون شيخ المالكية ودعا له لأنه عزل " فرعون هذه الأمة وجبارها وظالمها "(٢) . وسار محمد بن الأغلب خطوة أبعد من ذلك فى إرضاء القرويين فاختار للقضاء بعد عزل ابن أبى الجواد كبير فقهاء المالكية فى وقته سحنون بن سعيد ، وعلى الرغم من امتناع سحنون من قبول القضاء عاماً كاملاً فإنه رضخ أخيراً بعد ضغوط من الأمير الأغلبى وطول إلحاح ، فتقلد سحنون القضاء بعد أن تعهد له الأمر بعدم التدخل فى شئون القضاء وتنفيذ كافة أحكامه وإطلاق يده فى كافة أفراد البيت الأغلبى ، بما فيهم الأمير نفسه(٣) .

كان تولى سحنون بن سعيد القضاء فترة ازدهار ونفوذ للمالكية(٤) ووبال وتضييق على الحنفية ولم ينس سحنون لعبد الله ابن أبى الجواد ما

---

(١) الدباغ : المصدر السابق ، جـ٢ ص ص ٩٤ - ٩٥ .

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ١ ص١٠٩ .

(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ١ ص١٠٩ والمالكى : المصدر السابق ، جـ١ ص٢٧٣ .

(٤) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار ، سفر ٦ (مخطوط) ، ص١١٨ .

اقترفه فى حق المالكية وفى حق سحنون نفسه وكيده له إبان توليه القضاء فحرص سحنون على الانتقام من ابن أبى الجواد شر انتقام وواتته الفرصة حينما ادعى ورثة رجل يدعى ابن القلفاط على ابن أبى الجواد بأنهم أودعوا لديه خمسمائة دينار حينما كان قاضياً ، واستظهرا عليه بخطه ، لكن ابن أبى الجواد أنكر الوديعة والخط ، ولم يهتم القاضى سحنون بن سعيد بالتثبت من صحة إدعاء ورثة ابن القلفاط أو صحة خط ابن أبى الجواد و إنما أمر بسجن ابن أبى الجواد وظل يخرجه كل يوم جمعة ويأمر بضربه عشرة أسواط كى يعترف بالوديعة دون جدوى ، ولم يقبل سحنون توسلات زوجة ابن أبى الجواد التى عرضت أن تدفع عن زوجها المال المتهم فيه والذى أصر هو على إنكاره ، وظل سحنون مثل بابن أبى الجواد حتى مرض ومات فشنع الناس أن سحنوناً قتله[1] .

لم يقتصر تعصب سحنون المذهبى على عدائه للأحناف بل امتد ليشمل معاداة كل المذاهب الأخرى ، فمنع أن تعقد فى جامع القيروان حلقات الصفرية والأباضية والمعتزلة التى كانوا يعقدونها فيه للمناظرة ، ومنعهم من أن يؤموا الناس فى الصلوات أو يعلموا الصبيان أو أن يكونوا مؤذنين وأمرهم ألا يجتمعوا وأدب جماعة منهم خالفوا أوامره وأطافهم وشهر بهم واستتاب جماعة[2] . وابتنى سحنون فى المسجد الجامع بيتاً للقضاء ، فكان هذا البيت

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق جـ١ ، ص١١٠ والمالكى : المصدر السابق جـ١ ص٢٧٨

(٢) أبو العرب تميم : المصدر السابق ، جـ١ ص١٠٢ والدباغ : المصدر السابق ، جـ٢ ص٨٧ . وعياض : المصدر السابق ، جـ١ ص٦٠٠ . وابن وردان ، تاريخ مملكة الأغالبة ق٢١ .

دوماً موضع نزاع بين الأحناف والمالكية بعد وفاة سحنون ، إذا تولى الأحناف القضاء هدموه وإذا تولى المالكية القضاء أعادوه(١) .

أثار تشدد سحنون بن سعيد سخط الأحناف وحنقهم وكانوا لا يزالون يمثلون أكثرية بين فقهاء أفريقية حينذاك(٢) ويبدو أنهم مارسوا ضغوطاً على الأمير الأغلبى الذى كان من جانبه قد ضاق بتشدد سحنون على قرابة الأمير وحاشيته ، لكن الأمير الأغلبى لم يكن يستطع عزل سحنون عن القضاء لمكانته الكبيرة فى نفوس القرويين(٣) فرأى الأمير الأغلبى أن يخفف من قبضة سحنون بعض الشىء فأشرك معه فى القضاء فقيهاً حنفياً يدعى الطبنى، واستاء سحنون لذلك واعتبره إقلالاً من شأنه لكنه لم يعتزل القضاء حتى توفى فى سنة ٢٤٠هـ / ٨٥٤م(٤) ، ولعله لم يقدم على اعتزال القضاء كيلا يعطى الأحناف فرصة الانتقام منه .

أعيد القضاء بعد وفاة سحنون بن سعيد إلى الأحناف فتقلده الفقيه الحنفى سليمان بن عمران منفرداً ولم يعد للطبنى أدنى ذكر مما لا يدل فقط على عزله وإنما يدل أيضاً على أنه أشرك فى القضاء مع سحنون نكاية فى شيخ المالكية . ولم يهدأ التعصب المذهبى بين الأحناف والمالكية بل تعقب كل منهما الآخر للنيل منه والإيقاع به ، وإذا كان الأحناف قد استندوا إلى تأييد الأمراء الأغالبة فقد كان المالكية يستندون إلى تأييد شعبى حماسى جارف

---

(١) الدباغ : المصدر السابق ، جـ٢ ص٨٨ وعياض : المصدر السابق جـ١ ص٦١٠ .

(٢) الدباغ : المصدر السابق ، جـ٢ ص٧٣ وحسن حسنى عبد الوهاب ورقات ؛ جـ٣ ص٤٤ .

(٣) عياض : المصدر السابق ، جـ١ ص٦٠٨ .

(٤) المالكى : المصدر السابق ، جـ١ ص٢٨٤ .

ومن ثم أخذ التنافس بين الأحناف والمالكية وجهاً سياسياً تمثل المالكية فيه جانب المعارضة(١) لكن المالكية بعد وفاة سحنون بن سعيد افتقدت الزعامة القوية، إذ تنافس على زعامتها اثنان من أصحاب سحنون هما ابنه محمد بن سحنون وتلميذه محمد بن عبدوس ، ولم يستطع أى منهما أن يحسم أمر الزعامة لصالحه ، فخيم شبح الانقسام على المالكية لاختلاف مشيختها حول مسألة الإيمان وانقسموا إلى طائفتين : السحنونية أتباع محمد بن سحنون والعبدوسية أتباع محمد بن عبدوس كل طائفة تتعصب لصاحبها فكان ابن سحنون يقول : المرء يعلم اعتقاده فكيف يعلم أنه يعتقد الإيمان ثم يشك فيه ويقول أيضاً:أنا مؤمن عند الله،أما ابن عبدوس وأصحابه فكانوا ينكرون مقولة ابن سحنون ويقولوا بدلاً من ذلك،أدين بأنى مؤمن عند الله فى وقتى هذا ولا أدرى ما يختم لى به،لذلك كان السحنونية يسمون العبدوسية بالشكوكية(٢).

يبدو أن هذا الانقسام الذى حل بالمالكية قد أضعف جانبها فى مواجهة الأحناف الذين تزعمهم القاضى سليمان بن عمران الذى كان وصولياً يحسن ممالأة الحكام طلباً للوظائف فقد توسط له محمد بن سحنون سابقاً لدى أبيه سحنون حتى استخدمه ، وبعد تظاهر سليمان بن عمران أمام سحنون بأنه أخذ بمذهب المدنيين وتارك لمذهب العراقيين استخدمه سحنون على قضاء باجة(٣) . ولم يحفظ سليمان بن عمران لمحمد بن سحنون هذا الصنيع بل لاحقه وسعى فى أذاه حتى اضطر ابن سحنون إلى التخفى ولم يجرؤ على

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ، جـ٢ ص١٠٨ .

(٢) عياض : المصدر السابق ، جـ٢ ص ص ١١٥ – ١٢٣ .

(٣) الخشنى : طبقات علماء أفريقية ، تحقيق محمد بن شنب (ب. ت) ، ص١٨٠ ، والمالكى : المصدر السابق ، جـ١ ص٢٧٥ .

الظهور إلا بعد أن حصل على أمان من الأمير الأغلبى محمد بن أحمد بألا تناله يد القاضى سليمان بن عمران(١) .

لم يتوقف الأحناف عن ملاحقة محمد بن سحنون فقد سعوا فى إيغار صدر الأمير الأغلبى ضده حتى يطلق أيديهم فى أذاه ، فأوعزوا إلى الأمير الأغلبى أن يسأل ابن سحنون عن رأيه فى يزيد بن معاوية وهى مسألة دينية فى إطار سياسى ظاهرها السؤال عن تكفير مرتكب الكبائر وباطنها بيان موقف ابن سحنون من العباسيين ومن أعدائهم . وتخلص ابن سحنون من المأزق بلباقة وأعلن أنه لا يقول بقول الأباضية إن من أذنب ذنباً فهو من أهل النار ولا يقول بقول المرجئة إن الذنوب لا تضر مع التوحيد ، أما يزيد بن معاوية فقد أتى عظيماً جسيماً وفعل الله فى خلقه ما أحب(٢) .

استمر التنافس على أشده بين العراقيين والمدنيين ، ونشط محمد بن سحنون فى دحض آراء العراقيين من أحناف ومعتزلة وتصدى لمن وفد منهم من المشرق إلى أفريقية ليروج فيها آراءه(٣) ومن جانبهم سلط الأحناف رجالهم لسب محمد بن سحنون وإهانته مثلما كان يفعل ابن أبى الحواجب وغيره(٤) . وقد كون ابن أبى الحواجب صاحب الخطبة والصلاة فى جامع

---

(١) الخشنى : المصدر السابق ، ص ص١٢٩ - ١٣٠ والمالكى : المصدر السابق ، جـ١ ص٢٧٥ . وعياض : المصدر السابق ، جـ٢ ص١١١ .

(٢) عياض : المصدر السابق ، جـ٢ ص١١٣ وسعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق، جـ٢ ص١٠٨ .

(٣) المالكى : المصدر السابق ، جـ١ ص٤٤٨ .

(٤) نفس المصدر ، جـ١ ص٤٥١ والدباغ : المصدر السابق ، جـ٢ ص١٢٩ وعياض : المصدر السابق ، جـ٢ ص١١١ وص ١١٤ .

القيروان وقتذاك حلفاً غير فاضل مع القاضى سليمان بن عمران لإيذاء محمد ابن سحنون الذى سعى من جانبه للخلاص من ابن أبى الحواجب ومن سليمان ابن عمران ، وبدأ بابن أبى الحواجب فجعل بعض المقربين من الأمير الأغلبى يوعز إليه بعزل ابن أبى الحواجب عن الخطبة والصلاة وأن يولى بدلاً منه عبد الله بن طالب التميمى . وعلى الرغم من مالكية ابن طالب فقد شفعت له قرابته من الأمير الأغلبى ليوليه بدلاً من ابن أبى الحواجب وفشلت محاولة القاضى سليمان بن عمران والأحناف فى إعادة رجلهم المعزول فكان ذلك بداية تقلص نفوذ القاضى سليمان بن عمران(١) .

ظل محمد بن سحنون مصدر إزعاج للعراقيين حتى وفاته سنة ٢٥٦هـ/٨٧٠م ففقدت المالكية وبوفاته واحداً من أكبر فقهائها فى أفريقية إلا أن المالكية تماسكت بعد وفاته لانفراد محمد بن عبدوس بزعامتها من ناحية ولارتقاء ابن طالب منصة القضاء من ناحية أخرى بعد عزل سليمان بن عمران عن القضاء لعام واحد فقط من وفاة ابن سحنون(٢) ، ولم يكن بين ابن طالب القاضى وابن عبدوس ما كان بين ابن سحنون وابن عبدوس من تنافس على زعامة المالكية وإنما كان ابن طالب شديد الإعظام لابن عبدوس عارفاً بحقه معتمداً عليه فى أحكامه ومتجهاً إليه بقلبه(٣) فاستعادت المالكية وحدتها لحسن العلاقة بين زعمائها ، لكنها ما لبثت أن تعرضت لهزة جديدة بعزل ابن طالب عن القضاء سنة ٢٥٩هـ / ٨٧٣م وإعادة سليمان بن عمران إليه مرة

---

(١) الدباغ : المصدر السابق ، جـ٢ ص١٣٣ ، وعياض المصدر السابق جـ٢ ص١١٢.

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ١ ص١١٥ .

(٣) عياض : المصدر السابق ، جـ٢ ص١٢١ وسعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق جـ٢ ص١١١ .

ثانية ، وفرح الأحناف بعزل ابن طالب عن القضاء وإعادة ابن عمران إليه فرحاً عظيماً وكان ابتهاجهم بذلك أشبه بالعرس فى دار معمر بن منصور الحنفى(١) .

ولما عاد سليمان بن عمران إلى القضاء سعى سعياً حثيثاً للانتقام من المالكية وملاحقتهم خاصة ابن طالب ، فأخذ سليمان يراجع أقضية ابن طالب السابقة عسى أن يجد فيها هفوة فينال منه بسببها(٢) . ثم اشتدت أزمة المالكية بوفاة زعيمها وقتذاك محمد بن عبدوس فى العام التالى سنة ٢٦٠هـ/٨٧٤م(٣). لكنها مع ذلك لم تطل ، فسرعان ما احتاج الأغالبة لتعضيد المالكية فى مواجهة الظروف السيئة التى واجهتهم داخلياً بسبب إسراف الأمير الأغلبى محمد بن أحمد المعروف بأبى الغرانيق وبسبب المجاعة التى حدثت أواخر أيامه سنة ٢٦٠هـ / ٨٧٣ - ٨٧٤م ، وكانت مجاعة شديدة عمت الشرق والغرب وأعقبها الوباء والطاعون ، فضلاً عن الاضطرابات الداخلية التى سببها تمرد بعض الجند وعصيانهم ، وواجه الأغالبة حينذاك متاعب خارجية أيضاً بسبب سوء علاقتهم مع الطولونيين(٤) ونتيجة لذلك رأى إبراهيم بن أحمد الذى تولى إمارة الأغالبة بعد أخيه محمد فى سنة ٢٦١هـ/٨٧٥م ، أن يتقرب من عامة القرويين وزعمائهم من المالكية ليمكنه مواجهة تلك المتاعب الداخلية والخارجية ولذلك عزل سليمان بن

---

(١) أبو العرب تميم : المصدر السابق ، ص١١٣ .

(٢) الدباغ : المصدر السابق ، جـ٢ ص٢٤٩ .

(٣) ابن عذارى : المصدر السابق،جـ٢ ص١١٦ والخشنى : المصدر السابق ، ص١٣٣.

(٤) سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ، جـ٢ ص١٢٠ .

عمران عن القضاء وأعاد إليه ابن طالب مرة أخرى فى سنة ٢٦٧هـ / ٨٨٠م(١) . واستمر ابن طالب فى قضائه الثانى هذا حتى سنة ٢٧٥هـ / ٨٨٨م ، فأحسن السيرة حتى مال إليه الناس وأحبوه وعلا شأنه وزادت شعبيته حتى خشى الأمير الأغلبى منه على سلطانه لكونه من أبناء عمومته فرأى أن يحد من شعبيته بعزله عن القضاء(٢) ويبدو أن الأمير الأغلبى بعد أن تحسنت أحوال دولته ضاق ذرعاً من نفوذ المالكية المتزايد فتجهم لهم على الرغم من الدور الذىقام به أحدهم وهو الفقيه أحمد بن مغيث فى تسكين عامة القرويين وتهدئتهم حينما ثاروا على إبراهيم بن أحمد الأغلبى لقيامه بإصلاح نقدى فى سنة ٢٧٥هـ تسبب فى وقوع بعض الأضرار بمعاملات القرويين المالية فهاجوا وحاربوا جند الأمير الأغلبى ولم يهدأوا إلا بعد تدخل الفقيه المالكى(٣) .

أعاد الأمير الأغلبى إبراهيم بن أحمد القضاء إلى الأحناف بعد عزله ابن طالب وقلد فيه بدلاً منه محمد بن عبدون الحنفى وأوعز إليه بحبس ابن طالب ثم دس له السم فى طعامه فمات فى حبسه بعد شهر واحد من عزله(٤). وكان ذلك بداية محنة جديدة للمالكية فى أفريقية فقد تعقب ابن عبدون المالكية وقام بضرب جماعة منهم من أهل العلم والصلاح(*) واضطر جماعة أخرى

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ١ ص١١٧ .
(٢) الدباغ : المصدر السابق جـ٢ ص١٦٢ ، وعياض : تراجم أغلبية ، ص٢٥٥ .
(٣) سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ، جـ٢ ص١٢٨ .
(٤) ابن عذارى : المصدر السابق جـ١ ص١٢١ والدباغ: المصدر السابق جـ٢ ص١٧٣ .
(*) مثل أحمد بن مغيث وأبو إسحاق بن المضاء وأبو زيد المدينى وغيرهم .

منهم إلى الفرار من وجهه مثل الفقيه يحيى بن عمر الذى فر من القيروان إلى سوسة وتخفى فيها(١) . وبلغت قسوة ابن عبدون مع المالكية حداً لم جد الأمير الأغلبى بداً من الاعتراف به قائلاً " لو ساعدته على مقصوده لجعلت له مقبرة على حدة "(٢) .

لقد عانى المالكية فى أفريقية من قسوة محمد بن عبدون الحنفى أشد العناء ، لكن عودة الاضطرابات الداخلية إلى دولة الأغالبة مرة أخرى جعلت الأمير الأغلبى يعاود التقرب إلى العامة وزعمائهم المالكية فعزل ابن عبدون الحنفى عن القضاء وأمر بأن يتقلده عيسى بن مسكين كبير المالكية فى وقته بالقيروان ، ولما امتنع عيسى بن مسكين عن تقلد القضاء زهداً وورعاً هدده الأمير الأغلبى بأن يعيد ابن عبدون إلى القضاء فخشى ابن مسكين من شدة وطأته على المالكية فقبل تولى القضاء بعد أن اشترط على الأمير الأغلبى عدم التدخل فى عمل القاضى(٣) .

ظل عيسى بن مسكين قاضياً بقية أيام الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلبى الذى أظهر فى سنة ٢٨٨هـ / ٩٠١م زهداً فى الحكم وليس الخشن من الثياب وتقرب من العامة وما لبث أن تنازل عن الإمارة وسلمها لابنه أبى العباس فى ربيع الأول سنة ٢٨٩هـ / ٩٠٢م بعد حكم امتد ثمانية وعشرين عاماً(٤) .

(١) الخشنى : المصدر السابق ص١٣٥ وعياض : ترتيب المدارك جـ٢ ص٢٤٠ .
(٢) الخشنى : المصدر السابق ص١٨٧ ، الدباغ : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ص ١٧٥ – ١٧٦ .
(٣) عياض : المصدر السابق ، ص٢٣٦ ، وترتيب المدارك جـ٢ ص٢١٥ .
(٤) سعد زغلول عبد الحميد / المرجع السابق ، جـ٢ ص١٤٨ .

ويرى البعض أن اعتزال إبراهيم بن أحمد الحكم ربما يعود إلى تدخل الخلافة العباسية فى شئونه وتهديد المعتضد بعزله من ناحية ، ومن ناحية أخرى قد يكون للنجاح الذى حققه أبو عبد الله الشيعى داعية الفاطميين وقتذاك بعض الأثر فى ندم إبراهيم الأغلبى وتوبته عما اقترفه من أخطاء(١) . لكننا لا نغفل أثر القاضى الزاهد عيسى بن مسكين فى شخصية الأمير الأغلبى فقد كان الأمير إبراهيم بن أحمد يطنب فى الثناء عليه ويفتخر به ويقول " إن كان ما ظهر منه يشهد لباطنه فما كان فى عباد بنى إسرائل مثله وإن كان رياء أو تصنعاً فما رأينا ولا بلغنا عن أحد ملك شهوته ونفسه أكثر منه لا سيما مع الإمكان والرياسة وهو فى الحالتين نسيج وحده "(٢) .

ولما كان عيسى بن مسكين قد تقلد القضاء كارهاً له فقد استعفى من الأمير الجديد فأعفاه ، ويبدو أن الأمير الأغلبى أبا العباس عبد الله بن إبراهيم كان يدرك خطورة الضغوط العباسية وأثرها فى اعتزال أبيه الإمارة فأراد استرضاء العباسيين بإعادة القضاء فىأفريقية إلى الأحناف وقلده محمد بن أسود الصدينى تلميذ ابن عبدون الحنفى المتعصب ، واسترشد الصدينى فى أحكامه بآراء أستاذه ابن عبدون وجاهر بالقول بخلق القرآن ، فنفرت منه العامة(٣) واضطهد رجال المالكية واشتد فى إيذائهم فضرب كثيراً منهم ضرباً مبرحاً(٤) .

---

(١) نفس المرجع ، جـ٢ ص ص ١٤٥ - ١٤٧ .

(٢) عياض : ترتيب المدارك ، جـ٢ ص٢١٩ .

(٣) الخشنى : المصدر السابق، ص١٩٤ ، النويرى: نهاية الأرب ، جـ٢٤ ، ص١٤٤ . والسيد أبو العزم : المرجع السابق ص١٥٤ .

(٤) المالكى : المصدر السابق ، جـ٢ ص٤٨ .

لم تطل إمارة أبى العباس عبد الله بن إبراهيم الأغلبى ، فما لبث أن تآمر عليه ابنه زادة الله الثالث فقتله وتولى الإمارة من بعده ليكون آخر أمراء الأغالبة فى أفريقية ، وحاول زيادة الله الثالث بعد أن تولى الإمارة أن يخفف من وقع جريمته الشنعاء على نفوس العامة بالتقرب إليهم وكسب تأييدهم فتقرب إلى زعمائهم من المالكية لا سيما وقد تزايد الخطر الشيعى وأخذ يستوى على نواحى أفريقية واحدة تلو الأخرى ، فقام الأمير زيادة الله الثالث بعزل القاضى الحنفى محمد بن أسود الصدينى وقلد القضاء الفقيه المالكى الورع حماس بن مروان(١) وروج زيادة الله الثالث لهذا التغيير إعلامياً فوجه إلى أهل القيروان كتاباً جاء فيه " إنى عزلت عنكم الجافى الجلف المبتدع التعسف ووليت القضاء حماس بن مروان لرأفته ورحمته وطهارته وعلمه بالكتاب والسنة "(٢) .

كان زيادة الله الثالث يسعى إلى تعبئة القوى الشعبية ضد الخطر الشيعى ، واتخذ تقربه إلى فقهاء المالكية وسيلة لتحقيق ذلك ودعاهم إلى مقر إقامته فى تونس وأطلعهم على آراء الشيعى ومعتقداته وموقفه من أهل السنة فأعلن الفقهاء لعن الشيعى والبراءة منه وحثوا الناس على قتاله وأفتوهم بمجاهدته(٣) .

أثمر موقف فقهاء المالكية المساند لزيادة الله الثالث فى مواجهة العدو المشترك المتمثل فى الخطر الشيعى فتصدى العامة للمتمردين من الجند الذين

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق جـ١ ص١٣٦ ، وسعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ، جـ٢ ص١٣٦ .

(٢) النويرى : المصدر السابق ، جـ٢٤ ص١٤٥ .

(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ١ ص١٣٧ .

تمردوا على زيادة الله فهزموهم وقتلوا قائدهم(١) لتبقى الجهة المحاربة للشيعى قوية ومتماسكة . غير أن مجون زيادة الله الثالث واستهتاره جعل القاضى المالكى حماس بن مروان يخالفه الرأى وتصدى لفساده فرأى زيادة الله أن يخفف من قبضة القاضى الورع حماس بن مروان فأشرك معه فى القضاء حنفياً يدعى محمد بن أحمد بن جيمال(٢) لكن القاضى حماس بن مروان لم يقبل ذلك الوضع واعتبره إهانة له فاستعفى من القضاء ولم يتدبر زيادة الله العواقب فأعفى حماس بن مروان من القضاء وانفرد به الحنفى ابن جيمال ، مما يدل على أن العداء المشترك للخطر الشيعى لم يوقف التعصب المذهبى بين أهل السنة فى أفريقية الأغلبية وإن كان انشغالهم بهذا الخطر الشيعى قد أوهن مؤقتاً الملاحقات الكيدية المتبادلة بين الأحناف والمالكية ولكن إبعاد المالكية عن القضاء فى الساعات الأخيرة الحرجة لم يكن فى صالح الدولة الأغلبية إذ جعلها تواجه الخطر الشيعى دونما تأييد كبير أو نصرة من قبل عامة أفريقية الذين تركوا دولة الأغالبة تلقى مصيرها المحتوم خاصة وأن الداعى أبا عبد الله الشيعى كان يتظاهر حينذاك بالتمسك بالسنة ويخفى الوجه الحقيقى للتشيع المتعارض مع الميول المذهبية السنية لأهل أفريقية ، فسقطت دولة الأغالبة سنة ٢٩٦هـ وقضاء أفريقية بيد الأحناف يتولاه محمد بن أحمد بن جيمال الحنفى(٣) .

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ١ ص١٤٠ . – كان هذا القائد يسمى مدلج .

(٢) عياض : تراجم أغلبية ، ص٣٤٦ .

(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ١ ص١٤٣ وسعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق جـ١ ص١٤٣ .

– ولكن الخشنى (المصدر السابق ص١٩٦) يذكر أن زيادة الله عزل ابن جمال وقلد القضاء ابن الخشب .

وبعد استيلاء الشيعة على أفريقية تغير وجه الصراع المذهبى فيها ، فلم يعد مجرد تعصب مذهبى بين مذاهب أهل السنة وإنما أصبح صراعاً مذهبياً أخطر وأبعد أثراً بين أتباع الفرق الإسلامية ، بين أهل السنة من ناحية والشيعة الإسماعيلية من ناحية أخرى . وهكذا بدأت الخلافات المذهبية فى أفريقية بين أتباع الفرق الإسلامية بين الخوارج من جهة وأهل السنة من جهة أخرى وانحسمت الجولة الأولى هذه لصالح أهل السنة الذين انقسموا على أنفسهم فى أفريقية الأغلبية إلى أحناف ومالكية أو عراقيين ومدنيين ثم عاد الصراع المذهبى بين الفرق مرة أخرى ليكون بين أهل السنة والشيعة الإسماعيلية .

ولعله من الملاحظ أن أهل السنة فى أفريقية الأغلبية كانوا القاسم المشترك الأعظم فى خلافاتها المذهبية لا لجنوحهم إلى الخلاف واعتيادهم عليه وإنما لكونهم السواد الأعظم من أهل أفريقية وعدم تقبلهم لأن تزاحمهم فى أفريقية فرق إسلامية أخرى .

المراجع

إبراهيم أحمد العدوى :

- بلاد الجزائر ، تكوينها فى العصر الإسلامى ، القاهرة / ١٩٧٠ .

الفرد بل :

- الفرق الإسلامية فى الشمال الأفريقى ، ترجمة عبد الرحمن بدوى ، بيروت/ ١٩٨١ .

حسن حسنى عبد الوهاب :

- ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية ، تونس / ١٩٦٦م .

حسن على حسن :

- الحياة الدينية فى المغرب (القرن الثالث الهجرى) ، القاهرة / ١٩٨٥م .

حسين مؤنس :

- فجر الأندلس ، القاهرة / ١٩٥٩م
- تاريخ المغرب وحضارته ، جدة / ١٩٩٠م .
- معالم تاريخ المغرب والأندلس ، القاهرة / ١٩٨٠م .

الخشنى : محمد بن حارث بن أسد

- طبقات علماء أفريقية ، تحقيق محمد بن شناب ، بيروت (ب. ت.) .

ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد

- العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بيروت / ١٩٩٢م .

الدباغ : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصارى

- معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان ، تحقيق محمد الأحمدى أبو النور وزميله ، القاهرة / ١٩٦٨م .

الرقيق القيروانى : أبو إسحاق إبراهيم أبو القاسم
- تاريخ أفريقية والمغرب ، تحقيق المنجى الكعبى ، تونس / ١٩٦٨م .
أبو زكريا : يحيى بن أبى بكر
- كتاب السيرة وأخبار الأئمة ، تحقيق عبد الرحمن أيوب ، تونس / ١٩٨٥م.
سعد زغلول عبد الحميد :
- تاريخ المغرب العربى ، الأسكندرية / ١٩٧٩م .
السلاوى : أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى
- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق جعفر ومحمد الناصرى ، الدار البيضاء / ١٩٥٥ .
السيد محمد أبو العزم :
- الأثر السياسى والحضارى للمالكية فى شمال أفريقية ، القاهرة / ١٩٨٥م .
شاكر مصطفى :
- دولة بنى العباس ، الكويت / ١٩٧٣ .
عبد العزيز المجدوب :
- الصراع المذهبى بأفريقية إلى قيام الدولة الزيرية ، تونس / ١٩٧٥ .
ابن عذارى المراكشى :
- البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق كولان وليفى بروفنسال ، بيروت / ١٩٤٨ .
أبو العرب تميم :
- طبقات علماء أفريقية وتونس ، تحقيق محمد بن شناب ، بيروت / ب . ت.
عوض خليفات :
- النظم الاجتماعية والتربوية عند الأباضية فى شمال أفريقية فى مرحلة الكتمان ، عمان / ١٩٨٢ .

عياض : القاضى أبو الفاضل

- ترتيب المدارك وتقريب المسالك ، تحقيق أحمد بكير ،محمود ، بيروت / ١٩٦٧.
- تراجم أغلبية – تحقيق محمد الطالبى .

فان فلوتن :

- السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات، ترجمة حسن إبراهيم حسن وزميله، القاهرة / ١٩٦٥ .

ابن فرحون : برهان الدين إبراهيم اليعمرى

- الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب ، تحقيق محمد الأحمدى أبو النور ، القاهرة / ١٩٧٤م .

ابن فضل الله العمرى :

- مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار .
- السفر الخامس (مخ) رقم ٣٤١٨ آيا صوفيا ، السليمانية ، استانبول .
- السفر السادس (مخ) لا لا ، السليمانية ، استانبول .

فلهوزن : يوليوس

- تاريخ الدولة العربية ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ، القاهرة / ١٩٥٨م .

المالكى : أبو بكر عبد الله

- رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وأفريقية وزهادهم وعبادهم ، جـ١ – تحقيق حسين مؤنس ، القاهرة / ١٩٥١م .

محمود إسماعيل عبد الرازق :

- الخوارج فى المغرب الإسلامى ، بيروت / ١٩٧٦م .

المقدسى :

- أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، نشردى خويه ، ليدن / ١٩٠٦م .

المقريزى : أحمد بن على

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بولاق/ ١٢٧٠هـ.

المكناسى : أحمد بن القاضى

- جذوة الاقتباس فى ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، الرباط/ ١٩٧٣م .

النويرى :

- نهاية الأرب فى فنون الأدب - جـ٢٤ ، تحقيق حسين نصار ، القاهرة / ١٩٨٣م .

Dozy, R;

Histoire des Musulmans d' Espagne (.e edition revisee par Levi-Provencal) Leyde, 1932.

E.F. Gautier;

- Le Passe de L' Afrique du Nord. Paris, 1937.

المميزات العامة لشخصية الأمير عبدالله بن بلقين

أمير مملكة غرناطة من خلال كتابه (التبيان)

إعداد د. نورة عبد العزيز التويجرى

جامعة الرياض

مراجعة / أ. د. حسن أحمد محمود

التعريف بأسرته :

عبدالله بن بلقين بن باديس بن حبوس بن زيرى آخر ملوك مملكة غرناطة التى قام بتأسيسها باديس بن حبوس من أحد الفروع المنحدرة من قبيلة بنى زيرى البربرية الصنهاجية .

ويرجع أصل قبيلته ، وهى قبيلة بنى مناد إلى قبيلة صنهاجة البربرية وتمثل تلك القبيلة بطناً من بطون شعب البرانس فى المغرب . وقد وصلت إلى السلطة على أثر مساعدتهم للدولة العبيدية (الفاطمية) فى المغرب ، عندما وقفوا إلى جانبها للقضاء على الخارجين عليها فحاربوا إلى جانبهم واستماتوا فى الدفاع عنها إلى جانب قائد الفاطميين " جوهر الصقلى " وكان أشدهم مراسًا فى ذلك زعيمهم زيرى بن مناد أعظم أمراء البربر " ، ولكنه قتل فى إحدى المعارك التى قامت بين الدولة الفاطمية والقبائل الرافضة لسيادتها والخارجة عليها وبعد أن قتل تولى ابنه بلكين (بلقين) ولاية إفريقية بعد رحيل العبيديين إلى مصر ، بعد أن تم فتحها على يد قائد جيشهم "جوهر الصقلى" حكم أمراء بنى مناد قريبة من بلاد المغرب فانتقل الحكم من (بلقين) إلى ابنه المنصور ، ثم خلف المنصور ابنه باديس .

وكان أول ظهورهم فى الأندلس عندما استعان بهم المنصور بن أبى عامر كقوة كبيرة فى جيشه . فاحتلوا بشجاعتهم الحربية مركز الصدارة فى الجيوش الأندلسية الموالية للمنصور محمد بن عبدالله بن أبى عامر .

وكان انتقال بنى مناد إلى الأندلس على أثر استبداد (باديس) بقومه (آل مناد) وقتله عم أبيه (ماكسن) على أثر المعارك والفتن التى نشبت بينهم فدفعت تلك الحادثة زعماء آل مناد إلى اللجوء إلى الأندلس ومغادرة إفريقية " وذلك بعد أن عرض زعيمهم زاوى بن زيرى على المنصور بن أبى عامر السماح لهم باللجؤ إلى الأندلس " والالتحاق بالجيوش الإسلامية للدفاع عن الإسلام " فأذن لهم المنصور .

فعبر زاوى بن زيرى وأبناء أخيه (ماكسن) وهم حباسة وحبوس وماكسن إلى المنصور " ، فأحسن المنصور استقبالهم . والتحقوا بأكبر المناصب فى الجيش " وأصبحوا من أكبر المناصرين للدولة العامرية . وبعد أن سقطت دولة بنى عامر فى الأندلس اضطربت أمور أسرة بنى مناد عندما أجبر محمد بن هشام بن عبد الجبار (والملقب بالمهدى) هشام المؤيد بالتنازل له عن الخلافة ، بعد أن كان هشام بن الحكم (المؤيد) قد تنازل عنها لعبد الرحمن بن محمد بن أبى عامر .

وقد حاول محمد بن هشام التخلص من أسرة بنى مناد ، وقام بمطاردتهم فدفعتهم تلك المعاملة السيئة إلى الانضمام إلى خصمه ومنافسه سليمان بن الحكم " ، فدفع ذلك أهل قرطبة إلى الفتك بحباسة بن ماكسن فزاد ذلك حقد البربر عليهم ، فهاجموا قرطبة وعاثوا فيها فسادًا .

ولكن ما لبث سليمان بن الحكم أن أوجس خيفة من البربر على حكمه " ، فقام بتوزيعهم على مدن الأندلس بعد أن ضاقت بهم قرطبة ،

وكذلك لنيل رضاهم حيث رغبوا فى احتلال بعض المدن الأندلسية . فقام بنو زيرى بن مناد بإقتطاع ولاية إلبيرة " فعملوا على إنشاء دولة مستقلة لهم فيها. وكان قدوم بنى زيرى بن مناد إلى مدينة غرناطة بناء على طلب من أهلها حيث قاموا باستدعائهم إلى غرناطة للدفاع عنها وهذا ما يذكره الأمير عبدالله بن بلقين فى مذكراته فى قوله " إن صنهاجه فيما رأت تفكك الدولة الأموية ، واستقلال كل أمير ببلدة ، اعتزموا الرحيل عن الأندلس " ولكن أهل إلبيرة وكانت ولايتهم تتمتع بسعة الرقعة والخصب والنماء ، لم يك لهم من يدافع عنهم " فلجأوا إلى زاوى بن زيرى ودعوه وقومه إلى الإقامة بارضهم ، ومشاركتهم فى خيراتهم ، وللدفاع عنهم . فقبل زيرى وقومه دعوتهم ، واستبشروا بالنزول فى تلك الأرض "(١) . ثم يستطرد الأمير عبدالله فيذكر أن زيرى وقومه رأوا أن موقع مدينة إلبيرة غير صالح للدفاع عنها ، فعملوا على إنشاء مدينة جديدة على مقربة منها " ويكون موقعها فى وادى شنيل المنحدر من جبال شلير يحجبه الجبل من الأعداء " فأقاموا مدينة غرناطة التى أخذت تنمو وتزدهر بسرعة " بينما عم النسيان والخراب مدينة إلبيرة . ثم انتقل زعيم صنهاجة (زاوى بن زيرى) من الأندلس إلى إفريقية مرة أخرى على أثر انتصاره على خيران العامرى " فكان الدافع لانتقاله إلى بلاد إفريقية هو شعورة بالخوف من أهل الأندلس . حيث أن (زاوى بن زيرى) نهض للأخذ بثأر سليمان بن الحكم (المستعين) الذى قتله على بن حمود الإدريسى سنة ٤٠٧هـ (١٠١٦م) وأعلن معارضته لحكم على بن حمود " ، وأعلن الخلافة لبنى أمية متمثلة فى شخص الخليفة عبد الرحمن بن محمد من أحفاد

(١) الأمير عبد الله : كتاب التبيان تحقيق ليفى بروفسنال ص١٨ ، ص١٩ . دار المعارف القاهرة د . ت .

الناصر . وسار لمقاتلة على بن حمود وانضم إليه عدد من ولاة شرق الأندلس وبينما هو فى طريقة لقتال بنى حمود ، مرّ بغرناطة وقامت بينه وبين زاوى بن زيرى معركة عنيفة كان النصر فيها ، لزاوى بن زيرى بن مناد " ولكن بالرغم من هذا الانتصار الساحق فضل العودة إلى المغرب ، مخافة أن تعود جموع الأمويين لقتاله مرة أخرى أو أن يغدر بهم بربر زناته أعدائه الحقيقون " وذلك بتحالفهم مع أهل الأندلس . فخرج من غرناطة بالرغم من معارضة قومة لـه واستخلف عليهم بعض شيوخ قبيلتهم " وكانت الفرصة مواتيه له فى ذلك حيث توفى (باديس) والذى اضطهده مع قومه وتولى من مع بعده ابنه الصغير (المعز) حفيد أخيه بلقين . وعلى أثر ارتحال زاوى بن زيرى عن الأندلس قام بإسناد الولاية فى غرناطة إلى حبوس بن ماكسن ابن أخى زيرى . ومنذ ذلك الحين قامت فى غرناطة دولة بنى زيرى بن مناد(١)، قام باديس بالاستيلاء على مدينة مالقة من بنى حمود ، لأنه كان يرى إنه أحق برئاسة البربر فى الأندلس فتم له ذلك سنة ٤٤٩هـ واستمر باديس على حكم مالقة ما يقرب من ثلاثين عامًا " وكان قد تقدم بـه العمر فإنصرف إلى اللهو والشراب " وسلم مقاليد الدولة ورئاستها إلى وزيره اليهودى (يوسف بن نَغْرالّه) " ، فتمكن من إدارة الدولة على أكمل وجه " وسخر لها الأموال الطائلة " والتى استطاع باديس بها الاتفاق على جنده ومشاريعه .

وبعد أن توفى (ابن نَغْرالّه) خلفه ابنه يوسف بن نَغْرالّه ، الذى استعان باليهود لمساعدته فى إدارة الدولة " ، واستطاع بمهارته أن ينهض بالدولة كما كانت فى زمن والده .

---

(١) المصدر السابق ص ص٢٠ – ٢٥ .

حقد بلقين بن باديس على الوزير اليهودى بن نَغْرالّه لتحكمه فى أمور الدولة وسيطرته عليها . فتوعده بالقتل وكان يحرضه على ذلك وزراء الدولة خاصة على وعبد الله .. كما كان بلقين يصارح (يوسف بن نغراله) ببغضه له ، وإنه ساع للخلاص منه .

مما جعل الوزير يوسف بن نَغْرالّه يمتلىء حقدًا على بلقين فيقوم بمراقبة جميع تحركاته وتصرفاته وانتهى به الأمر إلى اغتياله والتخلص منه، وذلك بأن دس السم فى كأسه بعد أن دعاه وخاصته وأعوانه إلى مجلس شراب حافل ، فما كاد يغادر مجلسه حتى أصيب بحالة قيئ شديدة ، فلزم فراشه مدة يومين ، ثم توفى بعدها وذلك سنة ٤٥٦هـ ، وقد أصابت وفاته والده باديس بالفزع ، ولكن وزيره اليهودى يوسف بن نَغْرالّه حاول أن يقنعه بأن مقتله كان على يد فتيانه وجواريه وقرابته ، فدفع ذلك الإتهام باديس إلى قتل عدد كبير منهم ولم يقتصر دهاء ومكر الوزير اليهودى يوسف بن نَغْرالّه عند ذلك الحد ، بل إنه استغل فرصة انطواء الأمير باديس على نفسه بسبب فقدانه لولده (بلقين) فزاد من سلطان وسيطرة الوزير اليهودى يوسف بن نَغْرالّه على جميع مهام الدولة كما أنه تحالف مع يحيى بن صمادح صاحب المرية وذلك بعد أن لاحظ (أى الوزير يوسف) أن مكانته عند الأمير باديس بدأت تضعف ، وأن الأمير بدأ يتغير عليه ، وذلك بتحريض من (النّايَة) الذى هو من عبيد المعتضد بن عباد‌ا فعندما أُدرك الوزير يوسف بن نَغْرالّه تغير الأمير عليه تحالف مع يحيى بن صمادح صاحب المرية واستدعاه للاستيلاء على غرناطة ، وكانت تربط بين ابن نغراله وابن صمادح علاقات ود وصداقة . فاستطاع ابن صمادح انتزاع وادى آش الذى يقع فى شمال شرق مدينة غرناطة . فآثار بذلك كل من أهل غرناطة ، وأفراد قبيلة صنهاجه البربرية ، وأخذوا يتحينون الفرصة لإسقاطه .

أخذ الوزير (يوسف بن نَغْرالّه) فى تشجيع ومساعدة ابن صمادح للاستيلاء على غرناطة " وكان ينتظر فقط رسول الوزير يوسف بن نَغْرالّه لدخولها . ولكن ذلك لم يتم بسبب خلاف وقع بين أحد اليهود وعبد من العبيد فى مجلس الوزير يوسف بن نَغْرالّه . فخرج العبد وأخذ يصيح قائلاً : لقد غدر اليهودى ، ودخل ابن صمادح البلدة " فما كان من أهل غرناطة ، ومعهم عدد كبير من أهل صنهاجه إلا أن اخترقوا مجلس الوزير (يوسف بن نَغْرالّه) . فاستعان الوزير بالأمير (باديس) فحاول الأمير إيقاف هذه الجموع الثائرة ، ولكه لم يستطيع " . فما كان من الوزير يوسف بن نَغْرالّه إلا أن هرب إلى داخل القصر ، ومعه بعض معاونيه " فتنكر يوسف بن نَغْرالّه " وصبغ وجهه بالفحم " . ولكن مطاردية عرفوه فقتلوه " . وكانت هذه الحادثة سبباً فى أن يفيق الأمير باديس من لهوه وتهاونه فى أمور الدولة ، فعمل على استرداد حصن آش من ابن صمادح ، فنجح فى ذلك .

دام حكم الأمير باديس مدة سبع وثلاثين سنة حيث تتوفى سنة ٤٦٥هـ(١) فتولى الحكم من بعده حفيده عبدالله بن بليقين بعد إتفاق رجال الدولة وشيوخ صنهاجه على ذلك . لذلك يعتبر الأمير عبدالله بن بُلُقِّين الملك الثالث لمملكة غرناطة ، والتى أسسها فرع منحدر من أسرة بنى مناد الصنهاجيين وكان تأسيسها بعد سقوط الخلافة الأموية بقرطبة سنة ٤٤٧هـ (١٠٥٦م) وقد تولى

(١) اختلفت الروايات التاريخية فى سنة وفاته فقد ذكر ابن الخطيب فى كتابه الإحاطة ١/ ٤٥٠ ذلك التاريخ ولكن ابن خلدون خالفه فى ذلك فى كتابه العبر ٤ / ١٦١ حيث ذكر أن سنة وفاته هى ٤٦٧هـ .

حكم غرناطة بعد وفاة جده باديس بن حَبُوس سنة ٤٦٩هـ (١٠٦٤م) وتذكر المصادر التاريخية أن سبب إضاعة ملكه هو تواطؤه مع ملك قشتالة إذ وقف إلىجانب ألفونس السادس فيموقعة الزلاقة ضد يوسف بن تاشفين حيث حاصر حصن لييط عندما دخل المرابطون أسبانيا ، فقام يوسف بن تاشفين بعزله عن ملكه ونفيه إلىمدينة أغمات في جنوب المغرب الأقصى، حيث انتهت حياته.

التعريف بشخصية ، الأمير عبدالله بن بلقين :

هو عبدالله بن بُلُقين بن باديس بن حَبُوس بن زيرى " الملك الثالث والأخير لمملكة غرناطة ، والتى أسسها فرع منحدر من عائلة بنى زيرى البربرية الصنهاجية ، ولد سنة ٤٤٧ هـ(١٠٥٦م) .

وتولى الحكم بعد جده باديس ، وبعد ولده بلقين ، الذى مات مسموماً على يد وزير جده اليهودى . تلك الحادثة يذكرها الأمير عبدالله بن بلقين فأورد تفاصيلها كاملة فى كتابه (التبيان)(١) فيذكر أن الذى قام بدس السم له هو وزير جده (يوسف بن نَغْرالّه اليهودى) ، والذى كان يحاول بمكره ودهائه أن يظهر إخلاصه وتفانيه فى خدمة جده الأمير عبدالله المعروف باسم (باديس) ، وكذلك فى خدمة والده بلقين " وكيف تمكن هذا اليهودى أن يخفى أطماعه تحت ستار المكر والخديعة ، والذى أشار على باديس بن حبوس بأن يأخذ مدينة وادى آش من المتولى لأمرها عبدالله بن الشيخ بن إبراهيم الوزير السابق لباديس بن حبوس ، حيث كان يأخذ دخلها ، الذى يقدر بمائة ألف دينار " ولا يعطى (باديس) إلا خمسة عشر ألف دينار دراهم ،

(١) كتاب التبيان مصدر سابق ص ص٣٩ – ٤٠ .

فأشار اليهودى على (باديس) بأخذها من عبيد الله وعلى أن يسندها إليه : ووعده بأنه سيجمع له كل سنة ما يزيد على مائة ألف . ولكن باديس اعتذر له عن عدم أخذها من الوزير السابق (أبى إبراهيم) ، . خجلاً منه ، حيث أنهم مقيمون على خدمتها " فدبر اليهودى حيلة للاستيلاء عليها فأمر بأخذها منه باسم سيف الدولة (ابن بلقين)، فتقدم إلى بلقين بن باديس ، وبين له أنه ناصح له " ، وأنه بحاجة إلى المال (أى بلقين) ، لينفق منها لى ابنائه وعلى نفسه ليظهر بمظهر بلقين بالياسة " . كما بين له أنه مما يحز فى النفس أن يكون وزراؤه أغنى منه " فوافق (بلقين) على ذلك وأسند مهمة استرجاعها إلىالوزير اليهودى (ابن نَغْرالّه)، وفعلاً تم استردادها على يد ذلك الوزير(١).

أما عن حياته الاجتماعية " فقد رزق من الولد بابنه كانت باكورة إنتاجه وكان فرحاً متفائلاً بقدومها " ثم رزقه بعدها بابنين توأمين ، وكان ذلك فى منفاه فى مدينة إغمات(٢) . وكان قليل العيال كثير المال ، يتضح ذلك من قوله عندما سلّم نفسه إلى يوسف بن تاشفين رئيس دولة المرابطين ، عندما دخل الأندلس فى سبيل تخليصها من ملوك الطوائف " وقد خفف الله عنى بقلة العيال " ولا خير فى الغرَر (أى الاغترار) بمال لا أدرى أن بقى معى ، مع اختلاطه وكثرة شبهاته وكثرة المال إنما يحتاج للمملكة والأجناد . فالآن قد أزاح الله ذلك عنى ، ولم يبق إلا طلب السلامة بحُشاشة النفس ، وهى غنيمة فى مثل ذلك الوقت الحاد "(٣) .

(١) المصدر نفسه ص ص ٣٩ - ٤٠ .
(٢) كتاب التبيان : مصدر سابق ، ١٩٩ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

ولاية الأمير عبدالله بن بُلُقين على غرناطة :

تولى الأمير عبد الله بن بُلُقِّين إمارة غرناطة بعد جده باديس بن حَبوُس وكان مؤسس هذه الإمارة جده زاوى بن مناد الصنهاجى ، وكانت لجده زاوى مشاحنات وخلافات مع ملوك إفريقية مما جعل أهل أفريقية يخاطبون المظفر بن أبى عامر ، فيدعونه لدخول الأندلس ، فدخلها فى عهد زيرى جماعة من أنصار المظفر بن أبى عامر ، كما دخلها أبناء أخى زيرى وهم ماكسن وحباسه وحبوس ، وأقاموا فى خدمة المظفر بن أبى عامر . وكانت مهمة زاوى مقتصرة على الوزارة . فعندما أختل بناء الدولة العامرية بمجيىء محمد عبد الجبار الملقب بالمهدى ، وقام بإذلال البربر ، فكان ذلك سببا فى حدوث الفتنة التى عرفها أهل الأندلس بالثورة البربرية(١) .

والتى على أثرها قاموا بمبايعة سليمان بن الحكم واستعانوا بالنصارى ، وأشعلوا الفتنة بين أهالى قرطبة . فقاموا باقتسام البلاد وانضموا إلى زعيمهم زاوى ، واختاروا غرناطة مقراً لهم وأقاموا بها ملكًا لهم .

حالة البلاد أثناء توليه :

صورَّ الأمير عبد الله بن بلقين الحالة ، التى كانت عليها جزيرة الأندلس عند توليه الإمارة فيها . وتحدث عن المشاكل الخارجية التى واجهته، ومن أهمها مطالبة ألفونس السادس ملك قشتالة له بالأموال ، حيث أرسل إليه رسوله ويدعى (باطْرْ شُولِش) يطالبه بالضريبة ، التى فرضها ألفونس السادس على ملوك الطوائف ومقدارها عشرين ألف دينار .. فذكر الأمير عبد الله أن هذه كانت أول الصلات التى نشأت بينه وبين ألفونس السادس .

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ، وتحقيق محمد بن عبد الله عنان جـ١ ص ٥٣٣ مكتبة الخانكى– القاهرة ١٩٧٤ .

ويذكر الأمير عبد الله بلقين بأنه رفض أن يقر ألفونس السادس بدفع تلك الضريبة ، لأنه كان يدرك أن خطر ألفونس سيدركه ، كما كانت الحال من قبله مع حاكم طليطلة ابن ذى النون وكان أيضاً من الأسباب التى دفعته لرفض طلب ألفونس هو وازعه الدينى وذلك أنه كان لا يرغب فى محالفة نصرانى ضد مسلم(١) وهذه الحادثة تعارض ما ذكره عنه بعض المؤرخين من أنه كان حليفاً للنصارى ضد المسلمين . ولكن المعتمد بن عباد استغل هذه الفرصة وعرض على ألفونس السادس مساعدته للاستيلاء على غرناطة مقابل خمسين ألف دينار يدفعها له سنويا . فتم اتفاقهم على ذلك مقابل أن يبنوا حول غرناطة معقلاً يمكنهم من محاصرتها إلى أن تستسلم لهم فقام ابن عباد باستئجار عسكر ألفونس، وأخذ يعدهم بالأموال والعطايا حتى أتموا له البنيان. وعندما علم الأمير عبد الله بن بلقين بأن المعتمد بن عباد وعساكر الروم قد انصرفوا عن ذلك الحصن بعد أن أتموا بناءه ، أعد له جيشاً كبيراً وأراد أن يدخل فى حرب مع أهل الحصن ولكنه لم ينتصر فعاد إلى غرناطة(٢) .

صفاته الشخصية :

كان الأمير عبد الله يتصف بالحذر ، وعدم الخوض فى أمور لايعلم عواقبها، حيث ذكر ذلك عن نفسه مستشهداً بعدة أموروحوادث تعرض لها(٣).

كما كان يغلب على نفسيته الهلع والخوف . وكانت هاتان الصفتان ملازمتين له ومتمكنتين من نفسيته .

---

(١) كتاب التبيان – ص ٦٩ .
(٢) المصدر نفسه ص ٧٠ .
(٣) المصدر نفسه ص ١١٥ .

ومن الملاحظ من كتاب الأمير عبد الله أنه كان صاحب حكمة في النظر إلى الأمور ، فهو يحض على التعلم من التجارب ، التي تمر بالإنسان وأخذ العظة منها . كما كان محباً للتعليم يحض عليه ، مشجعاً له .. فهو يحض الفرد على السؤال عما يجهله ، أو يغمض عليه ، مستنداً لقوله تعالى : ﴿ فَسَئلوُاْ أهل الذكر أن كنتم لا تعلمون ﴾ سورة النحل من الآية ٤٢ .

كما كان مخلصاً لإسلامه ، قوياً في الحق . وهذا ما يفهم من رده على وكيل ألفونس السادس ويدعى (ألبَرْهَانِس) عندما طالبه (ألبَرْهَانِس) بدفع الجزية التي طلبها منه ألفونس السادس بقوله " إن المعاهدة التي عقدت بينك وبين ألفونس سيستعين بها ألفونس لرد شيء من بلادك التي عند ابن عَبّاد ، أجابه الأمير عبد الله بقوله " إني لا أعين على مسلم أحداً وإن الذي دعاني إلى عقد هذه المعاقدة هو المدافعة على بلدي وأهل مِلّتي فأن وفَيتم بذلك ، فهو المراد الذي إليه قصدنا(١) . وكان بذلك بعيد النظر مدركاً لعواقب الأمور حيث إنه استنتج من مقولة (ألبَرْهَانِس) وكيل ألفونس السادس بأن ألفونس سيستعين بهذه الجزية لرد بعض بلاده من يد ابن عباد وكان غرض ألفونس السادس من ذلك هو خلق الفتنة بينه وبين ابن عباد ؛ ليجد بذلك السبيل إلى بلاده .. فيقوى الأموال التي سيدفعها له ابن بلقين على ابن عَبَّاد ، كما أنها ستدفعه للتجرؤ لطلب المزيد(٢) .

ومما يلاحظ على الأمير من خلال كتابه أنه كان يتصف بالصراحة في كثير من المواقف التي تمر به ، حيث كان كثيراً ما يعترف بالأخطاء التي يقع

---

(١) كتاب التبيان ، مصدر سابق ، ص ١٢٦

(٢) نفسه

فيها ، معللاً أن حرص الإنسان واجتهاده ربما يكون السبب فى ايقاعه فى الخطأ ، مستشهداً بالبيت التالى على صحه ما يقول : " إذا لم يكن عون من الله للفتى فأكثر ما يَجْنِى عليه اجتهادُهُ (فيورد مثالاً)(١) لذلك من الحوادث التى مرت به أثناء حكمه ، فعندما وجّه اهتمامه إلى الحصون والمعاقل فى مدينة غرناطة وذلك بعد أن خاف من عاقبة الفتن ، خاصة فتنة يهود (اليُسَّانة) بعد أن فرض عليهم مبالغ كبيرة من الذهب ، يؤدونها له بفرض حمايتهم ؛ قام بإشراك قبيلة زناتة مع قبيلة صنهاجة فى حماية ثغور وحصون قرطبة . فكان ذلك كما يذكر الأمير عبد الله هو (تحريك الشر) حيث أدى ذلك إلى عصيان قبيلة زناتة ؛ احتجاجاً على ذلك الأمر إذ رأوا أن إشراكهم مع قبيلة (صنهاجة) حَطّ لقدرهم ؛ إذ إنهم يرون أن قبيلة صنهاجة أقل منهم اجتماعياً ، فساءت ظنونه بهم وخرجوا عن طاعته " فكانوا يعتذرون عن كل خدمة تُطلب منهم فعندما سأل الأمير عبد الله عن سبب الخروج عليه، قيل له " إن كبارهم يفسدون صغارهم " .. فأشار عليه كبار مستشاريه بأن يعمل على إخراج محرضيهم من البلد ؛ حتى تصلح أمورهم . فأسند عبد الله بن بلقين هذه المهمة إلى (لبيب الخصِيّ) صاحب المدينة وكان قد رباه ووثق به ولكن (لبيباً) خاف على نفسه من هؤلاء الخارجين عندما يأمرهم بالخروج ، فبين لهم أن الأمر قد أتاه من الأمير عبد الله ، وأنه لا يدله فيه . وأوصاهم بالاحتجاج على هذا الأمر ، وتهديد الأمير بالخروج من المدينة إذا هو لم يَرُدَّ من أخرجهم منها وبين لهم أنه معهم ومساند لهم ، فأقبلت جموع زناتة على باب المدينة محتجين عليه بقولهم " إمَّا أن تَرُدّ علينا شركتنا وإلا

---

(١) نفسه ، ص ، ١٣٥

فالكل راحلون عنه ، متنقلون إلى غيره " . ومن هذه الحادثة تبرز صفة أخرى لشخصية الأمير عبد الله ، وهى تمسكه برأيه وصراحته فى الأمور التى تستدعى ذلك إلى جانب ذكائه وفطنته ، حيث أدرك - إن ذلك مجرد حركة يراد بها تخويفه ، فلم يتراجع عن رأيه تحت تهديدهم ، مبرراً سبب ذلك بقوله " وأن ذلك ترهيب ، وإن الرجوع عما أمرت إلى به يضربهم إلى غير ذلك ، مما يُخِلُّ بالرأى ويكون لهم الصولة والحماقة فى المعصية " .

ومن الحوادث التى تبين وتبرز صفات عبد الله تلك الثورة التى قامت عليه فى مدينة (لوشة) والتى حرّض عليها أحد وزرائه ويدعى (مُؤمَّل) فتمكن الأمير عبدالله من إحباطها والقضاء عليها وسيق إليه الأسرى ففوض الأمير عبدالله أمرهم إلى أهل السنة للنظر فى أمرهم فبعض منهم أفتى بقتلهم لأنهم مفسدون فى الأرض ، وبعضهم أفتى بنفيهم . فما كان من الأمير عبد الله إلا أن عالج تلك المشكلة بالتأنى ، فعفا عنهم ، حيث يرى أن ذلك من صفات الكرام . إذ يقول " فآثرت الأليفَ والأ بعد الآثام ، وإن ذلك لايفوت ، ومن أخلاق الكرام التأنى ، والعفو عند المقدرة "(١) .

ولعل الدافع لذلك خشيته من الله ، حيث كان يلاحظ عليه ذلك فى كثير من أعماله وأقواله ، حيث تتبين ذلك من قوله : ﴿ وكم عسا العيشُ فى هذه الدنيا والنجاة بالنفس فى دار الدنيا وتخليصها من الأوزار فى الأخره لا يبلغ ذلك شيىء ولا يعدله ﴾(٢) .

(١) كتاب التبيان ، مصدر سابق ، ص ، ١٣٨ .

(٢) نفس المصدر ، ص، ١٥٢ .

كما كان شديد الإيمان بالقضاء والقدر . يتضح ذلك من قوله عن أمير إشبيلية : " فسبحانه المقدر الذى أراد شيئا أن يقول له : كن فيكون " وأورد مقولة بعض الشعراء فى ذلك :

وأعلم علـم اليوم والأمسِ قَبْلَهُ   واكنى عن علم ما فى غدٍ عَمِ(١)

وكان يتصف بالشجاعة فى الرأى ويتضح ذلك من قوله : " الأخير فى رامٍ رَعِش ، ولا متكلم هائب فإن الهيبة فرع من المخافة ، والمهابة فرع من الحذر . ومن حذر ، فقد عقله ومن خاف تكرر عيشه ولا تصح مع هذا قريحة ينطق عنها اللسان ويذكى بها الجنان فالنفس إذا صُنعت ما تشتهى ترى مختلطة ، وتصير كأنها بطوارق الخيل مختبطة(٢)

كان بعيداً عن المماطلة والمراوغة . فعندما أرسل إليه الأمير ابن تاشفين بعد أن أعتقله فى مدينة أغمات فى أقصى المغرب يسأله عن ثروته ، التى تركها فى منزله فى غرناطة ؛ قال : " فقلت له : نعم كان ذلك وقد تركته فى دارى ، فإن أباح إلى المسير بنفسى ؛لأستخراج الكل ، وإلا فهذه أمى تتولى مع ثقاته ، حتى لا يغادركم منه خيط(٣) .

كما أنه يتصف بالعقل والحكمة والأعتراف بالجميل ويتضح من قوله بعد أن أستولى الأمير يوسف بن تاشفين أمير المرابطين على مدينة غرناطة " فأول ما يجب أخذ أنفسنا به إخلاص النيه لأمير المسلمين أيده الله وتَمَنَى

---

(١) نفس المصدر ، ص ، ١٧٥ .
(٢) كتاب التبيان ، مصدر سابق ، ص ١ .
(٣) نفس المصدر ، ص ١٥٥ .

الخير له ؛ لأن صلاح المسلمين بصلاحه . من الديانة أعتقاد ذلك ، لما أمر به من طاعة الأئمة ، والنصح لكل مسلم ، لاسيما أنه محسن النية(١) كما أنه يرى أن تسليمه نفسه للأمير يوسف بن تاشفين إنما هو الرأى والصواب . فلو التزم جانب العناد والأستكبار لحلَّ به ما حل بصاحب بطليوس (المتوكل بن الأفطس) يتبين ذلك من فصل فى مذكراته بعنوان (تأملات فى تقلب الأقدار يقول فيه : " فشكرنا الله على ما نجّانا منه - ويقصد ما حل بابن الأفطس - وصرّفْنا وجه أهتمامنا إلى ما ننتفع به ، وغلّبْنا النفس الناطقة على الحيوانية؛ فإنها تحمل على الفضائل والإنصاف ، ومعرفة حقائق الأشياء ، كما أن الحيوانية تحمل على الغلبة وإيثار الشهوات ، والحيدة عن سبيل المعرفه(٢) . اتصف كذلك الأمير عبد الله بالقناعة التامة والزهد فى الدنيا ، فهو عندما يتحدث عن النفس البشرية ، وما طبعت عليه من حب للدنيا والتمتع بملذاتها إلا قليلاً منها فهو ينكر ذلك ويبين أن الإنسان مسؤول أمام الله عن تصرفه ، تنهى عن الإسراف فى حياته .

وأن تلك المسؤولية تشمل جميع تصرفاته فى الدنيا ما عدا طعاماً يسد جوعه ، وثوباً يستر عورته ، وبيتاً يكنه من الشمس ، فهو بذلك يحث على الاعتدال والقناعة والزهد فى الدنيا حيث يقول فى ذلك : " فحقيق على اللبيب أن يزهد فيه ، لو آلت حاله إلى السلامة بعد ذهابه ، ولا عليه ولا له ، فكيف وهو قد أيقن بالفناء وبعده الحساب والجنة أو النار "(٣) .

---

(١) نفس المصدر ، ص١٧٦ .

(٢) نفسه .

(٣) نفس المصدر ، ١٩٦

كان بعيداً عن الأنانية ، وحب الذات ، يحث على التعاون والائتلاف وحب الآخرين ، مبيناً أن ذلك سبيل للعدل والإنصاف "(١) .

كان صريحاً فى أقواله ، فهو عندما يرد على حساده ، الذين وصفوه بأنه كان حريصاً على جمع المال ، محباً للحسان ينـاوم الصبيـان ، فهو يبين أن المال شىء ضرورى لبناء الدولة ولدفع أعدائها ، وكسب محبة جنودها ، وإخلاصهم . وكذلك أستخدامه كدعاية للدولة وذلك بما ينفق منه على الشعراء والمادحين .

لم ينكر الأمير عبدالله شيئاً من أنه تعاطى شيئاً من الخمر فى بداية حياته وأنه ناوم الصبيان " ، ولكن لا على أنه أهمل فى حق دولته أو غفل عنها . بل كان من يخالطهم وينادمهم بعيدين عن أمور الحكم ، وأنه لم ينادم أو يجالس أحدا منهم . وينكر على حساده إتهامه بذلك ، فيقول "والمستعملون لخدمة الدولة مشهورون ممن له حنكة ودربة . والخديم لا يكون نديماً كيف تصول اليوم على من أطلع على عوراتك البارحة إذ السُكْر عورة ؟ أم كيف تأمر بخدمة الجندية والشدة عليه فى الخروج مَنْ تعاطى معك الكأسَ ، وكثر معك المزاح والعربدة " ؟(٢) ويذكر الأمير عبدالله على زعم رأيه - أن تلك التصرفات غير معيبة للملك ، ولا تفض شيئًا من أمور الدولة ، بل أنه يعلل شربه الخمر بأنه راحة تختلس عند الفراغ من الشغل ، كى تعقب نشاطاً متعللاً بقول الحكماء " ترك اللذات يعقب البردة ، ويؤثر فى الجلد أدواء منكرة وكذلك بالقول القائل " إذا لم يكن للمرء على البقاء مقدرة ، فليتمتع فإن ترك

(١) كتاب التبيان ، مصدر سابق ، ص ١٩٧ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٠٣ .

ذلك للنفوس(١) . ويضرب مثالاً على الإخلاص لدينه ودولته، بأنه لم ينحز للروم ضد المسلمين ، ويقصد بهم المرابطين وذلك عندما عرض عليه (ألفونس السادس) التخلي عن قرطبة ، ويقوم الروم بحمايتها من المرابطين، عندما علموا بقدوم يوسف بن تاشفين إليها . وعرض عليه ألفونس السادس بأنه لو تخلى عنها سوف يوفر له الحماية التامة ، والنجاة بنفسه ، وحشمه وذخائره . فذكر الأمير عبدالله بأنه قد أعرض عن العرض ، لأنه يرى أن إرضاء المسلمين وإسخاط الروم أولى وأجمل للعاقبة ولذلك يقول " وكم عسا العيش فى هذه الدنيا والنجاة بالنفس فى دار الدنيا وتخليصها من الأوزار فى الآخرة لا يبلغ ذلك شيء ولا يعدله " وأنه استخدم الحكمة والعقل فى اتخاذ ذلك القرار ، لأنه يرى أن يرثها المسلمون أولى وأجمل للعاقبة . كما أنه يتصف بالفطنة والحذر من عواقب الأمور فنفذ ما طلب منه يوسف بن تاشفين عند دخوله الأندلس إذ طلب منه الخروج إليه ، فأشار عليه رجال دولته أن يبقى عندهم شيئاً مما يريد الاحتفاظ به لنفسه من ماله . ولكن رفض الملك المشورة لأنه أدرك بفطنته كما يذكر بأن طلبهم هذا ليس شفقة منهم عليه ، إنما طلبوا ذلك لغرضين فى أنفسهم : إما للاستئثار بالأموال لأنفسهم وإما لطامع فى تلك الأموال فيأخذ بعضاً منها لنفسه ، والبعض الآخر ينقله للأمير يوسف بن تاشفين ، للوشاية به عنده(٢) . كما اتصف بضبط النفس وعدم الانفعال وربما يكون الدافع لذلك هو خوفه وجزعه مما سيؤول إليه مصيره من استيلاء يوسف بن تاشفين على ملكه ، عندما أرسل إليه رسله لأخذ جميع

---

(١) نفس المصدر ، ص٢٠١ .

(٢) كتاب التبيان ، مصدر سابق ، ١٥٤ .

ما لديه من أموال وفتش منزله بكل عنف، وأهين هو ووالدته فى سبيل الحصول عليها ، على يد مندوب الأمير يوسف بن تاشفين(١) .

ويذكر الأمير أن تلك الحادثة قد هزت كيانه ، وأثارت بـه الفـزع والذعر. وهذا شيىء طبيعى لمن هو فى مكانه ، إذ إن الأمير يوسف عندما حصل على جميع أمواله ، التى كانت بالقصر ، أرسل إليه مندوبه يطالبه أن يرد الأموال التى قد أودعها عند أحد من الناس يخبئها ، وهدده بأنه إن لم يفعل ذلك فسيكون نهاية العهد الذى بينهما ، وهو الحفاظ على حياته . فأثار ذلك التهديد الفزع فى نفسه ، فطلب من والدته متضرعًا أن تحاول تذكر ما إذا كانت قد خبأت شيئًا من الأموال عند أحد من الناس لأن حياته مرتهنة بذلك(٢) . وهكذا وبفضل الله استطعنا من خلال الاطلاع على كتاب مذاكرات الأمير عبدالله آخر ملوك بنى زيرى بغرناطة ٤٦٩– ٤٨٣ والمسمى بكتاب " التبيان " والذى قام على نشره وتحقيقه المؤرخ الأستاذ / **ليفى بروفنسال** ، أن نكشف كثيراً من الأمور المتعلقة بشخصية الأمير عبدالله ، تلك الشخصية التى كان لها دور هام فى الأحداث الداخلية فى المملكة الإسلامية فىالأندلس.

سياسته :

يرى الأمير عبدالله بن بلقين السياسة صناعة لا بد من تعلمها ، كما نتعلم سائر الصنائع ، التى يكتسب فيها الناس معايشهم . . ولكنه يرى أن الإنسان لابد وأن يكون حذراً متفطنا محتسبا لكل أمر ، مستشهدا بقول الخليفة عمر بن عبد العزيز : " لست كخبّ ولا الخب يخدعنى "(٣) ، وبالقول الشائع

---

(١) نفس المصدر ص ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٢) نفس المصدر ص ص ١٥٩ ، ١٦٠ .

(٣) كتاب التبيان ، مصدر سابق ، ص١ .

فلان لا يعرف الشر " قال : " ذلك أجدر أن يقع فيه "(١). ولقد كان للأمير عبدالله منهج سياسي سارت عليه دولته (دولة بني زيري) منذ أن تولى حكمها . وكان من أهم ركائز هذا المنهج تسخير السياسة في طلب الرياسة ويذكر الأمير عبدالله أن هذا المبدأ قد حرص عليه أمراء بني زيري وتمسكوا به ، وطبقوه في دولتهم وأثناء حكمهم .

يرى الأمير عبدالله أن الخبرة هي التي تصقل شخصية الفرد ، وتجعله مطلعًا على كل ما كان خافيًا عليه ، وأن المكان المناسب لاكتساب هذه الخبره هو الحكم ويعلل ذلك بقوله " إن الحاكم تمر عليه تجارب عديدة في مجلس حكمه أكثر من التجارب التي تمر على من كرس وقته وجهده في التجول في أنحاء البلاد "(٢) ويبين الوسائل التي يكتسب منها الحاكم هذه التجارب مما يعرض عليه من أخبار ومن قضايا يحتاج منه إلى النظر فيها والبت في حكمها وكذلك إلى الطلبات التي تقدم إليه والتي تشمل طلبات الرعية وحوائجهم ، فهو بممارسة هذه الأعمال يكتسب كل يوم خبرات جديدة ، غير التي اكتسبها بالأمس . ويكتسب تجارب تفيده في عمله ويرى أن الحاذق من يستفيد من تجارب غيره .. ويرى أن اليقظة والحذر يجب أن يكونا ملازمين للإنسان في كل عمل يقدم عليه ، وكل تصرف له مع الآخرين . يذكر الأمير عبدالله أنه اكتسب خبرته السياسية على يد جده المظفر المعروف بالدهاء ، حيث كان محتاطا للأمير ، فقام بتدريبه وتمرينه ، وأشركه في كثير من المهمات الرسمية ، وفي كثير من أعمال الدولة حتى تكونت لديه الخبرة الكافية عن الدولة والمهام السياسية فيها يذكر ذلك الأمير عبدالله بقوله :

---

(١) نفسه .

(٢) المصدر نفسه ، ص١١ .

" فأمر بإخراجي من المكتب – ويقصد به المكان المعد للدراسة إلى التصرف بين يديه ، وقال لي نضر الله وجهه : دعك من الكتابة وتلاوة القرآن ما يكفيك . وهذا أولى ما تتعلم ! (يقصد به السياسة) فعليك باختصار ذهنك لجميع ما يكون مني ، وما ينقضي في دولتي أيام هذه الفتن فإن الزمان أشر والأيام أقصر من أن تدرك تعلم كل شيء يعنى به الملوك لأبنائهم(١) .

وقد التزم الأمير عبدالله الطاعة التامة لجده في الأوامر منه ، في سبيل تدريبه على الحكم فالتزم بالطاعة التامة والتواضع في أي أمر يسنده إليه . كما أنه كان سياسيًا حازمًا ، فلم يبد لجده ما يجعله يشك فيه ، أو يتخوف من أنه حريص على الرياسة ، بل إنه كان أداة طيعة لا يحكم في أمر إلا بأمره، ويأخذ مشورته فيه ، ويتشاور في كل أمر مع وزرائه ووثقوا به فرضوا به جده(٢) وقد اكسبه معاملته مع جده حبهم له وإخلاصهم له ، بحيث كان يلجأ إليهم في كل أمر يجهله ، فيقومون بتعليمه إياه وإرشاده إلى الصواب(٣) .

ويشير الأمير عبدالله إلى مدى العون والتوفيق الذي أمده الله به وإظهاره على منافسيه في الولاية والرياسة من أفراد الدولة الزيرية من إخواته الكبار وأبناء عمومته ، الذين هم أحق منه في ذلك الأمر ، حيث يذكر في ذلك الصدد أنه لولا توفيق الله له ، ومده بعونه لم يستطيع التغلب عليهم وكف شرهم ، ولو أنفق ملىء الأرض ذهبًا . ويستطرد الأمير في ذكر ذلك

---

(١) كتاب التبيان ، مصدر سابق ، ص١٢ .

(٢) نفس المصدر ، ص ص ١٢ ، ١٣ .

(٣) نفس المصدر ، ص١٢ .

فيذكر أن تغلبه عليهم نعمة من نعم الله يجب ألا يجحدها ، بل يجب عليه التحدث بها وإظهارها لقوله تعالى : { وأما بنعمة ربك فحدث }(١) .

وعندما تولى الأمير عبدالله الإمارة فى الأندلس صادفته عدة متاعب سياسية ، كان من أهمها علاقته بألفونس السادس ملك قشتالة ورفض المطالب التى تقوم على مطالبة ألفونس السادس له بدفع ضريبة سنوية مقدارها عشرون ألف دينار سنويًا على ألا يماطل أو يتأخر فى دفعها ، وإلا سيضطر ألفونس السادس إلى إرسال رسول يأخذها منه بالقوة ، وسيتحمل الأمير عبدالله تكاليف سفره وإقامته ، كما يذكر ذلك الأمير بنفسه . ولكن الأمير عبدالله كان شجاعًا قوى العزيمة .. فرفض ما عرضه ما عليه ألفونس السادس ظاناً أن له القدره الكافية على مواجهة ألفونس السادس ، وأنه سيلاقى كل المساعدة منه إخوانه ملوك الطوائف . ولكن حدث عكس ما كان يتوقعه ؛ انضموا إلى ألفونس السادس ، يدفعهم لذلك المحافظة على مصالحهم الشخصية . وفى مقدمتهم بنو ذى النون حكام مدينة مرسية إذ عرض زعيمهم (ابن عمار) على ألفونس السادس بأنه سيدفع له المبلغ الذى طلبه من عبد الله بن بلقين مقابل مساعدته للاستيلاء على غرناطة عاصمة بنى زيرى(٢) وأن تكون للفونس جميع ما تحويه وتضمه تلك الدولة . فقام ابن عمار باستئجار جند ألفونس السادس ، وضرب على مدينة غرناطة معقلاً منيعا لحصارها . وعندما أتم بناءه عمره بالأقوات ، وشدد الحصار على غرناطة . ولكن ذلك لم يفت فى عزم الأمير عبدالله ، بل أخذ يقاوم ذلك الحصار بكل ما

---

(١) سورة الضحى : الآية ١١

(٢)كتاب التبيان ، مصدر سابق ص ص ٦٩ ، ٧٠ .

أوتى من صبر وشجاعة محاولاً دفع الضرر عن مملكته ، ولكن لم يستطع فكه . وخاب أمل أهل غرناطة فى حكامهم بنى زيرى ، عندما رأوا تكالب الطامعين على بلادهم ، وتحالفهم مع الروم عليها . وكانت هذه الظروف السياسية السيئة هى التى دفعت الأمير عبدالله بن بلقين إلى أن يعيد النظر فى المعاهدة التى قدمها له ألفونس السادس ، وندمه على تفريطه فيها(١) .

كان الأمير عبدالله فى سياسته رجلاً يتصف بالهدؤ ومعالجة الأمور بتأنٍ وتروٍ يتضح ذلك من مداراته ومحاباته لصاحب مدينة ألمَرِيّة عبدالله بن صمادح والذى كان قد استولى على مدينة (بسطة) من قائدها ابن صلحان والذى كان المظفر بن زيرى قد أسند إليه ولايتها برضاء من وإليها ابن صلحان . فلم يدخل الأمير عبدالله بن بلقين فى مشاحنات مع ابن صمادح بل إنه جعل العلاقه بينهما حسنة أمام أطماع وتهديدات المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ، وألفونس السادس لمملكته .

وكان الأمير عبدالله يعالج الأمور ، ويحاول مسايرتها على حسب الظروف الدافعة لذلك وإن كان ذلك على كره منه – كما هو الحال مع المعتمد بن عباد الذى كان يزين للفونس السادس الاستيلاء على غرناطة ، وذلك لصغر سن حاكمها – وهو الأمير عبدالله بن بلقين ولما ينتابها من حالة الضعف والتمزق ، ولكن التحريض من ابن عباد لم يلاق قبولاً لدى ألفونس السادس كما يذكر بذلك الأمير عبدالله فى كتابه – إن ألفونس كان مدركا أن ذلك الأمر سيكلفه الكثير من الأموال والأنفس ، إضافة إلى أن أهل غرناطة لن يتقبلوه لاختلاف ملتهم عن ملته .. مما دفع ألفونس للكتابة للأمير عبد الله

---

(١) نفس المصدر ، ص٧٠ .

يخبره بقدومه . وكان الأمير عبدالله على درجة من الذكاء عارفا برغبات ألفونس وأطماعه فلقد كان يدرك أن غرض ألفونس من ذلك هو ضرب المسلمين بعضهم مع بعض ، وأخذ أموالهم بحجة نصرة بعضهم على بعض ، حتى يتمكن بتلك السياسة من إضعاف دولتهم ، والاستيلاء عليها دون مشقة. ولكن الظروف لم تكن مساعدة له لمواجهة ألفونس ومقاومته ، لذلك عندما كتب له ألفونسو يخبره بالقدوم إليه تردد الأمير فى بداية الأمر – كما يذكر ذلك – ولكن وبعد مشاورات مع أهل الحل والعقد فى دولته – خرج إليه واستقبله ، واتفق معه أن يدفع له خمسين ألف مثقال كضريبة سنوية(١) .

يذكر الأمير عبدالله بن بلقين أن الدافع الذى أرغمه على قبول هذه المعاهدة مع ما فيها من إجحاف فى حقه وحق المسلمين من أهل غرناطة ، هو أنه رأى أن ذلك من صالح المسلمين ودفع الضرر عنهم ، والذى قد يؤدى إلى هلاكهم على يد ألفونس السادس إذا خالفة أو عارض شروط هذه الهدنة ؛ لأنه ليس فى مقدرته الوقوف أمام هذه الدولة لتفوقها العسكرى عليه ، كما أنه لم يجد من إخوانه حكام المسلمين فى الأندلس أى عون ، أو مساعدة تمكنه من الصمود أمام أطماع ألفونس السادس ومكابرته ، بل أن المساعدة والعون الذى قدموه له هو تحريض ألفونس على الاستيلاء على غرناطة وهلاك أهلها. حيث يذكر ذلك الأمير عبدالله " ولا وجدنا من سلاطين الأندلس عونًا عليه – ويقصد ألفونس السادس – إلا من يسوقه إلينا لهلاكنا "(٢) .

وصفه ناقدوه بأنه كان متخوفاً دائماً من ملاقاة العدو ، ومن عواقب النضال ، وأنه يجنح دائماً للسلامة والعافية .. فلعل ذلك أمر طبيعى لرجل

(١) كتاب التبيان ص٧٥ .
(٢) كتاب التبيان ص٧٦ .

مسالم كالأمير عبدالله بن بلقين .. ولكن كان يتحلل من هذه الصفة ، عندما يجد نفسه مخيراً بين أمرين إما القتال أو الهوان ويظهر ذلك الموقف من التصرف الذى اتبعه مع أخيه (تميم) عندما استبد بأمور مالقة ، وأساء معاملة أهلها ، وكذلك عندما اتخذ مع ملوك الطوائف ، الذين ذهبوا إلى مساعدة ألفونس موقفاً حازماً .

لذلك رأى أن من الأصلح للمسلمين فى غرناطة أن يؤمن سلامتهم .. وهذا هو الداقع الذى تدفعه لعقد الصلح مع ملك قشتالة ، رغبة منه أن يعم السلام البلاد ، وتجنب عواقب هجوم ألفونس عليها . لذلك قام بدفع الجزية من جيبه الخاص لمدة ثلاث أعوام ، بين الأمير عبد الله مقصده من ذلك بقوله " لكى تسلم البلد ، وتشكر الرعية بمدافعة عدوها دون تكليفها شيئًا فلا تقع المشقة . كما يبرر الأمير عبدالله أنه لم يقصد من وراء هذه المعاهدة خيانة أمته أو إعانه الأعداء على المسلمين . يتبين ذلك من رده على رسول ألفونس عندما قال : " يقول لك ألفونس : إن كنت تريد أن تُخلّط مع هذه المعاهدة استعانة به على استعادة شىء من بلادك التى عند ابن عباد ، فهو يجد لك فيها وجهته هذه فأجبته : " إنى لا أعين على مسلم أحدًا وإن الذى دعانى إلى هذه المعاقدة المدافعة عن أهل بلدى ، وأهل ملتى فإن وفيتم بذلك، فهو المراد الذى إليه قصدنا .. يحدد الأمير عبدالله الغرض من قول رسول ألفونس ، فهو خلق الفتنه بينه و بين ابن عباد ، ليجد بذلك الطريقة التى توصله إلى بلاد ابن عباد ، فيقوى بأموال الأمير عبد الله ودولته عليه ومن ثم تتحول أطماعه إلى بلاد غرناطة وبذلك يضرب المسلمين ببعض(١) .

---

(١) كتاب التبيان ص٢٠ ص١٢٥ ، ١٢٦ .

كما قام الأمير عبدالله – بحل النزاع الذى كان قائمًا بينه وبين ابن صمادح صاحب المرية على الحدود بين مملكة غرناطة ومملكة المرية بشيىء من الحكمة والتروى الحلم ، وذلك عندما لاحظ أطماع ألفونس السادس ملك قشتالة فى الدولة الإسلامية بالأندلس فقام بمعالجة الأمور وحل النزاع ، وأمر بهدم الحصون التى أمر بإقامتها على المرية يصور ذلك بقوله " فصالحت الرجل ، وأمرت بهدم الحصون ونشرت ألمرية من كفن . فكان للسياسة الحكيمة هذه أثر كبير فى كسب محبة صاحب ألمرية (ابن صمادح) بحيث أصبح – كما يذكر ذلك الأمير عبدالله – أصدق الناس له ، متعاونين فى السراء والضراء طيلة مدة حكمهما . وأورد الأمير بينا من الشعر ، يبين حدود وضوابط الحكمة والتروى فى سياسته بقوله :

ولا خير فى حلم إذا لم تكن له   بوادر تحمى صفوه أن يكدار(١)

سياسته الداخلية :

ولقد اتصفت سياسة الأمير عبدالله الداخلية فى البلاد بكثير من الحكمة، والتأنى ، وحسن تدبر الأمور ، بحيث كان لينا من غير ضعف ، قويًا فى الأمور بغير عنف . فهو عندما يتحدث عن السياسة التى اتبعها مع وزيره سماجه الذى كان يطمع فى فرض سيطرته على الأمير عبدالله لصغر سنة ، مما يتيح له الاستيلاء على دولته . ولكن بعد أن شب الأمير وقوى عوده ، رأى الوزير سماجة أن الأمر لم يعد فى صالحه . فشكا ذلك إلى أصحابه من الوزراء ، فأشاروا عليه باتباع سياسة المداراة والانصياغ لطاعته والعمل على شغله بحياة اللهو والنساء ، حتى يستطيع بذلك أن يملك محبته وتفويض

---

(١) نفسه ص٨٩ ، ٩٠ .

الأمر له(١) ويستطرد الأمير بإكمال عرض الخطة ، التى دبرها له وزيره سماجة والتى كانت سببًا فى استبداده بمملكته وقيامه بقتل خير رجالها من وزراء جده باديس ، وذلك عندما أصدر كتبًا على لسان الأمير عبد الله يأمر بقتلهم فيها . ولكن الأمير عبد الله استطاع أن يدرك بفطنته ما يسعى إليه الوزير وما يدبره له . وقد أدرك الوزير سماجة ، ويقظته للدولة ستكون عائقاً لتحقيق آماله وسيشير الأمير عبدالله بأن قتله لهؤلاء الرجال ، بمثابة الحذر له والمنية له من أخطاره فقرر عبد الله أن ينتهز فرصة قتله لهؤلاء الرجال ، فيوقع به ؛ لأن الفرص - على حد تعبيره - تمر مر السحاب فلا بد من اغتنامها(٢) .

ويستطرد الأمير عبدالله بوصف ما يخطط له ذلك الوزير ، والسياسة التى اتبعها للحد من أطماعه ، فيذكر أنه أراد أن يستقل بحكم العاصمة ، فقام بإيفاد الأمير عبدالله إلى وادى (آش) وعندما دخل الأمير وادى آش واستلم زمام الحكم فيها أرسل إلى أهلها أن يرفعوا إليه مظالمهم وكان عاملها (ابن أبى جوث) ربيب الوزير سماجة على حد تعبير الأمير عبدالله ومن الموالين له (٣) وكان أمره إلى الرعية من سكان (وادى آش) مشجعاً لهم ، وهان عليهم أمر واليهم (ابن جوث) ، كما أن الأمير جمع الرعايا والوزراء وأمرهم أن يتصلوا به مباشرة وألا يجعلوا بينهم وبينه وساطة ، فقام بالحد من سيطرة نفوذ وإلى(وادى آش)وأمره بالالتزام. بما يخصه، وأخبره بأن لا وزير لدولته إلا نفسه ، أى الأمير عبدالله - وحدد لكل خادم فى دولته مهام عمله ،

(١) كتاب التبيان ، مصدر سابق ، ص٨٥ .
(٢) المصدر نفسه ص ص ، ٨٥ ، ٨٦ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ، ٨٦ .

فكان لذلك التصرف أثر كبير فى نفوس رعاياه فى وادى آش حيث أثار الفرحة فى صدور الوزراء ، وذلك بإيجاد العدل بينهم ، كما أنشط الرعايا بذلك الأمر . ولم تقتصر سياسة الأمير عبدالله الداخلية على ذلك ، بل أنه قام بعزل كل من شعر منه بخيانة من وزرائه ، كما أنه قام بعزل عمال لما شك فى إخلاصهم بما فيهم أبناء عم الوزير سماجة من الحصون وقام بتولية غيرهم إلا من أعلن طاعته له . وقد التزم الأمير عبدالله جانب العدل فى سياسته هذه ويتضح ذلك من معاملته لأحد أبناء عمومة الوزير (سماجة) صاحب المُنَكَّب وذلك عندما كاتب الأمير عبدالله يعلن طاعته له ، ويطلب منه أن يرسل قائده إليه ؛ لأنه كان يخشى أن يناله ضرر ،لكن الأمير عبدالله أمنه على نفسه وماله ، واتفق معه أن يكون من الملازمين لمجلسه طوال حياته(١) . فقبل الوزير بذلك .

وكان من سياسته أنه كثيرًا ما كان يتغاضى عن بعض الأعمال ، التى تواجب إيقاع الحد على مرتكبيها . وكان يهدف من ذلك إلى عدم إثارة الفتن والبلبلة فى البلاد على حد تعبير الأمير عبدالله .. حيث يضرب مثالا لتلك السياسة وأن بعض المفوضين أوقعوا بينه وبين الوزير من الاستيلاء على أمر الدولة ، خوفًا من عودته إلى منصبه ، فدفع ذلك الأمير إلى أن أصدر أمره له بمغادرة البلاد بما يملك من أموال ومتاع إلى مدينة المرية دون أن يلحق به أى ضرر(٢) وأنه لم يقم عليه الحد فيما ارتكب فى صدر دولة بنى زيرى من أعمال إجرامية – كما يذكر ذلك الأمير عبدالله – كقتل النساء

---

(١) كتاب التبيان ، مصدر سابق ، ص ٨١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ، ٨٧ .

لاشتراكه فى ذلك العمل مع شيوخ تَلكَاتَه ويعلل الأمير عبدالله عدم إقامة الحد عليه بقوله : " ولا استطعنا حينئذ على معاقبته لما ارتكب فى صدر الدولة من قتل أولئك النساء ومن جرى مجراهن ، لشركته فى ذلك مع سواه من شيوخ تلكاته فيسوء ظن الجميع ، وتفسد من سببه الأحوال فلا يقوم فساد المملكة وسوء عاقبة الأمر بما يلزم من إقامة الحد . فرأينا من الصواب أن يرتحل عنا دون تغيير ولا إبلاغ فى عقوبة .(١)

وكان الأمير عبدالله على درجه عالية من اليقظة ، حيث إنه قام بتسوية الخلاف الذى كان بينه وبين ابن صمادح صاحب ألمريّة ، وذلك عندما رأى أن وزيره (سماجه) حاول أ ن يثيره ، وذلك انتقامًا من الأمير عندما أمره بمغادرة البلاد، حيث زين لابن صمادح الاستيلاء على غرناطة(٢) .

ولم يقتصر عدله على عمال الأقاليم والحصون فقط ، بل حرص أن يشمل العدل جميع رعاياه فى جميع المناطق التابعة لغرناطة ، والتى تحت تصرفه يلاحظ من هذه السياسة أنه لم يكن محابيا لأحد فى سبيل حفظ حقوق الرعية التابعين له ، حيث شمل ذلك أقرب المقربين له وهو أخوه (تميم بن بلقين) أثناء حكمه لمدينة مالقة ، وأعمالها . فعندما وصلت إليه الأخبار بسوء حكمه عليها ، عمل على جمع جيش كبير أرسله إليه لمقاتلته .. وتم له إلحاق الهزيمة به .. ولم يكتف بذلك ، بل حاول القضاء عليه لكنه لم يرد أن يفجع فيه أمه(٣) .

---

(١) المصدر نفسه ، ص ص ، ٨٧– ٨٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ، ٨٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ص ، ٩٢ – ٩٥ .

كما أنه كان حليمًا فى معالجة الأمور وحل أزماتها بعيدًا عن الانفعال . يتبين ذلك من موقفة مع (سماجة) والذى قد علا شأنه فى الدولة ، وحاول الاستبداد بأمورها .. والاستئثار بالسلطة لنفسه إضافة إلى أن عامة الشعب كان يملأ نفوسهم البعض والكراهية له ، لاستعلائه وظلمه لهم . فعل الأمير على إقالته من منصب ونفيه عن غرناطة ، ولكن التزام فى ذلك التصرف اللطيف اللين ، حيث سمح له بمغادرة غرناطة، ويصحبته أهله وأمواله الطائلة . ويبرر الأمير ذلك التصرف بأنه اعتراف بجميل هذا الوزير لأجل تربيته إياه وكذلك لمنع الشغب والفوضى فى البلاد وللأمير عبدالله بن بلقين نظرته السياسية المتميزة فهو يرجع الأمور السياسية التى تحدث فى العالم إلى أبسط الأسباب(١) مشيرًا إلى أن الذكى وصاحب الحظ قد يصل إلى غايته بأبسط الأمور ، كما حدث مع المنصور بن أبى عامر عندما استولى على السلطة من الأمير هشام بن الحكم (هشام المؤيد) (٢) كما يدرك أن على السلطان مهام والتزامات يجب عليه القيام بها وأداؤها بأمانة وإخلاص ؛ منها: حماية الرعية والذب عنهم . ويعبر عن ذلك بقوله : " ولولا ذلك ما طاب للرعية عيش ولا عزبهمْ قرار(٣) " .

ويبين أن الحياة أكسبته كثيراً من تجاربها ، أثناء مزاولته للحكم .. فهو يرى أن الثناء والتمجيد لا تحظى به الدولة من قبل الناس إلا فى المدة التى تكون فيها متمكنه من السلطة وفى عز سيطرتها ، وأيام سعادتها ، فلا يقع عليها ذم أو انتقاد ، حتى وإن كانت ظالمة مستبدة ، وأن الدولة متى زال

(١) المصدر نفسه ، ص ، ١٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ، ١٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ، ١٧ .

حكمها ، وانتزعت سلطتها يلحقها الذم والانتقاض ، حتى وإن عادلة إلا من أناس قلة يتصفون بالإخلاص والآمانة أورد ذلك بعبارة يقول فيها " والناس مع من سبق إلا مَنْ نظر بعين العدل لا عين الهوى ، وقليل ما هم "([١]) .

كان الأمير عبدالله يرى أن على رجال السياسة مداراة الأمور ومسايرتها ، لتحقيق مصلحتهم وإن كان ذلك يخل بالآداب العامة . فهو يرى أن على الإنسان مسايرة الأمور لما فيها مصلحته الخاصة . يوضح ذلك من خلال حادثة مرت عليه أثناء حكمه لدولة بنى زيرى ، وذلك عندما أشار عليه الفقيه (ابن القليعى) أن يكتب إلى القاضى ابن سهل كتابًا ، يعده فيه بالقضاء إذا هو حكم فى صالحه ضد أخيه (تميم) أمير مدينة مالقة . ففعل ذلك الأمير عبدالله([٢]) .

كان يحرص فى سياسته على استتباب الأمن والهدؤ فى الدولة ويتضح ذلك من تصرفه تجاه وزيره (ابن القليعى) الذى احتل مكانة عالية عنده ، حيث أخذ يهدد بسلطته ومكانته فى الدولة وقام بالاستيلاء على كثير من ضياعهم وضمها إلى أملاكه يقول القليعى : " والله لأبلغن حفيد باديس الطينة السوداء ولأشوقه إلى درهم ينفقه ، وذلك على صنيع جده بى وبغيرى " كتب له بذلك القاضى ابن سهل خطابًا يخبره فيه عن الحال السيئة التى وصل إليها الجند من تصرف وزيره القاضى، فاستدعى الأمير عبدالله القليعى ، وقال له: " نحن بحال لا يرضى عنا فيه لا رعية ولا جند ، وفى هذا الفساد والقطع"

---

(١) المصدر نفسه ، ص ، ١٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ص ، ١١٨ – ١١٩ .

ففهم القليعى مقصده وطمأنه إذا تمرد عليه الجند فسوف يقوم باستدعاء جند غيرهم من العدوة " يغونك عنهم وكفل القليعى باحضارهم من ماله الخاص .

ولكن فطنة الأمير عبدالله قضت على ما كان يخططه القليعى ، لأنه كان مدركًا -كما يذكر - أن من غير الصالح له الاستغناء عن جنده ، والحفاظ على من يريد خلعه ، وهو القليعى ، ففضل إرضاء جنده وإسخاط (القليعى) فقام بجمعهم وإرضائهم ووعدهم برد ضياعهم لهم ، مما طمأن لهم ، ورد اعتبارهم لهم ، فحاولوا التخلص من (القليعى) وذلك بقتله . ولكن الأمير عبدالله قام بإيقاف هذا الأمر حتى لا يكون ذلك مصدر بلبلة فى البلاد وعقوق من جانب الوزير (القليعى) فقام بتهدأة الجند بأنه سيكفيهم أمره ، وقام باحتجازه بقصر بالقرب من قصره ، وأحسن إليه وأكرم مثواه . ولكن ذلك لم يزد القليعى إلا إنكارًا لجميل الأمير عبدالله كما يذكر ذلك .. إذا قام بالرحيل إلى أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين مبديا له شكواه من سياسة الأمير عبدالله ومشجعًا له على غزو بلاد غرناطة ، وذلك بعد أن أطلق الأمير سراحه ، بعد أن أخذ عليه المواثيق بترك ما لا يعنيه من الأمور وعدم التدخل فى سياسة الدولة (١).

وكان يتصف فى سياسته بالخوف والذعر وهذا ما خرج به عندما هدده (قرور) وخوفه على لسان يوسف بن تاشفين ، وذلك عندما عاد الأمير عبدالله من حصار حصن لييط وصدق الأمير عبدالله ذلك الوعيد الذى جره على لسان الوزير (قرور) ، واعتبره ناقلاً إياه عن يوسف ابن تاشفين ، لما كان يحتله من مكانة عظيمة عند الأمير بن تاشفين . وقد أد من مخافة جفاء وزيره القليعى له وتوعده إياه بالهلاك فيذكر ذلك الأمير بقوله:" وسمعت وعيد

---

(١) المصدر نفسه ، ص ، ١١٤ .

القليعى لى ، وجفاءه على ، وإزالة رقبتى عنه (أى رقابتى عليه) فما زادنى جزعًا، لا سيما أن الجزع والسوداء متمكنه من نفسى،وأجدها فى طباعى"(١).

ونختم التحدث عن سياسة الأمير عبدالله ابن بلقين ، والتى كانت قد أعطتنا انطباعًا عنه أنه كان لينًا فى غير ضعف قويًا فى غير عنف ، وذلك من خلال ما مر به من أحداث فى دولته، وكيف عالج هذه المواقف وتصرف تجاهها كموقفه مع الأمير يوسف بن تاشفين ، عندما أراد أن يخلص الأندلس من ملوك الطوائف ، حيث رأى أن بقاءهم يحكمون الأندلس ، سيكون سببًا لنهاية الدولة الإسلامية واستيلاء النصارى عليها، فكتب له يوسف ابن تاشفين بأنه قادم لدخول مدينة غرناطة ، وتخليصها من يده ، فبادر الأمير عبدالله بن بلقين ، بإرسال مندوبين من قبله للترحيب بقدوم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، وهما القاضى أبو الأصبغ بن سهل ، ووزيره (باديس بن وارى) . وكان الأمير يوسف بن تاشفين قد كتب لعبدالله بن بلقين بأنه سيرسل عسكرًا لحماية غرناطة من النصارى حتى دخوله إليها ، وأمره بأن يوفر لهم القوت والعلف لماشيتهم فإجابه الأمير عبدالله بالقبول درءًا لوقوع الخلاف بينهما كما قام بإرسال الفقهاء محملين بالأموال إلى يوسف بن تاشفين ، وكلفهم بإخباره بأنه بمنزلة ابنه وغير مخالف لأمره ، وأن طاعته عليه واجبة .

ويبدى الأمير عبدالله تأثره ؛ لأن الأمير يوسف بن تاشفين لم يقدر له صنيعه ذلك الفعل ، بل أنه أرسل إليه الفقيه ابن سعدون يقول له لا طاعة ولا صلح إلا بالخروج إليه وأن الأمير ابن تاشفين قد أعطاه الآمان على نفسه وأهله دون ماله . كما أخبره بإنه إذا كان خائفًا من الخروج إليه ، والاستسلام له فليغادر غرناطة إلى أى مكان يراه .

---

(١) المصدر نفسه ، ص ص ، ١٤٩ – ١٥٠ .

وهنا تظهر حكمة الأمير عبدالله بن بلقين ، ومقدرته على تسيير الأمور ، أملاً منه فى إخماد نار هذه المشكلة " ففضل الخروج للأمير يوسف بن تاشقين والاستسلام له وقد أدرك أن خروجه إلى مدينة غير غرناطة لن يكون حلاً للمشكلة ، ونهاية لها . ورأى أن ذلك التصرف شيىء سخيف عبر عن ذلك بقوله : " من السخف يكون أن أقول : قد أخترت موضع كذا . فإن كان لها كارها لم أليث أن أراد منه بتعليل وحجة للقوى على الضعيف وإن كان فى نفسه العوض ، فبخروجى إليه يربى ما يعتقده من إحسان "(١) .

وقد علل الأمير عبدالله بن بلقين استسلامه ، وذكر السبب الدافع له إلى ذلك الاستسلام بأن يوسف بن تاشفين عندما يدخل غرناطة ولا يجد فيها نصارى- كما أخبره أعداؤه -أى أعداء عبدالله بن بلقين ، فهو بأحد الأمرين إما أن يرجعه إلى غرناطة مرة ثانية ، وإما أن يخرجه منها . ولذلك فضل الاستسلام - كما يذكر - على الحرب ضده (٢) . كما يرى أن الدافع الآخر لهذا الاستسلام إن إرضاء المسلمين -ويقصد بهم المرابطين ، وعلى رأسهم يوسف بن تاشفين - وإسخاط الروم - ويقصد بهم ألفونس السادس - أولى وأجمل للعاقبة . ويرى أن ذلك هو عين العقل وأحمد للعاقبة - معبرا عن ذلك بقوله : " فاستعملنا العقل ،الذى جعله الله أميرًا علىكل شيىء وكل قوة "(٣).

ويعبر الأمير عبدالله بن بلقين عن رأيه فى ذلك إذ كان يرى أن للحظ دورًا هامًا فى تسيير السياسة فى الدولة . وكان يرى أن الحظ كثيرًا ما كان

---

(١) المصدر نفسه ، ص ، ١٥٢ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه ، ص ، ١٣٤ .

يخونه فى إدارة أمور دولته ، ويورد على ذلك مثالاً . فعندما أشرك الضعفاء من قبيلة صنهاجة بالإضافة إلى زناته ، وأوكل لهم حماية الحصون رأى أن ذلك التصرف كان سببًا فى إثاره الشر ، حيث أدى إلى قيام الفتنة فى دولته ، فعبر عن ذلك الموقف بقول الشاعر :

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأكثر ما يجنى عليه اجتهاده(١)

فقد نتج عن ذلك التصرف تمرد قبيلة زناته عليه ، حيث ساءت ظنونهم به ، فأخذوا يعتذرون عن عدم أداء أيه خدمة تطلب منهم له . فأراد أن يقطع دابر تلك الفتنة ، فقام باستقصاء الأخبار عنها مانعًا لها من حدوثها استشار فى ذلك وزيره ومربية (لبيبا الخَصِىّ) واثقا برأيه ، ولكن لبيبا هذا أخذ يؤلب عليه المبدعين والثائرين من أبناء عمومته ويحثهم على عدم الامتثال لأوامره والخروج عليه .

وكان الأمير عبدالله يعالج بعض الأمور التى تمر بدولته فهو عندما أمر بإخراج من ثار عليه من المدينة ، أشار عليه بعض معاونيه أن يتراجع عن أمره هذا لتهدئة الوضع ، ولكنه رفض ذلك ، وأصر على رأيه ؛ لأنه أدرك أن تراجعه عن أمره سيشجعهم إلى غير ذلك مما يخل بالنظام ويكون لهم الصولة والحماقة على حد تعبيره .

ولكن ذلك الحزم لم يكن يطبقه فى الأحداث ، التى تمر عليه أثناء حكمه لمدينة غرناطة . فمن هذه الأحداث حادثة ثورة يهود مدينة (اليسانة)، وذلك عندما فرض عليهم الأمير عبدالله بن بلقين ذهبًا كثيرًا باسم التقوية

---

(١) المصدر نفسه ، ص ، ١٣٢ .

وكان ذلك المال مرهقًا لهم مما سبب نفورهم منه وثورتهم عليه . بتحريض من وزيره (ابن ميمون) صهر الوزير اليهودى (ابن الربيع) الخازن لأموال ابن زيرى فى عهد جده (باديس بن حبوس) فكان ينادى فيهم بقوله: " جدوا معشر بنى إسرائيل فى حماية أموالكم " فعزم الأمير عبدالله على محاربته ؛ لأنه السبب فى إشعال نار الفتنة بينه وبين اليهود . وعندما استعد للخروج لمحاربته حذره أحد وزرائه ويدعى (مؤمل) من مغبة فعلته هذه، لأن محاربتكم ستزيد الموقف تعقيدًا وأن ذلك سيدفع اليهودى (ابن ميمون) إلى الاستعانة بابن عباد فى قرطبة فدفع ذلك الأمير عبدالله إلى التراجع عن رأيه وقام بتسوية الأمور مع اليهود واستمالتهم إليه ، ووعدهم بالإحسان ، فكانت نتيجة تصرفه إن تخلىاليهود عن محرضهم(ابن ميمون)وعادوا إلىطاعته([1]).

وللأمير عبدالله نظرة صادقة فىمعرفة الأشخاص الذين يتعامل معهم.. وهذا ما يذكره عن نفسه مستشهدًا ببيت الشعر القائل :

والعين تبصر فى عينى محدثها　　　إن كان من حزبها أو منأعاديها([2])

لذلك فهو يذكر أن من التجارب التى مرت به أن من مميزات الرجل السياسى الناجح ألا يحسن الظن بكل من يعرفه ، أو يتعامل معه من الناس ، ويعبر عن ذلك بقوله : " وكذلك العاقل المتمرن لا يجب له أن يظن بالناس يظن بالناس ظنه بنفسه ، ولا يعمل حسابه وحده . فليس كل الناس على مذهبك ، ولا هواهم مطابق لهواك "([3]) .

---

(١) المصدر نفسه ، ص ، ١٣٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ، ١٤١ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ، ١٤٣ .

كما أنه يرى أيضا أن من سياسة الرجل الحاكم مسايرة الأمور وذلك بترك ما كان عسيرًا منها وأخذ ما كان يسيرًا منها وعبر عن ذلك بقوله : " فالعاقل يتخير الأمور ، فيتجنب معسورها ويتوخى ميسورها(١) .

يذكر الأمير عبدالله أنه كان دائمًا يحرص على توفير الأمن والأمان فى دولته ، فعمل كل جهده حتى تحقق له ذلك . وكان يهدف من وراء ذلك إلى كسب محبه رعيته ، والتخلص من انتقادات رجال دولته وعداوتهم ولكنه يعود فيعلق على ذلك بأن هذه السياسة لم تأت بالنتيجة المرجوة منها ، وأن القياس قد خانه فى اتباعه ، لأنه ظن بالناس ظنه بنفسه ، وهذا لا يتفق مع الإنسان العاقل . فكان أول من عاداه وعمل على إثاره الفوضى والاضطراب فى بلاده كبار رجال دولته عندما توفر لهم الأن و الآمان ، حيث كان كل منهم يحاول أن يعمل برأيه ، وأن تجرى الأمور على هواه . فإذا لم يحصل على ذلك صار فى حيز الأعداء . ويذكر الأمير أن من المستحيل أن تسير الأمور على حسب أهواء الأشخاص ، ويقصد بهم كبار رجال دولته ويبرر ذلك بقوله : " ولو كان على مرغوبهم ، ما اتفق رئيس عمل ، ولا تم له شيىء " (٢) ؛ لأن كلاً منهم يحاول أن يسير الأمور على حسب أهوائه ورغباته ويذكر أن هذا شيىء لا يستغرب ؛ لأنه طبع النفوس البشرية ويعلل ذلك بقوله : " فلا تسمع ممن يريك التحقيق بكلامه فإن الحق ثقيل على النفوس ، والباطل إليها أسرع وعليها أخف "(٣) .

---

(١) المصدر نفسه ، ص ، ١٤١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ، ١٤٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ص ، ٣ ، ٤ .

ثقافته :

يتضح لنا من كتابه " التبيان " أنه صاحب ثقافة عالية وإطلاع واسع ، ملم بكثير من العلوم الدينية ، إلى جانب العلوم الأخرى كالفلسفة والفلك .

إنه يستشهد بكثير من الآيات القرآنية على كل حادثة يوردها ، فيذكر أن الذى لا يعرف دنياه ، التى نشأ فيها وأدركها ببصره وجميع حواسة ، فهو لآخرته أجهل، حيث إنها لا تعرف إلا بالتفكير والاعتبار ، وهو ما حض عليه الكتاب – ويقصد به القرآن الكريم – وأتى به الرسول عليه السلام مستشهدًا بقوله تعالى : (إنما يتذكر أولو الألباب)[1] (الرعد : ١٩ ذيل الآية) .

يرى الأمير عبدالله أن الأصل فى العلم والدافع له هو – أولا وقبل كل شيىء معرفة الإنسان لدينه .. وأن يتخذه وسيلة للمعرفة للانتفاع به فى دنياه فيما يعود بالنفع لآخرته ، وأن فضل العلم يعود على الإنسان عندما يعمل به.. ويبين ذلك بقوله : الرجال ثلاثة : رجل علم فعمل ، فذلك الذى يدعى فى الملكوت ورجل علم ولم يعمل ، فذاك الذى يضاعف له العذاب ورجل لم يعلم ولا عمل ، فذاك إن مات يموت ميتة جاهلية ، ولا تصح له معرفة دينية إلا بألا يقدح فيه قول كافر ولا معطل فإذا حسن تمييزه عن الصنف الملحد ، عرف فضل ما هو عليه ، فاتبع على يقين وجود نظر ، لا باستهزاء ولا تقليد فيعجز ويشك "[2] .

ومن خلال كتابه يتبين أنه صاحب عقيدة إسلامية صحيحة فهو عندما يتحدث عن الدين الإسلامى وعن الرسالة المحمدية يبين أن الإسلام هو الدين

(١) المصدر نفسه ، ص ، ٤ .

(٢) سورة المائدة : من الآية ٤٨ .

الخالد وأن الرسالة النبوية الكريمة هى الرسالة الحقة ، وأن الله سبحانه وتعالى ختم الرسالات بالنبى محمد ﷺ ليبين للخلق الطريق السوى الصحيح وليوضح لهم ما فرض عليهم ، وليظهره على الدين كله . وأورد مجموعة من الآيات القرآنيه الكريمة شاهدا على ذلك كقوله تعالى : لكل منكم شرعة و منهاجًا(١) وقوله تعالى : وأن من أمة إلا خلا فيها تدبير .

وللأمير عبدالله أسلوب جيد فى المناقشة وإبداء الرأى ، حيث يستنكر على الذين يقولون إن محمدًا (عليه الصلاة والسلام) كان رسولاً للعرب فيناقش ذلك القول بموضوعية واضحة ، حيث يذكر أن الحجة عليهم فى ذلك ظاهرة فيما يتفق مع العقل والقياس . ويبين أن رسالته للخلق أجمع ، ويذكر أن أدلة ذلك قد جاءت فى آيات كثيرة لا توصف كقول الله سبحانه وتعالى وما أرسلناك ألا كافة للناس بشيرًا ونذيرًا(٢) وقوله عليه الصلاة والسلام : "بعثت فى الأسود والأبيض ، والحر والعبد " فيذكر أن ذلك مبطل لحججهم فلا يصح لهم الإنكار جملة ولا الإيمان بأمر دون أمر " ويستطرد الأمير فى ذلك مبينًا أن نعم الله على خلقه أن بعث فيهم الرسل ، ليستنير الناس بما جاءوا ويزيل عنهم الشك فى وحدانية الله وفى ذلك رحمة من الله بعباده ؛ لأن الناس لو تركوا على قياسهم ، وما تدركه عقولهم لكان خوضهم فى هذا المعنى قليلاً وتمثلاً بقوله تعالى : ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فيوضح الأمير عبدالله رأيه فى تلك المسألة قائلا : " فمن عرف الله قبل بالعقل أتم عليه نعمته ، فقد عرفه نفسه باليقين وبشره بالثواب ، وأنذره العقاب ، ليرتفع الشك ، ويوقن بالميعاد ولينقاد إليه عامة الناس طوعًا أو كرهًا(٣) .

---

(١) سورة سبأ : من الآية ٢٨ .

(٢) التبيان ، ص ٦ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ص ، ٧ - ٨ .

ويستنكر على الذين يقولون بالظن فى أمور الدنيا دون أن يعتمدوا على يقين واضح ، فكيف بالأمور التى تخص الآخرة ، ويذكر أن الظن أكذب الحديث والشرع ومن عمل به خسر ؛ لأن خلق الله للناس وحكمه فيهم لا يحكم فيه على القياس . ويبين أن الطريقة الصحيحة هى الطريقة القويمة التى اتبعها أهل السنة ، حيث إنهم يصدرون أحكامهم على قواعد متينة قائمة على ما بأيديهم من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ، لذلك فهم أوضح وأصدق من غيرهم ؛ لأنهم معتمدون فى كلامهم وأحكامهم على الأصل بعكس غيرهم الذين يعتمدون على القياس .

ويستطرد الأمير فى الأمور التى تتعلق بالعقيدة الإسلامية مجادلاً الملحدين الذين لا يؤمنون بالغيب ما يعملونه إلى ما تدركه حواسهم ، وما تدركه عقولهم بناء على ما تدركه حواسهم يعملون ما يدركونه بعقولهم ، وأنه لا علم لهم بما يكون . فهو يرد عليهم بقوله : إذا عرفت بالعقل ما أنت فيه ، لم يكن لك شيىء متقدم تعرف به العقل ولا استطعت لنفسك ولا علمتها قبل فتركب فيها عقلاً وتدبيرًا .. وواهب العقل الذى خلقك ودبرك كيف شاء قادر علىأن يعيدك ولا يجعلك هملا إلىأن يقول:" ولو أنك تعلم أيها الشقىأن العقل إذا جحدت به آيات ربك كل عليك حمل يوم القيامة ، وهو قوله تعالى : ﴿ فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيىء إذ كانوا يجحدون بآيات الله ﴾ الأحقاف : من الآية ٢٦ . وقال : ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه ﴾ (يس : من الآية ٧٨) كما جادل وناقش أهل الطبيعة، الذين يقولون: إنها أعلم من كل عليهم ، وأحكم من كل حكيم(١) فنجح من فعلها فى الأبدان

---

(١) المصدر نفسه ، ص ، ٨ .

تدركه الأطباء باجتهادها . وكذلك قول بعضهم فى الطبيعة : إنما اسم واقع على غير شيىء لا يدرى ما هو " فجادلهم بقوله " أهى طبيعة واحدة أم طبائع كثيرة بل سيقولون لكل شيىء طبيعة ، فأرى أضرادا لا تصح لأحدها إلهية ، وغيرها مناقض لها . وهى كانت حجة إبراهيم - عليه السلام - على قومه ورده على من قال " إن الشمس هى حياة العالم دون غيرها فقال - عليه السلام - أرى الظل يفعل ضد ما تفعله الشمس ، والخالق لا يضاد([1]) فيتبين من رده هذا أنه يثبت الوحدانية لله عز وجل بالدليل الواضح القاطع . كما كان الأمير صاحب مراس فى المجادلة والمحاجة وإبداء الرأى ، حيث قام بمحاجة الذين بنو فكرة القياس على العقل دون الرجوع إلى الحق من الكتاب والسنة ، فيصفهم بأنهم مستضعفون لا يطيقون نصر ما عهد من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر([2]) . فخاطب تلك الفئة بقوله : " ولو أنك تعلم أيها الشقى أن العقل ...".

ويتضح أن الأمير عبدالله صاحب اتجاه دينى قوى ، حيث جعل معرفة الإنسان لدينه أساس المعرفة كلها .. وأقر بذلك وحث عليه بأن ينتفع بدينه فى حياته الدنيوية ، ويعمل لآخرته . وحث على أن يكون دين الشخص خاليًا من كل ما يعلق به من شوائب الشرك والبدع والخرافات ، حيث يذكر أن الدين الصحيح هو ذلك الدين الذى لم يخالطه قول ملحد ولا كافر فعند ذلك يطبق الإنسان دينه تطبيقًا صحيحًا بقناعة تامة من نفسه ، دون استهزاء أو تقليد للآخرين ، فيؤدى ذلك إلى عجزه عن مواصلة عمله ، بل يدخل عليه الشك فى عقيدته .

---

(١) المصدر نفسه ، ص ، ٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ، ١٧٨ .

وكان الأمير عبدالله صاحب غيرة شديدة علىالدين الإسلامى ، متحمسًا للرد على كل من يحاول المساس به ، خاصة الأصناف الملحدة من المشركين الذين زعموا أنه ليس بعد نبيهم عيسى نبى ولا ورسول. وقرن رده وبين صحته بما أورده من الحجج والبراهين الكثيرة ، التى تدحض ذلك الرأى وذلك القول .

وللأمير عبدالله ملكه شعرية جيدة ، حيث يذكر أنه قام بتصوير بعض أحداث الأندلس والأحداث فى دولته بصفة خاصة فى أبيات شعرية . قام بنظمها فى أوقات فراغة ويذكر أنه لم يزاول الشعر قبل تولية الحكم ، وإنما قاله بعد أن تولى زمام الأمور فى دولته ، وذلك فى أوقات راحته بعد الشغل حيث يقول : " نقطع بذلك الزمان عند الفراغ من الشغل ، ونضيف معها لمعًا من آداب وسير تحضرنى ، مما يختلج فى الخاطر ، ويجربها الإنسان بصحبة الزمان وتنقله فى الحالات " ويستشهد بأنه قيل لرجل : من أين لك هذا العلم ؟ فقال : " قلبًا عقولاً . ولسانًا مسؤولاً(١) ولكن للأسف لم يذكر شيئًا من القصائد التى نظمها ، وإنما اكتفى بأنه قارض للشعر فقط .

لقد كان صاحب ثقافة واسعة كان من ضمنها إطلاعه الواسع على البروج وما تتحدث عنه وقد زاد تعمقه فى دراستها ومطالعتها عند نفيه إلى مدينة أغمات فى الغرب على يد يوسف بن تاشفين وعرف كثيرًا عن حياته ومستقبله من خلال قراءته لبرجه (الحوت) .

ويذكر أنه لم يشك فى شيىء مما تحدث عنه ذلك البرج(٢) .

---

(١) المصدر نفسه ، ص ، ١٧٩ وبعدها .

(٢) المصدر نفسه ، ص ، ١٨١ .

ويتضح أن للأمير عبدالله بن بلقين معرفة : الألفاظ اللغوية ، حيث قام بتعريف " الفلك " عندما كان يتحدث عنه وكذلك تعريفه لكلمة " سماء " حيث ذكر أنها سميت بذلك الاسم ، لارتفاعها حيث إن العرب تطلق على كل ما ارتفع سماء([١]) .

وقد عرض الأمير عبدالله رأيه الخاص فى التنجيم ، حيث ذكر أنه لا يعلم الغيب إلا الله سبحانه وتعالى . وذكر رأى أهل العقل فى ذلك العلم حيث ذكروا أنه دلائل على الخير والشر كما قام بذكر آرائه حول ذلك العلم ، مما يدل على إطلاعه الواسع فيه .

وأخيرا ، ختم التحدث عن التنجيم والمنجمين برأيه الخاص ، بأن ذكر عن التنجيم "أنه تأنيس ما لم تقرب المدة، وزيادة فى ألم المنية إذا اقتربت"([٢]).

كما ذكر رأيه فى علم الطب فبين أنه لا يكون إلا صحة للبدن أن يحل أجل الفرد ، وأنه لا يفيد شيىء إذا حل الأجل([٣]) .

هكذا ويتضح من خلال مذكراته أنه كان صاحب اطلاع واسع فيما يتعلق بكثير من العلوم كالطب والفلك والأغذيه لقد قام بأداء رأيه فى تناول الأغذيه والإكثار منها .. وبين أنها الاكثر تسببا فى مرض الإنسان وسقمه . واستشهد على ذلك بكثير من آراء الحكماء بحديث الرسول الكريم ﷺ : " أصل كل داء البروده ، وأصل كل دواء الحميه([٤]) كما أبدى رأيه فىالنبيز –

---

(١) المصدر نفسه ، ص ، ١٨٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ، ١٨٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ، ١٨٧ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ، ١٩٠ .

بعد أنن ذكر عده آراء بعدد من الحكماء منها قول الحكماء : إنه سئل عن الخمر فعابها ، إلاأنه قال : إذا أخذت كيف ينبغى ومع من ينبغى ، فلا بأس بها تفرح النفس ، وتذهب بالهموم . فأنكر عليه الأمير عبد الله هذا الرأى واستقبحه منه .. وبين أنه لا خير فيما لا تبيحه الشريعه ، ورد على من قال : إن الشراب يسلى الهموم بقوله :" وأنا أقول :" إنها تهيج الهموم " (1) .

وللأمير عبد الله ثقافه دينيه واسعه . فقد أجرى حوارا بينه وبين أحد المنجمين وذلك بعد أن ذكر الأمير عبد الله لأحد المنجمين بأنه على غير شيىء ، وأنهم غير صادقين فيما يقولونه فرد عليه المنجم بأنهم لا يقصدون بقولهم إن الكواكب فاعله ، أو أن أحدا منهم يعلم علم الغيب ، وأنما يقصدون بعلمهم أن الكواكب مصرفه ظز للأمور ، فقط ، وليست مقدره لها . وأن كل ما يقولونه يشبه ما يقوله أهل السنه . فرد عليه الأمير عبد الله بأنهم فيما يتحدثون عنه من التنجيم قد خالفوا القرآن الكريم ، وذلك لقولهم " يكون ولا كون " واستشهد الأمير عبد الله بقوله تعالى : (قل يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله) (النمل الآيه ٦٥) فلم يعدم لمجادله حجه فذكر الأمير أن كل مفتون ملقن حجته مستشهدا بقوله تعالى : (وكان الإنسان أكثر شيىء جدلا) (2) . الكهف من الآيه ٥٤ .

كما تناول بالحديث الجن وأنكر على الحكماء إنكارهم على الناس رؤيه الجن ، وتكذيب من يقول بسماع نطقهم أو كلامهم على ألسنه البشر فأنكر عليهم ذلك واستهجنهم فيه وبين أن من يعتقد ذلك فهو عندى مؤمن بالدين

---

(١) المصدر نفسه ، ص ، ١٩٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ، ١٩٦ .

الإسلامى وبين رأيه فى حقيقه الجن بأنه شيىء صحيح ، وأن من ينكر وجوده مخالف للقرآن الكريم ، كقوله تعالى : (عفريت من الجن) (النمل من الآيات ٣٩) وقوله تعالى : (يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) الأعراف من الآيه ٢٧ " وذكر أن الجن أحد الثقلين اللذين بشرا بالثواب ، وأنذار بالعقاب ،وخوطبا فيما خوطب به الأنس مستشهداً بالآية الكريمة ، وهى قوله تعالى (يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى)([1]) الإنعام من الآية ١٣٠ .

كما ناقش بأسلوب علمى مقنع فكرة من قال إن لذة الحياة الدنيا تتمثل فى جمعها والتمتع بملذاتها .. فبين خطأ هذه النظرية . وقام بمناقشتها بنقاش يتصف بالصدق والصراحة والتعقل وحث على الزهد فى الدنيا وبين أن الزهد الحقيقى يكون فيما تحبه النفس ، وبين أن النفس لا بد وأن تميل إلى ما فى سرورها واستشهد بالآية الكريمة ، وهى قوله تعالى: ﴿ وإنه لحب الخير لشديد ﴾ : (العاديات: الآية ٨) وبين أن النفس البشرية تتوق دائمًا إلى ما تكون محرومة منه ولكنها إذا أدركته انصرفت عنه لبلوغ نهمتها ، ومتى اقتنع عليها ، كانت به أشد كلفًا ورغبة فى الحصول عليه([2]) .

أسلوبه فى التأليف :

يتميز أسلوبه بالصراحة التامة والقول المنطقى ، خاصة فيما يتعلق بالأمور الدينية وتلحظ قوة العبارة فى أسلوبه إلا أنه لا يخلو من بعض الجمل الغامضة التى يصعب على القارئ فهمها بسهولة .

---

(١) المصدر نفسه ، ص ، ١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ، ٢ .

وأشار فى كتابه إلى القواعد الرئيسية للكاتب الناجح وهى الصراحة فى القول مع التزام الصدق فيه . فهو كثيرًا ما كان يشير فى كتابه إلى حرية الكلمة ، إلى الشجاعة فى إبداء الرأى ، وعدم التخوف فى ذلك ؛ لأن الخوف فى رأيه سبيل للقلق ، ونكد العيش إليه نفسه–على حد تعبيره ، بل عليه التزام الحذر . حتى لا تؤدى صراحته إلى ما يستفيد منه غيره وتصلح به حالة ، بينما يعود بالضرر على نفسه دون أن يشعر بذلك(١) " ويرى أن الكاتب الناجح فى نظره هو الذى يجمع بين شيئين وهو بلوغ أمله والوصول إلى ما يهدف إليه دون أن يترك فرصة لعدو ينفذ من خلالها إلى إلحاق الضرر به .

ويرى الأمير عبد الله أن الصدق وتحرى الحقائق والتأكد من حدوثها هىمن أهم المميزات التى يجب أن يلتزم بها المؤلف..فعلىالمؤلف أن يتحرى الصدق فى كل حادثة يذكرها ، لأن هناك حوادث تاريخية مختلفة فليست كل حادثة يسمع عنها تكون صحيحة فربما تكون مدسوسة على صاحبها .

كما يرى أن من مميزات الكاتب الناجح عدم تكرار الحوادث التاريخية، أو الإكثار من ذكر الحوادث المختلفة ، التى تحدث فى موضوع فهو يرى أن الغرض من التأليف هو كما يذكر:تجاهها بيان حقيقة غامضة،أو لبرئة شخص مما أسند إليه من تهم يكون عاجزًا عن الدفاع عن نفسه ، وذلك إما لموته أو لغيابه(٢) فعند ذلك يجب على المؤلف أن يذكر هذه الحادثة مبينًا الحقيقة فيها وهذا يبرر عدم ذكره لكل الحوادث التى مرت بها دولة بنى زيرى فى كتابه . فيبرز ذلك بأنه ليس عجزًا منه ، وإنما هو للحقيقة التى ذكرها .

---

(١)

(٢)

المراجع والمصادر

١ - ابن الخطيب : لسان الدين بن الخطيب ، حققه محمد عبدالله عنان الطبعة الأولى ، مكتبة الخانجى - القاهرة ١٣٩٤ - ١٩٧٤ .

٢ - الأمير عبدالله : آخر ملوك بنى زيرى بغرناطة - ب ٤٨٣هـ كتاب التبيان - تحقيق ليفى بروفنسال - نشر دار المعارض - القاهرة د.ت .

عرض الكتب

البوسنة والهرسك من الفتح إلى الكارثة

تأليف : الدكتور محمد حرب

مراجعة : محمود السيد الدغيم

الناشر : المركز المصرى للدراسات العثمانية

وبحوث العالم التركى. القاهرة ١٩٩٣

عرض وتقديم : أ. د. سيد أحمد الناصرى

بادء ذى بدء يجب أن نشيد بنشاط مؤلف الكتاب فى مجال البحث فى الدراسات العثمانية ، والآداب التركية ، وشئون الدويلات الإسلامية فى آسيا الوسطى ، وهو ومن خريجى جامعة إسطنبول ، كما أن إجادته للغة التركية مكنته من متابعة كل ما كتب عن هذه القضية باللغة التركية ، وبعض هذه الكتابات له أهمية خاصة لأنه يتصل بمصدر مباشر من مصادر المعلومات الخاصة بقضايا المسلمين فى البلقان ، كما أن للمؤلف أعمالاً أكاديمية هامة مثل ترجمته لمذكرات السلطان عبد الحميد التى صدرت له عام ١٩٧٧ بالإضافة إلى ترجماته لبعض الأعمال الأدبية والمسرحية التركية .

قسم المؤلف كتابه إلى بابين اشتمل كل باب على أربعة فصول . جاء الباب الأول بعنوان " **البوسنة والهرسة وتطور وضع المسلمين فيها إلى اليوم** " ويقع فى ١٥٨ ص (من ص٥ – ١٦٣) .

قسم المؤلف الباب الأول إلى أربعة فصول أولها بعنوان " البوسنة والهرسك قبل الإسلام " (من ص٥ إلى٢٢) . فأوضح مقاومة سلافيى البوسنة للفتح العثمانى بالتعاون مع الصرب ، غير أن العثمانيين سحقوا هذه المقاومة فى معركة فى – بولى التى قادها السلطان العثمانى بايزيد الأول على نهر الطونة (الدانوب) وذلك فى ٢٥سبتمبر عام ١٣٩٦ ميلادية خضعت بعدها

البوسنة تماماً للسيطرة العثمانية . غير أن المؤلف لم يرجع إلى الوراء إلى تاريخ هجرة قبائل البوشناق من آسيا الوسطى إلى البوسنة ، كما إنه لم يوضح انفصال كنيستهم عن كنيسة القسطنطينية بسبب تبنيها مبادىء قريبة من تعاليم الإسلام والتى أطلق عليها اسم الكنيسة البوغولية وتعرض أتباعها للاضطهاد والإبادة فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين وتعاطف الدولة العباسية مع هؤلاء البوغوليين الذين أيدوا بغداد فى صراعها ضد القسطنطينية عاصمة الروم ، وتأثير هذا التشابه بين تعاليم الكنيسة البوغولية والتعاليم الإسلامية مما كان سبباً فى إقبال البوشناق على الدخول فى الإسلام والنزاوج مع الأتراك ، كما أن الدولة العثمانية تبنت هذا العنصر المهجن واعتمدت عليه فى حكم ولاية البوسنة وبعض ولايات الدولة العثمانية . وكل ما ذكره المؤلف عن هذا الجانب قوله : " فتكونت كنيسة مستقلة سميت باسم الكنيسة البوشناقية أو البوغوميلية . وكانت هذه الديانة فى كل مظاهرها وعقائدها قريبة من الدين الإسلامى (ص٢٢) .

أما الفصل الثانى من الباب الأول فقد جاء بعنوان : أحوال البوسنة فى العهد العثمانى الإسلامى " (ص٢٣ - ٧٤) ، فقد تضمن مراحل الفتح العثمانى لهذه البلاد والتى اكتملت فى ربيع عام ١٤٦٣م فى عهد السلطان محمد الفاتح ، وتحرر المضطهدين من البوغولين البشناق من اضطهاد الكنيسة الصربية والكرواتية ، ثم الانسجام الذى قام بين العثمانيين وبين البشناق، فقد شارك هؤلاء الأخيرون فى الفتوحات العثمانية فى شرق أوربا ، وقدم عرضاً طويلاً عن مساهمات أبناء البوسنة فى هذه الفتوحات وتوليهم المواقع الهامة فى المناصب فى السلطنة العثمانية ، ويسوق لنا على سبيل المثال لا الحصر أسماء بعض الولاة البشناق من أمثال مصطفى باشا صهر السلطان سليم الأول والذى تولى ولاية مصر لوقت قصير عام ١٥٢٣م .

ويستمر في سرد الوقائع – بعضها كان مجهولاً لقراء العربية – إلى أن ينتهي الفصل عند قيام الحرب العالمية الأولى على إثر اغتيال ولي عهد النمسا فرانسوا فرديناند في سراي البوسنة (سراييفو) يوم الأحد ١٩١٤/٦/٢٨ على يد طالب صربي متطرف . أما الفصل الثالث فهو بعنوان : " البوسنة والهرسك من الحرب الأولى إلى قيام دولة يوغوسلافيا " (ص٧٥ – ١٠٥) وخلال هذا الفصل قدم عرضاً لمأساة المسلمين بعد سقوط الدولة العثمانية وتصفية ممتلكاتها على يد مصطفى كمال أتاتورك الذي يشبه في تصرفه تصرف جوربا تشوف عندما تسبب في حل الاتحاد السوفيتي . وما تلى ذلك من فوضى أدت إلى تعرض المسلمين للإبادة والتصفيات على أيدي الجيوش النظامية الأوروبية من ناحية ، ومن العصابات الصربية والكرواتية من ناحية أخرى ، ويستمر في سرد المأساة حتى سقوط الاتحاد اليوغوسلافي في ٢٩ فبراير عام ١٩٩٢ .

أما الفصل الرابع من الباب الأول . فقد جاء بعنوان : " جمهورية البوسنة والهرسك من الاستقلال حتى اليوم " (من ص١٠٦ – ١٦٣) وفيه حشد كماً هائلاً من المعلومات ذات المصادر المتنوعة أغلبها مستقى من الصحف اليومية خلال الفترة من ٢٩ / ٢ / ١٩٩٢ وهو تاريخ سقوط الاتحاد اليوغوسلافي وحتى ١٩٩٢/١٢/٣تاريخ إعلان جمهورية البوسنة والهرسك .

أما الباب الثاني من الكتاب فقد خصصه بعنوان " البوسنة والهرسك هوية المدن والرجال وشهود المأساة (ص١٦٥ – ١٩٦) وقد قسمه المؤلف كما سبق وإن ذكرنا إلى أربعة فصول . الفصل الأول تحت عنوان : هوية المدن في البوسنة والهرسك في العهد الإسلامي . (من ص١٦٥ – ١٧٦) . شمل نحو عشرين مدينة إسلامية ووصف أهم ما تحتويه من مرافق عامة وخاصة ، إسلامية وغير إسلامية . كما قدم إحصائيات بعدد السكان ،

واللغات المتداولة (أهمها الصربو - كرواتية) وعروق السكان ترجم ، أغلب معلوماته من كتاب تركى اسمه : تاريخ تركيا الكبير " لمؤلفه يلمظ أوزطونة . أما الفصل الثانى فهو : " جدول حكام بلاد البوسنة والهرسك فى العهد العثمانى " ابتداءً بإسحق بك ١٤٥٤م ، وانتهاء بأحمد مظهر باشا ١٨٧٩ وبلغ عدد حكام البوسنة ٢٣٦ حاكماً .. وفى نهاية الفصل قدم جدولاً بأسماء الوزراء والصدور العظام فى الدولة العثمانية من أبناء البوسنة والهرسك ، وتضمن أسماءً ١٣ وزيراً وصدراً وأعقبه بجدول بأسماء قادة الأساطيل العثمانية من أبناء البوسنة والهرسك بلغ عدد ١٦ أميراً للبحر وقائداً. وهذه الجداول مترجم من المرجع السابق ذكره " تاريخ تركيا الكبير (المجلد الثانى عشر) : أما الفصل الثالث من الباب الثانى فقد جاء بعنوان : تصحيح بعض الأخطاء الشائعة فى وسائل الأعلام فيما يخص البوسنة والهرسك " خاصة عن المدن والسكان وبعض المصطلحات . أما الفصل الرابع والأخير فهو عبارة عن مقتطفات : "الذين قالوا عن البوسنة والهرسك" كما جاءت على لسان أربعة عشرة سياسى وكاتب فى العصر الحديث .

إن هذا الكتاب الذى يتواكب صدورة مع ظهور ترجمة كتاب : "الإسلام بين الشرق والغرب لمؤلفه على عزت بيجوفيتش والذى نقله إلى العربية الأديب المخضرم الأستاذ محمد يوسف عدس مدير مكتبات جامعة قطر ، والذى نشرته مجلة النور الكويتية [**انظر عرض هذا الكتاب فى المجلة العربية للعلوم الإنسانية - التى تصدرها جامعة الكويت - العدد الثانى والخمسين - السنة الثالثة عشرة صيف عام ١٩٩٥ (من ص٣٢ -٣٢١) بقلم الأستاذ الدكتور فيصل بدر عون)**] يمثلان مصدرين أساسيين لمن يريد أن يدرس القضية البوسنية ماضيها وحاضرها ومستقبلها .

أ. د. سيد أحمد على الناصرى

رئيس قسم التاريخ ورئيس التحرير

NASSER AND AMERICAN FOREIGN POLICY

1952 - 1956

تأليف : محمد عبدالوهاب سيد احمد .

الناشر : دار النشر للجامعة الأمريكية .

The American Universily in Cairo Press 1989

عرض وتقديم : أ. د. سيد أحمد على الناصرى

يقع الكتاب فى ١٤٥ صفحة من القطع المتوسط بالإضافة إلى خلاصة البحث فىخمس صفحات(من١٤٧إلى١٥١)،ثم الهوامش(من ص١٥٤إلى٢٠٠) وقائمة المراجع (من ص٢٠١ إلى٢١١) ، ثم الكشاف (ص٢١٢-٢٢٤) وقد قدم للكتاب الأستاذ المؤرخ فاتيكيوتس ، كما شمل الكتاب مقدمة للمؤلف فى تسع صفحات .

الأصل فى هذا الكتاب رسالة قدمها المؤلف إلى مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن وحصل بها على درجة الدكتوراه فى التاريخ المعاصر عام ١٩٨٨ . ثم أضاف إليها وعدل فيها لتصبح كتاباً ويقول الأستاذ فاتكيوتس فى تقديمه لهذا الكتاب: " إن دارسى تاريخ مصر السياسى المعاصر عامة وفترة حكم عبدالناصر (١٩٥٢-١٩٧٠) خاصة على معرفة ضئيلة بالعلاقات بين الضباط الأحرار والولايات المتحدةخاصةمنذ مطلع الخمسينيات وحتى حرب السويس عام ١٩٥٦ . ولكن إلى أن تم الإفراج أو رفع السرية فى عام ١٩٨٤ عن وثائق الولايات المتحدة الخاصة بهذه العلاقة ، لم يكن فى استطاعة أحد من (هؤلاء الدارسين) توثيق طبيعة هذه العلاقة . لقد كرس الدكتور محمد عبدالوهاب نفسه لاستخراج هذه المواد من الأرشيف من أجل أن يدون ويحلل طبيعة العلاقات الأمريكية المصرية من عام ١٩٥٢ وحتى

عام ١٩٥٦، أى منذ صعود الضباط الأحرار إلى السلطة عن طريق الانقلاب العسكرى حتى قيام حرب السويس ، وبهذا يستعرض (المؤلف) محاولات الأمريكين لعقد صفقة مع ناصر حول ترتيبات الأمن الإقليمية فى الشرق الأوسط ، وكذلك لدفعه نحو التصالح المبكر مع إسرائيل . وفى مقابل ذلك أيد الأمريكيون المساعى المصرية لوضع نهاية لعلاقتها الخاصة مع بريطانيا ، وبينما نجحوا فى هذا المسعى الأخير ، فشلوا فى المسعى الأول . إن طموح عبدالناصر لزعامة الإقليم (الوحدة - العربية) تسبب فى وقوع صدام مع نظرية الأمريكيين فى الاستراتيجية الكونية للشرق الأوسط مما أدى إلى تدهور سريع فى العلاقات الأمريكية - المصرية قرب نهاية الخمسينيات .

وفى أثناء الولاية الثانية لأيزنهاور (١٩٥٢-١٩٥٦) حاول الأمريكيون على عجل وبدون توفيق فى احتواء تنامى نفوذ عبدالناصر فى المنطقة لكن الوقت كان متأخراً . إن محور اهتمام دراسة الدكتور عبدالوهاب هو تصوير التحدى الأمريكى لوضع بريطانيا فى مصر، وبصورة أوسع فى الشرق الأوسط وفشل المحاولات الأمريكية الطائشة فى الاقتراب من عبدالناصر وحكمه . وخلال تحرياته يشير المؤلف إلى الاتصالات المبكرة بين الضباط المصريين الأحرار بقيادة عبدالناصر ، وحكومة الولايات المتحدة قبل قيام ثورة يوليو عام ١٩٥٢ .

وهكذا فإن هذا العمل الذى نقدمه هنا يشكل بانوراما لدراسة تاريخ مصر السياسى المعاصر والسياسة الخارجية الأمريكية . وإنه بلا شك سوف يحث الباحثين لفحص أعمق لسياسة الولايات المتحدة خلال العقود الأخيرة الثلاث تجاه الشرق الأوسط " .

وإنه لمن قبيل المصادفة أن يكون الدكتور محمد عبد الوهاب من مواليد عام١٩٥٢ عام الثورة . وقد كان لى شرف التدريس له فى قسم التاريخ جامعة

عين شمس حيث أبدى نبوغاً توقعت له أن يكون باحثاً ذا شأن ، ثم عين معيدًا بقسم التاريخ فى جامعة سوهاج ثم انتقل لمثل وظيفته فى جامعة عين شمس التى تخرّج فيها ، حيث حصل على درجة الماجستير فى التاريخ الحديث ، ثم ابتعث للحصول على درجة الدكتوراه فى نفس التخصص إلى جامعة لندن فحصل علىالدكتوراه فى العلوم السياسية ، ثم عاد ليعمل مدرساً فى القسم الذى تخرج فيه .

ينقسم الكتاب إلى ستة فصول . الفصل الأول وقد جاء بعنوان : " **تطور العلاقات الأمريكية المصرية فى عام ١٩٥٢** " ويقع فى نحو عشرين صفحة (من ص١٣ إلى ٣٢) ، والفصل الثانى بعنوان : " **الطريق إلى الثورة والاتصالات المبكرة بين الضباط الأحرار والولايات المتحدة** " ، وتقع فى نحو سبع عشرة صفحة (من ص ٣٣ إلى ص ٥٠) . والفصل الثالث جاء بعنوان : " **الولايات المتحدة والثورة المصرية** " ، وتقع فى تسع عشرة صفحة (٥١-٧٠) أما الفصل الرابع فقد جاء بعنوان : " **الولايات المتحدة والمعاهدة الإنجليزية - المصرية عام ١٩٥٤** " فى حوالى خمسة وعشرين صفحة (٧١ -٩٦) ، أما الفصل الخامس فقد جاء بعنوان : " **انهيار السلام** " ، وهو أطول فصول الكتاب فى حوالى خمسة وثلاثين صفحة (ص٩٧-١٢٢) . أما الفصل السادس فقد جاء بعنوان:" **الولايات المتحدة وأزمة السويس** " فىحوالى سبعة وعشرين صفحة (١٢٣-١٤٦) ، ثم الخاتمة فى خمسة صفحات (١٤٧-١٥٢) ، ثم هوامش الفصل (١٥٣-٢٠٠) وقائمة المراجع (ص٢٠١-٢١٢) ثم الكشاف (ص٢١٣-٢٢٤) إننا نجد تقديم الأستاذ المشرف فاتكيوتس هو لب الرسالة، أما التفاصيل الدقيقة التى وردت فى الفصول فإننا نطرحها للنقاش والتعليق من جانب طلاب التاريخ المعاصر والعلوم السياسية .

موضوع الكتاب جديد وجرئ ولا تقول أنه نهاية البحث فى هذا الموضوع بل فتح الدكتور عبدالوهاب باباً كان مغلقاً ليدخل طلاب تاريخ مصر المعاصر إلى هذا المجال . ولغة المؤلف الإنجليزية واضحة وسهلة ودقيقة لا يجد قارىء العربية الملم باللغة الإنجليزية أى صعوبة فى فهمها . كتاب نوصى بقراءته .

أ. د. سيد أحمد على الناصرى
رئيس قسم التاريخ ورئيس التحرير

All Correspondence to be directed to:

Editor - in Chief: PROF. S. A. EL - NASSERY,

Cairo University, Faculty of Arts,

Orman, Giza, A. R. E.

رقم الإيداع : ٨٨/٧٢١٧

الترقيم الدولى ٩ - ٢٦٠ - ٢٣٨ - ٩٧٧

Cairo University
Faculty of Arts

THE EGYPTIAN HISTORIAN

STUDIES & RESEARCHES IN HISTORY & CIVILIZATION

A BIANNUAL PUBLICATION OF
THE DEPARTMENT OF HISTORY

Editor - in - Chief: Porf. S. A. EL - NASSERY

Volume 16 (JANUARY 1996)

Cairo University
Faculty of Arts



THE EGYPTIAN HISTORIAN

STUDIES & RESEARCHES IN HISTORY & CIVILIZATION

A BIANNUAL PUBLICATION OF
THE DEPARTMENT OF HISTORY

Editor - in - Chief: Porf. S. A. EL - NASSERY

Volume 16 (JANUARY 1996)

محتوى العـــدد